

Princeton University Library

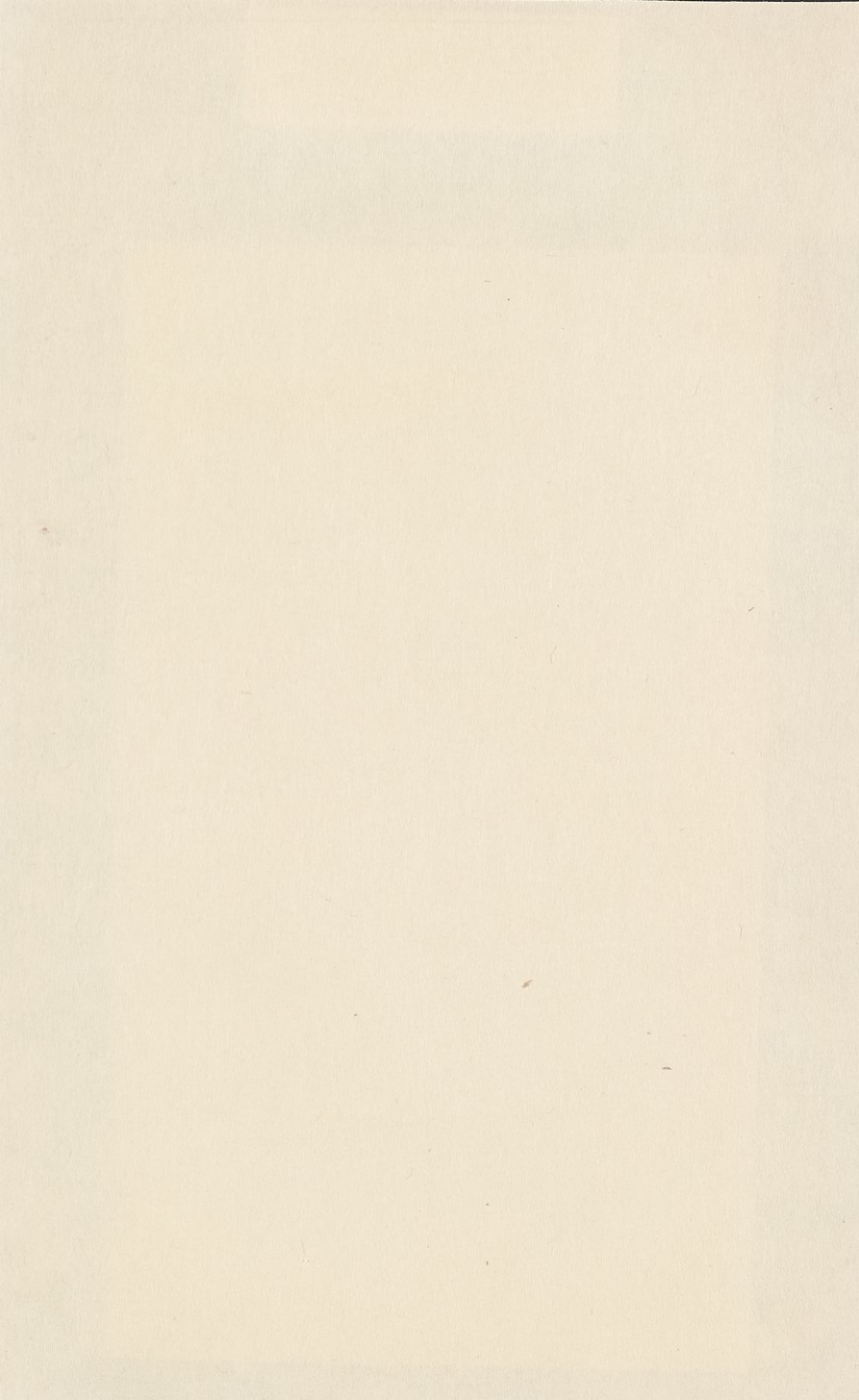


32101 060770177

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

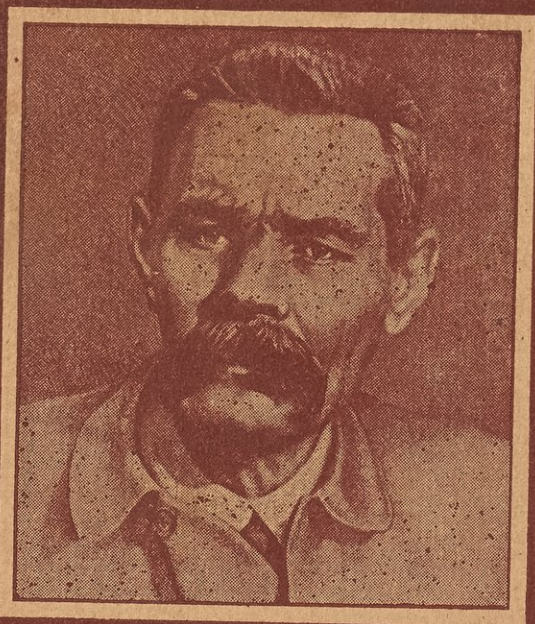
--	--



مطبوعات لجنة نشر الثقافة الحديثة

ذکریات ماکسیم جورکی

ترجمہ عبد المعین الملوہی



مكتبة أبو شادي

لجنة نشر الثقافة الحديثة

Gorky

ذكريات ماكسيم جوركي

ترجمة عبد المعين الملوحي

الناشر: دار القرن العشرين للنشر
ص. ب. ١٩٢٤ - القاهرة

(RECAP)

(Contab)

PG 3465

A627

y



32101 014476277

الى الذين انبتقوا من صميم الشعب العربي
المجرب ، ليكونوا رفاقاً يرفعونه الى ذروة الحرية
والكرامة والخلود .

يقدم هذا الكتاب :

عبد المعبين الملوحي

مقدمة

قدم رومان رولان ترجمة « والفولاذ سقيناه » للكاتب السوفيتي أوستروفسكي فقال :

« أعظم الآثار الفنية في الثورة الرجال الذين تبذلهم ، ففي انفجار الحياة الجديدة التي تشق الأرض المنكشمة تبدو هنا وهناك أرواح من نار كأنها أناشيد تملأ آفاق السماء بصرخات الايمان ، ودعوات العقيدة ، فتتمدد أصدائها لتعيش بعد أن يزول أصحابها . »

وهذا أثر فني أقدمه إلى المكتبة العربية لكاتب كان هو أثراً فنياً لثورة ، هو مكسيم جوركي صانع الثورة الاشتراكية الأدبي .

ستلخص في هذا الكتاب تطور الكاتب في حياته العاطفية والفكرية والأدبية . وستلخص في عرض هذا التطور ثلاث ميزات على الخصوص :

أما الميزة الأولى فهي صدقه في عرض مراحل هذا التطور ، فتعجب كيف مشى مكسيم في طريقه الواضحة البيضاء الأخيرة بعد تلك البنيات والمنعطفات الكثيرة السود التي كادت لولا أن جوركي كان جوركي ، أن تستبد به ، « والعجب أن كل هذا كان يقصيني عن باشكين وتروسوف ، وإن كنت أحبهما . ولقد كان منطقياً ، ومنطقياً جداً أن يقودني ما قاسيته في الحياة إلى السير على منوالهما ، ولطالما دفعني إليهما خيبة أملي في أن أرتقي وأتعلم ، ولطالما شعرت في ساعات الجوع والتعب والقلق أني قادر قدرة تامة على أن ارتكب جريمة لن تنال « حق الملكية المقدس » وحده ، ولكن رومانطيقية الشباب حالت بيني وبين أن أجور عن قصد السبيل التي كان على أن أسير فيها . »

ولربما شعرت أن مكسيم كان في عرضه لبنيات الطريق أكثر وضوحاً وصراحة من عرضه لطريقه نفسها .

والميزة الثانية في كتابه هي أنه لا يتدخل في عواطف من يتصل به ولا في أفكار من يتحدث عنه أو إليه ، فتراه يعرضها علينا مهما كانت مخالفة لعواطفه وأفكاره الخاصة ، في قوة لا تحس معها أبداً أن قد دخلها نوع من أنواع التبديل والتحريف ، ولقد التقي مكسيم ببلصوص وقتلة وحمالين وخبازين وشرطة وقواد وطلاب وشعبيين وثوريين ومؤمنين وملاحدة ، وتولوستيين وماركسيين ومثقفين بورجوازيين وغير بورجوازيين ، ونحدث عنهم كلهم ونقل عنهم ما كانوا يعتقدون في إخلاص ووفاء .

أما الميزة الثالثة فهي أن مكسيم كان يقدر كل إنسان حق قدره ، ولم تكن عواطفه تمنعه الحكم الصحيح الصادق على الأشخاص الذين عرفهم وعرفوه ، والذين أثروا في تطوره ، والذين أحب ، والذين كره ، ولقد شمرت في كثير من مواقف الذكريات أن لو كنت أنا مكان مكسيم لم يكن موقفى من الشخص الذى ذكره غير موقفه .

ستقرأ هذا الكتاب فتشعر ، ولكن لم أفرض عليك أن تشعر بما شعرت أنا به ؟ فلاغير هذه اللهجة الخطائية ولأتحدث عما شعرت أنا به عند قراءته : شعرت أنى أرفرف على هذه الأرض التى أحيا عليها وأحبها بجناح يمسها حيناً ويحلق فوقها حيناً ، ولكسى كنت إذا استمتعت بهذا الطيران الناعم الدقيق أحسست فجأة أنى استبدلت بجناحى هذا الضعيف الصغير ، جناحى نسر يحلق ثم يحلق ويرتقى ثم يرتقى ليملاً عينيه بنور الشمس ويفعم قلبه بحرارتها ، وليظن حقاً أنه شاركها في سموها وجلالها ، ثم يهبط إلى الأرض ليعيد إلى نفسى جناحها الناعم الصغير .

وهكذا كنت أمشى مع جوركى في ضباب الصباح الذى يمس الأرض أو يكاد يمسها فإذا بلغت موطناً من مواطن حديثه عن القبول الذى كان يعيش فيه ، أو عن المركب الذى غرق في الفولجا ، أو عن مقتل إيزوت ، وحديث روماس عنه ، أو عن تمزيق جوركى لبواكير ثمراته الأدبية ، أو عن غير هذه المواطن ، كنت

أشعر إذا بلغت موطناً من هذه المواطن أني دخلت قلب الحياة وسرت في شرايينها وتلمست أوردتها وتحولت إلى نقطة من دمها الحار الدافق .

لا أريد أن أحلل ذكريات جوركي هذه ، وإنما هي إشارات ورموز .
في هذه الذكريات إنسانان :

الإنسان الأول فردى شخصى يميل على الدنيا من حوله إرادته ، ويقول لنفسه كوني فتكون ، إنسان عرف « أن ليس من شيء يخلق الإنسان غير مقاومة البيئة » فقاومها وأنقذ نفسه من حمال وخباز وأجير ومالي زجاجات خمر ، وحارس سكة حديد ، و... ، ليكون هو وحده أعظم كاتب لأعظم ثورة . إنسان كان يسأل دائماً نفسه : « يا نفس ماذا يضمرك للمستقبل ؟ وماذا ستكونين ؟ » إنسان بلغ من فرديته أنه قال : « كل ما حولي فراغ لا أجد فيه أحداً . » وكان يكره أن يدعى « ابن الشعب » .

والإنسان الثاني اجتماعى إنسانى يميل على الدنيا مرة أخرى إرادته . ويقول لها كوني أقل جريمة فتكون ، إنسان قال « كانت خطب عباد الشعب تهبط على قلبي برداً وسلاماً ، وكان عزائي أن أستمع إلى الأدب الحى العنيف يصف حياة القرية القائمة ، ويدعو إلى إنقاذ الفلاح الشهيد . وشعرت أن ليس في مقدور إنسان أن يكشف معنى الحياة وأن يفهمها إلا إذا أحب الإنسانية حباً قوياً عنيفاً ، وأن هذا الحب القوى العنيف وحده هو القادر على أن يمدّه بما يتطلبه اكتشاف معنى الحياة وفهم مغزاها ، من طاقة وجهده .

ومن أجل ذلك كله تركت التفكير بنفسى لأهتم بغيرى .»

لقد فاضت هذه النفس لأنها غضة غير يابسة ، غنية غير فقيرة ، خصبة غير مجدبة ، فاضت بالماء والثروة والريبع ، واستبد بها كما يقول صاحبها « لهفة لاتطاق تريد أن تزرع الخير والعدل والخلود »

إنسانان عاشهما مكسيم جوركي فتمتع بهما كليهما فكان فرداً وكان إنساناً ، فرداً ينازع نسر الجبل وحدته وعزله وكبرياه ، وإنساناً ينازع ماء الجدول فيضه وعدوبته ، كان إنساناً حقاً ، ولعلنا نحن العرب الذين تستبد بأكثرنا فردية

حمقاء سطحية ، في هذه النفس المغلقة أولاً ، وفي هذا الوطن الشقي ثانياً ، أشد الناس حاجة إلى أن نجد في أنفسنا هذين الإنسانين .

أنا ونحن ، الفرد والمجتمع ، ما يزالان لغزاً لم تحله إلا سنة ١٩١٧ في مكان ما من هذا العالم . ولقد كان مكسيم غوركي واحداً ممن عرف هذا الحل ، وواحداً ممن قام به .

يجب أن نبني المجتمع كما نريد ، وكما نعتقد أنه يجب أن يكون ، ولكن هذا البناء يحتاج هدماً فلنصنع نحن هذا الهدم ثم لنصنع ذلك البناء على مقدار ما عندنا في هذه المرحلة من مراحل الإنسانية من عقل وذكاء وفهم وعاطفة .

ولسنا نكلف أنفسنا وضع دساتير كيميائية نصنع منها مادة اجتماعية جامدة ، لا لن نكلف أنفسنا ذلك ولو كلفناها لم نجد لها استجابة ، ولم نجد لها طاقة ، سنصنع نحن ما نريد أن نصنع ، وما نعتقد أن علينا أن نصنعه ، وليصنع من بعدنا ما يريدون أن يصنعوا وما يعتقدون أن عليهم أن يصنعوه .

ما أكثر سخف من يدعى أنه سيقدر مصير العالم ألف عام .

إنه قد يستطيع أن يذبذب سيره بضع سنين ، ثم يمشي على رأسه العالم ، كما تمشي العاصفة على ألف عود يابس .

لنكن على يقين بما فهمنا ، ولنعمل على زيادة ما نفهم وعلى تحويل ما فهمنا وما نفهم إلى حقائق ووقائع ، وأحداث ، كما صنع من قبلنا .

ما أكثر سخف من يدعى أن أحداً من الناس قد قرر مصير العالم منذ ألف عام وألف عام ! إنه قد استطاع أن يساير العالم دوراً من أدوار التاريخ ثم مشى على رأسه العالم كما تمشي العاصفة على ألف عود كان من قبل غصناً طرياً . هذا واجبنا وسنؤديه ولعل خطوة من خطوات أداء هذا الواجب نشر هذا الكتاب .

ليست هذه مقدمة !

عبد المومنين المومني

القاهرة ١٥/٢/١٩٤٥

الفصل الاول

ها أنا ذا إذن راحل أطلب العلم في جامعة قازان — وهل أقل من ذلك ؟
تلك فكرة أوحاها إلى ن. ايفيرنوف ، وهو تلميذ ثانوى كان شاباً وسيماً ، عيناه
وادعتان كأنهما عينا فتاة . وكان يسكن سطح المنزل الذى أسكن .
رأى أقرأ كثيراً ، فاهتم بى وتعارفنا ، ثم تعهد بإقناعى « أن لى فى العلم
استعدادات خارقة » .

قال لى مرة ، وهو يحرك ، فى جلال ، ذؤابته الطويلة : — إنما خلقت لتخدم
العلم . وكنت لا أزال أجهل أن فى استطاعة أجير مثلى أن يقوم بخدمة العلم .
ولكن ايفيرنوف بين لى بياناً واضحاً أن الجامعات فى حاجة قصوى إلى أمثالى ،
ولم ينس طبعاً أن يبحث لى عن ظل فى « ميشيل لومونوسوف » ، وقال ايفيرنوف
أيضاً إنى سأسكن بيته فى قازان ، وسأتابع خلال فصلى الخريف والشتاء دروسى
فى الثانوى ، وسأجتاز « بعض » الامتحانات ، أجل « بعض » الامتحانات ، وسأنال
« الإعانة » الجامعية ، وسأغدو بعد ذلك فى خلال خمس سنين « عالماً » من العلماء .
كان هذا كله بسيطاً جداً لسبب واحد بسيط جداً ، هو أن عمر ايفيرنوف سبعة
عشر عاماً وأنه هو ذو قلب طيب .

أنهى ايفيرنوف امتحاناته وسافر ، ووجدتى فى تموز فى بلدة نصف تترية أسكن
ناحية ضيقة فى بيت ذى دور واحد .

كان هذا البيت واطياً منعزلاً ينام على سفح هضبة فى رأس شارع ضيق فقير ،
ويطل أحد جدرانها على أرض سبخة تتكاثر فيها الأعشاب . وهناك ، بين
الأشواك والشيخ والقصب والزعزور ، ترتفع أنقاض بناء صغير من الآجر ، أتى
عليه حريق قديم ، وامتد تحتيه قبو واسع تحيا فيه الكلاب الشاردة وتموت ، إلى
الآن . تماماً هذا القم ، فأتى كان مدرسة من مدارس .

كانت عائلة ايفيرنوف — الأم وولداها — تجر حياتها على حساب مرتب
بأس ضئيل، ولقد لاحظت منذ الأيام الأولى، كيف كانت الأرملة الصغيرة الشاحبة
تلقى، فوق منضدة المطبخ، عند عودتها من السوق، بضاعتها الناحلة، وهى منهمكة
فى حل هذه القضية العسيرة: كيف تستطيع أن تخلق من قطع صغيرة من لحم
كرىه، كمية تكفى غذاء ثلاثة عمالقة أشداء؟ أما هى فلم تكن تخطر لها نفسها
فى حساب.

كانت صامئة قايلة الضجة، يتجمد فى عينيها الشهاوين عناد عذب، هو ذلك
العناد الذى لا أمل فيه، عناد حصان أنضاه العمل: هذه البهيمة المسكينة تجر عجلة
فوق رايسة، إنها لن تبلغ مداها، وإنها لتعرف ذلك، وهى رغم ذلك كله، ومن
أجل ذلك كله، دابئة على عملها القاتل، مستمرة فيه.

سألتنى ذات صباح بعد يومين أو ثلاثة من قدومى، وكنت أساعدها فى تقشير
الخضار، وولداها نائمان، فى صوت عذب فيه تحفظ وحيطة:

— ماذا جئت تفعل؟

— أدرس فى الجامعة!

وارتفع حاجباها وتجددت جبهتها الصفراء، وقطعت إصبعها بسكينها، وألقت
بنفسها على الكرسي. وهى تمص دمها، وقالت وهى تنهض رأساً:

— آه، عليك اللعنة يا إبليس.

ثم أثنت، على وهى تلف إصبعها الجريح بمندياها، هذا الثناء العاطر:

— إنك تجيد تقشير البطاطا!

وعجبت لها كيف لا تعرف هذا منى! فشرعت أقص عليها أخبارى وأنى طالما
قمت بهذا العمل وأنا أشتغل على ظهر مركب. فسألتنى أهدأ ما تكون:

— أفتظن إذن أن هذا كاف لدخولك الجامعة؟

وكنت فى ذلك العهد لا أفهم النكسة، وحسبت فى سؤالها الجذ كله، فعرضت
عليها عرضاً مفصلاً ذلك المشروع الذى سيفتح لى أبواب معبد العلم. فتنهدت

وصاحت: آه، نيقولا، نيقولا!

دخل نيقولا المطبخ ، وهى تتنهد ، ناعساً ، أشعث ، مراحاً كعادته .

— يأمأه ، هلا صنعت لى فطائر صغيرة ؟

— طيب ، طيب .

وتدخلت لأبين لها معارفى فى الطعام فأعلنت أن اللحم لا يلائم صنع الفطائر وأنه ، إن لاعم ، فهو غير كاف أبداً .

غضبت فرارا إيفانوفاً ، وسلقتنى بكلمات حداد شعرت لها أن أذنى احمرتا واستطالتا وخرجت من المطبخ وهى تقذف على المنضدة بياقة من الجزر ؛ أما نيقولا فقد غمزنى بعينه وفسرلى سلوك أمه قائلاً : — ما أشد ضجرها اليوم !

ثم جلس على كرسى وجعل يحدثنى عن النساء ، وأنهن على العموم أسرع ثورة من الرجال ؛ وأن ذلك فى طبيعتهن ، وأن عالماً شبيراً سويسرياً بين ذلك بياناً لا يأتیه الشك ، وأن جوهن ستوارات ميل ، الانجليزى ، عرض لذلك أيضاً .

كان نيقولا يحرص على تعليمى حرصاً بالغاً ، ويستغل كل فرصة ، ومناسبة ليزرع فى عقلى مفهوماً من المفاهيم التى يراها ضرورية لا يستطيع الإنسان العيش بدونها .

وكننت أنا أيضاً أصغى إليه إصغاء الشره الجائع ، ولم ألبث أن اختلط فى ذهنى فوكولت ، ولاروشفوكلد ، ولا روشا كلان فى شخص واحد ، ولم أستطع أيضاً أن أتذكر أى الرجلين قطع رأس الآخر : ألافوازيه أم ديموريه ؟

كان الشاب الظريف يتمنى فى إخلاص « أن يجعل منى رجلاً » ووعدنى بذلك وعد المؤمن الموقن ، ولكن قلة ماله من الفرص ألجأته إلى أن لا يهتم بى اهتماماً جدياً ، وكانت أنانيته وطيشه يحجبان عنه ما تقاسى أمه من جهد ومن حيلة فى سبيل تدبير المنزل ، أما أخوه البليد الصامت ، وكان تلميذاً فى الكلية ، فكان أقل منه شعوراً بما تقاسى .

كنت أعرف معرفة صحيحة ، منذ أمد بعيد ، صناعة المطبخ كإمواياً واقتصادياً

وكننت أرى في جلاء تلك العبقريّة التي تبذلها هذه المرأة في كل يوم لتتخذ معادات أنبيائها ، ولتشبع فوق ذلك طفيلياً مثل ، مظهره موحش قبيح ، وحركاته لا تسر ولا كسها تسوء .

ولقد كان طبيعياً ، وأنا أعرف هذا كله ، أن تكون كل كسرة من خبز تؤدى إلى قطعة من حجر تسقط في روحي ، فشرعت إذن في البحث عن عمل . . .

كننت في الصباح أغادر البيت كي لا أتعدى ، فإذا اكفهر الجو وعبس ، أويت إلى القبو في الأرض السبخة . وهناك ، في هذا القبو ، وأنا انشق رائحة الكلاب والقطط الميتة وأسمع أزيز العاصفة وأنين الريح ، لم ألبث أن فهمت أن الجامعة ليست إلا وهماً من الأوهام ، وحلماً من الأحلام ، وأن على أن أسافر إلى إيران ، وخيل إلى سلفاً أنني ساحر ذو حلية شهباء يستطيع أن ينبت حبة من القمح فيجعلها كالبطاطا ، ثم يجعل حبة البطاطا خمسة عشر رطلاً ويخترع أنواعاً كثيرة من الكرامات في تلك الأرض التي لن أكون فيها وحيداً في كفاح متاعبها وأهوالها .

تعلمت كيف أحلم بمغامرات خارقة ، وبمشروعات باهرة ، ولقد أعانتني أحلامي هذه على تحمل الآلام في تلك الأيام السود ، وكننت ، وهي كثيرة مرهقة ، أسعى وأجهد نفسي في تتبع هذه الأحلام واصطيادها ، ومع ذلك فقد كننت لا أنتظر قط غوثاً خارجياً يهبط على من السماء ، لا أقرب أبداً مصادفة سعيدة تصعد إلى من الأرض ، فتمخضت في نفسي ثم ولدت إرادة حديدية جبارة وكننت كلما ازدادت الحياة عنتاً وظالماً أحسست أني أشد قوة ، وأوفر ذكاء . أجل لقد تعلمت وتعلمت في ساعة مبكرة أن مقاومة البيئة هي وحدها قادرة على خلق الإنسان .

كننت إذا أرهقني الجوع ، وكرهت أن أصوم ، أذهب إلى ضفاف الفولجا فأشتغل هناك بخمسة عشر أو عشرين « كوبكا » ، وأشعر أني بين الحمالين والحفاة والنشالين مثل قطعة من حديد غمست في نار حامية ، وكم أفعمتني مجموعة من الانطباعات الحادة المحرقة ، وعصفت بي هناك كتل من رجال ، جامحة نزعاتهم ، فطيرة غرائزهم ، أحببت نفوزهم من الحياة ، وسخرهم بالعالم كله ، ذلك السخر الذي ينالهم هم في أنفسهم ، فلا يكثر ثون بها ولا يعباون ، وكان ماعشته في نفسي ، وما حييته من

حياة، يدفعان بي نحو هؤلاء الناس دفعاً عنيفاً ، ويزينان لي ما ألقوا من حياة ، ويحببان إلى أن أنغمس فيما انغمسوا فيه من بيئة مذيبة صاهرة ، وزاد في ميلي إلى هذا المحيط ما قرأت من روايات « الرصيف » ورواية « بریت هارت » منها على الخصوص .

ولكم بذل باشكين من جهد ، وأنفق من فصاحة ، في سبيل إقناعي ؛ وكان باشكين لصاً مهنيّاً ، وطالباً قديماً من طلاب دار المعلمين ، وقد أصابه السل وهذه الضرب القاسى ، ولطالما سمعته يقول لى :

— إنك كالفتاة فيما تفعل . أتخاف أن تضيع الشرف ؟ الشرف ثروة الفتاة وهو ثروتها الوحيدة ، ولكنه ليس لك أنت إلا عقلاً ورسناً ، إن الثور شريف وهو لذلك يأكل الشوفان .

كان أزهر حليقاً كالماشلين ، تذكرنى حركاته اللدنة الدقيقة ، وجسمه الضئيل بقط صغير ؛ كان ينصب نفسه أستاذاً لى ومحامياً عنى ، وشعرت أنه يتمنى فى إخلاص عميق نجاحى وسعادتى . كان شديد الذكاء ، قرأ كثيراً من المؤلفات القيمة . وكان يعتبر رواية « كونت مونت كريستو » خير ما كتب دوماس .

— فى هذا الكتاب فكر وعاطفة .

كان مولعاً بالنساء ، إذا تحدث عنهن تحدث فى شهوة عنيفة ، فثار والتهب ، وأخذته رعدة تهز جسمه المحطم ، وطالما أزججتنى هذه النوبات ، وطالما أصغيت إلى أحاديثه ، وهى تفيض بالقوة والصدق .

إذا رأيته سمعته يردد متمتماً — المرأة ، المرأة ، ثم تراه وقد ألهبت جلد وجهه الأصفر حمرة قانية ، وأضاءت عينيه الشهلادين إشعاعة إعجاب .

— فى سبيل امرأة واحدة أفعل كل شئ . فى سبيلها وفى سبيل الشيطان لا أثم ولا حرج . أنا ، ما عشت ، مخمور أو عاشق : وهل أبدع الإنسان خيراً من الخمرة والعشق ؟

كان قصاصاً بارعاً ، ينظم للهومات ، فى سهولة وسرعة ، أغانى مؤثرة عن الحب وآلامه ، وقد طارت شهرتها فى مدن الفولجا ، وغناها الناس على شاطئيه ، وهذه

الأغنية المشهورة لبست إلا له :

أنا شوهاء دميمه مزق الفقر ثيابي
ولهذا ليس لي زو ج فيالهف شبابي

وأحبني أيضاً رجل آخر يدعى تروسوف حباً جماً ؛ وكان أحول ، أصابعه ناعمة موسيقية ، رشيق القامة ، أنيق الزي ، يدير حانوت ساعات في ناحية الأميرالية ، ولكنه يهتم أكثر ما يهتم بإخفاء المسروقات وتدفيرها .

قال لي مرة ، وهو يداعب في وقار لحيته الفضية ، ويغمض نصف عينيه الخبيثتين النافرتين :

— أما أنت يا بشكوف فلا تسرق ، أنا أعرفك ، وأعرف أن لك وجهة أنت مولياها ، فأنت مثالي .

— مثالي ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

— المثالي هو الذي لا يحرص على شيء ، والذي ليس له من دهره إلا التطلع والفضول . أما هذا الحكم على ، فيما عرفت من نفسي ، فليس صحيحاً ؛ كنت أرغب في كثير من الأشياء رغبة ماحجة جاحجة — ومن هذه الأمور التي كنت حريصاً عليها مالكة باشكين في الحديث وبراعته ولسانه الذرب ولغته التي تشبه الشعر — وصوره والتفاتاته الفذة التي تبدهك وأنت لا تتوقعها .

تلك مقدمة إحدى مغامراته الغرامية :

في ليلة ذات عيون قلقة مضطربة ، وجدتني في غرفة ، كائنني حدأة في جوف شجرة ، وبذلك في مدينة سفيا جسك . نحن في فصل الخريف ، وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) والمطر يهطل في رخاوة وكسل ، والريح تتنفس كما يتنفس التري إذا أهين — فهو يسحب أغنية .. أغنية ليس لها نهاية .. أو — أو — أو — أو — أو — .. ها هي تقترب رشيقة ، خفيفة ، موردة كسحابة في قلب الشروق وعيناها تلتمعان في طهارة كاذبة . قالت لي في صوت أبيض نقي : « أنا ما أسأت إليك » . إنها تكذب وأنا أعرف كذبها ؛ ولكن دعني أعتقد أنها صادقة . إن عقلي ليقن

يقيناً ، أو على الصحيح إنه يحس إحساساً تكذبها ، ولكن قلبي لا يلوى على شيء من قناعة عقلي .

كان يقص أقاصيصه علينا ، وهو يهتز اهتزازاً توقيعياً ، وعيناه مغمضتان ، وأنامله تلس في حركة عذبة رفيقه موضع قلبه في صدره . أما صوته فكان أصم لالون له ، وأما كلماته النابضة بالحياة فكانت تغنى وتوقع موسيق عنديليب .

و كنت أيضاً أحسد تروسوف . فلكم تحدث عن سيديريا ، وخيفا وبخارى ، حديث الجاد الرصين ؛ ولكم قص علينا حياة السكهان قصص المغتبط الخيث ؛ قال لي مرة ، كأنه يسكب في أذني سرّاً ، يحدثني عن اسكندر الثالث :
— هذا القيصر خبيث .

لقد رأيت في تروسوف آثماً من أولئك الآثمين الذين ينقلبون في آخر الرواية إلى « أبطال كرام » .

كانت هذه الجماعة إذا اشتد الحر ، واختفق هواء الليل ، تحترق نهر كازاتكا الصغير ، إلى حقول ضفته الأخرى ، وهناك تشرب وتطعم ، وهي بين هذا وذاك تتحدث عن أحوالها حيناً ، وعما لها من شؤون ، وعما في عيشها من تعقيد ، وتتحدث في غالب الأحيان عن ذلك التشابك الغريب الذي يسود علاقة الانسان بالانسان ، وتتحدث كذلك عن النساء حديثاً من نوع خاص فذ فيه أسى وحزن ، وفيه وجد وصبابة ، وفيه دائماً عاطفة انسان يريد أن يكنه سرّاً في ظلمات تنص بالمفاجآت الخفيفة .

قضيت بين هذه الجماعة ليلتين أو ثلاث ليال ، تمتد فوق سماء قائمة ذات نجوم شاحبة ، وتلفي رطوبة خانقة يبعثها غدير تكستغه أشجار الصفصاف ؛ وفي هذه الظلمة التي يرطبها الفولجا تتراعى أضواء النوافذ كعناكب مذهبة على الشاطئ الأسود ، وتبدو نوافذ الحانات والمنازل في قرية (أوسلون) الغنية وضاءة كأنها كتل وشرابين من نار . وهناك على صفحة النهر إيقاع أصم توقعه المجازيف ، وعواء مثل عواء الذئاب تبعثه البحارة فوق مركب . وهناك في مكان ما ، مطرقة تطرق الحديد ، وأغنية تجر نفسها قائمة . إنها روح تحتضر ، وتموت في رفق ، إنها تدر في القلب رماد الأسى والشقاء .

وأشجى من ذلك كله أن تسمع هؤلاء الناس تنساب أحاديثهم في هدوء، يفكرون في الحياة، وقد أفاض كل منهم القول فيما أهمه من أمر؛ ولا يكاد أحدهم يسمع أخاه. كانوا إذا جلسوا أو استلقوا تحت الأشجار، دخنوا أو شربوا شرب النهم الظمان، ثم عادوا إلى مكان هنالك في الماضي — على طريق الذكريات.

يقول واحد منهم: — كان .. ثم كان .. وقد سحقته ظلمة الليل على الأرض، ويسمعه من حوله من الناس فإذا سمعوه قالوا — دنيا .. ياما في الدنيا .. كان .. يكون .. قد كان .. — كلمات كنت أسمعها فيخيل إلى أن العالم قد قامت قيامته، وأن كل ما يمكن أن يكون قد كان وأن لن يكون بعد ذلك شيء أبداً.

والعجب أن هذا كله كان يقصيني عن باشكين وتروسوف، وإن كنت أحبهما، ولقد كان منطقياً أن يقودني ما قاسيته في الحياة إلى السير على منوالهما، ولطالما دفعني إليهما خيبة أمل في أن أرتقي وأتعم، ولطالما شعرت في ساعات الجوع والتعب والقلق أنى قادر قدرة تامة على أن أرتكب جريمة لن تنال « حق الملكية المقدس »، وحده، ولكن رومانطيقية الشباب حالت دوني ودون أن أجور عن قصد السبيل الذي كان على أن أسير فيه.

كنت قد قرأت عدا « بریت هارت » الانسانية، وغيرها من روايات الرصيف، عدداً طيباً من كتب محترمة، فأيقظت في نفسي هذه المطالعات إichاءات عن شيء غامض لم أدرك منه إلا أنه أكثر أهمية وأبعد غاية من كل ما رأيت، وأحدثت لي في الوقت عينه علاقات جديدة وانطباعات جديدة؛ فقد كان طلاب المدرسة التجهيزية يجتمعون في الأرض السبخة يلعبون، وملك على «جورى بليتنيف» نفسى؛ كان نحاسى اللون، مزروع الشعر، كأنه يابانى، تملأ وجهه نقط سود كأنها آثار بارود، دائم المرح، ماهراً في اللعب، لبقاً في الحركة، تكمن فيه بذور عبقریات مختلفة. كان كأكثر ذوى المواهب من الروس، يلائم ما قدمت له الطليحة من وسائل ثم لا يعبأ بإنمائها أو بزياتها.

كان مرهف السمع، دقيق الإحساس في الموسيقى، يعزف على الآلات الشعبية من شبابة، ومزمار وغازفة. ولم يحاول يوماً أن يعزف على آلة أكثر منها رقياً

وصعوبة. كان فقيراً، رث الثياب، ولعل قميصه المجمع الممزق، وسرواله المرقع، وحذاءه المشقوق كانت كلها تلائم تماماً ما فيه من لباقة وما في حركات جسمه من خفة وكياسة، وما في إشارته من سعة وفيض .

كان أشبه برجل نفذ عنه مرضاً طويلاً موجعاً ، أو سجين أطلق صباح يومه . كل ما في الحياة عنده جديد لذيذ ، يثير في نفسه مرحاً صاخباً غنياً ؛ كان يقفز على الأرض قفز المفرقة على الرصيف يلقيها الطفل في يوم عيد .

عرض على ، وقد عرف ما في حياتي من شقاء وخطر ، أن أسكن عنده ، وعرض على أيضاً أن يعدني للتعليم ، ووجدتني بعد قليل أفطن (ماروسوفكا) ، ذلك المنزل الغريب الممرح ، الذي عرفه طلاب قازان منذاً كثر من جيل ، وهو منزل كبير متهدم نصفه ، يحتله الطلاب الجائعون ، وتحتله البنات ، وتحتله أشباح من كل لون ، أنضاهم العيش وأرهقتهم الحياة .

كان بايتنيف يسكن دهائزاً من دهاليز المنزل ، يقع تحت سلم المستودع ، قام فيه سريره ، وقامت في آخره عند النافذة ، منضدة وكرسی . وانتهى بذلك كل ماله من أثاث ، وكان قد . أما هذا الدهائز فتطل عليه نوافذ ثلاث . يعيش وراء نافذتين منها فتيات لم أحصهن عدداً ، ويعيش وراء ثالثتها رياضي مسلول كان فيما مضى طالباً دينياً . كان رجلاً نحيلاً طويلاً ، يبعث الرعب إذا رأيته ، شعره كشيء مجعد ، يلبس خرقاً بالية ، يلسع من وراءها أو من خلال ثقبها جلده الأزرق ، وجوانب من هيكله العظمى لمعاناً رهيباً .

يظهر أن غذاء هذا الانسان الوحيد كان من أظافره ، كان يقضمها قضمًا فتتفجر دمًا . كان يرسم ويحسب ، ليل نهار ، وهو يسعل لا ينقطع سعاله ، سعالاً أصم أخرس وخيل إلى البنات أنه مجنون ، خفن ، وأشفقن عليه ، فكن يلقين على بابه كسرًا من خبز ، وقطعاً من سكر ، وحفنة من شاي ؛ فإذا فتح الباب رآها فحملها وهو ينفخ كالحصان المتعب ، وكان إذا لم يحملن إليه ما عندهن — نسين أو لم يجدن — صرخ في صوت صخري وهو يفتح باب الدهاليز : — خبزاً .. خبزاً ...

أما عيناه الغائرتان في محجريهما المظلمين فكانتا تشعان بكبرياء مأفون ، يرضيه

أن يشعر هو بعظمته . ولقد كان يزوره أحياناً شيطان أحـدب ضئيل ، معروق
العظام ، أحنف ، شعره أشهب ، وأنفه منتفخ ، تمتطيه عوينات كبيرة ، تعلو وجهه
الأمعط ابتسامة داهية . كان ، إذا دخل عليه ، أغلق الباب في عناية وحذر ، ثم جلسا
ساعات طويلة . وهما صامتان صمتاً غريباً . وحدث مرة واحدة فقط أن استيقظت
في هدأة الليل على صرخة ناقة داوية يرسلها الرياضى :

— أما أنا فقد قلت لك إنها سجن . أجل الهندسة سجن ، قفص ، جحر فأر .
نعم سجن ...

وردد الأحـدب الصغير ، وهو يضحك ، كلمة غريبة زمنناً طويلاً ، ولكن
الرياضى لم يمهله أن صرخ في وجهه : أخرج ، لا ردك الله .
وتدحرج الزائر ، وهو يدمدم ويصفر في الدهايز ، ملتفحاً بجلبابه الواسع ، بينما
وقف الرياضى على عتبة الباب طويلاً خيفاً ، تغور أصابعه في شعره الأشعث ،
وهو ينادى :

— أوقليدس غبي — غ... غ... غ... .

وضرب الباب ضربة هائلة ألقت بما ألقت على الأرض فتحطم وتناثر .
وعلمت ، بعد حين ، أن هذا الرجل يريد ، مستنداً إلى الرياضيات ، أن يثبت
وجود الاله ، ولكنه مات قبل أن يوفقه الله تعالى إلى ذلك .



الفصل الثانى

كان بليتينيف يعمل ليل نهار — يدرس نهاراً — ويشغل مصلحاً فى مطبعة من مطابع الصحف ليلاً ، ويتقاضى أجراً أحد عشر كوبكا . وكنت إذا رجعت بخفى حنين ، صفر اليدين ، عشنا كلانا على أربعة أرغفة فى اليوم ، واشترينا بكوبكين اثنين شاياً ، وبثلاثة سكرأ ، ولقد كنت فى شغل عن العمل بالتعلم ، وكم لقيت عنتاً فى تمثيل العلوم ، وخاصة النحو ، فقد كان يقتلنى بضيقه الإبليسى وبتحجره ، ولقد كان عسيراً على ، كثيراً أن أحشر فى إطاره لغتنا الروسية الصعبة الحية ، بما فيها من لدونة لعوب . وعرفت بعد حين ، أنى — ويا لسعادتى — قد بكرت فى دراستى تبكيراً ، وأنى لو اجتزت ما يطلب إلى المدرس أدائه من امتحانات ، فلن أعين ، من أجل سننى . عرفنى ايفيرنوف آنذاك إلى السيد إ . بيريزين — الذى أصبح فيما بعد نائب رئيس لمجلس الدوما — وقد كانت فاتحة علاقاتنا محاطة بالغاز وأسرار جعلتنى أتوقع حدثاً جليلاً الخطر .

سار بى ايفيرنوف إلى خارج المدينة فى حقل أورسكى ، وأنبأنى فى الطريق أن على أن أكون متواضعاً ، وأن أكتم السر . ثم أشار إلى شبح شاحب يمشى مشياً ويبدأ فى الحقول المقفرة ، وقال لى وهو يتلفت حواليه : — هاهو فاتبعه ، فإذا وقف فاقرب منه وقل له إنى أنا الزائر الجديد .

أنا أعلم أن الأمور السرية جذابة دائماً — ولكنها بدت فى هذه المرة مضحكة ؛ وتطلعت فرأيت أمامى ، فى هذا اليوم القاطئ البديع ، رجلاً ضئيلاً يترنح وحده فى الحقل كما تترنح النبتة من العشب . ولم أر بعد ذلك شيئاً .

وتواقفنا عند باب مقبرة ورأيت من خلال القبور ، فى ظل الأشجار الكشيفة ، شاباً قاسى الوجه ، صغير القسمات ، قوى النظرات ، مستدير العينين كأنهما عينى عصفور ، يرتدى معطف تلميذ تجهيزى ، استبدل بأزراره المعدنية أزراراً سوداً من عظم

وعلى قبعته إشارة ؛ ولقد أوحى إلى ، وأنا أنظر إليه أن في كيانه كله شيئاً لا أعرفه . شعرت أنه قد تنف ريشه وهو لا يزال زغباً ، وأحسست أنه عجل فاتخذ مظهر الرجل الناضج نضجاً كاملاً ، وأنه إذا تحدث فأنما يتحدث في لهجة الرجل الخطير ذي الأعمال ، فهو يتكلف الجفاف والجفاء ، ولقد كرهته كله : كل خالجة فيه وكل نابضة .

سألني في قسوة عما قرأت ، ثم عرض على أن أشارك فيما تقوم به حلقة الصغيرة من أعمال ، فقبلت ، ومضى أمامي متلفئاً مترقباً .

أما أعضاء هذه الحلقة فهم بليتينيف نفسه وثلاثة أو أربعة معه من الفتيان ، كنت أصغرهم وأقلهم استعداداً لدراسة كتاب « آدم سميث » ومقدمته التي كتبها تشير نيشيفسكى . كنا نجتمع في بيت طالب من طلاب دار المعلمين يدعى ميلوفسكى . وقد كتب بضع روايات باسم إيليوفسكى ، ثم انتحر بعد خمس سنوات أو ست ، ولطالما التقيت بعد بمن مل الحياة فغادرها طائعاً مختاراً .

كان ميلوفسكى سوداوياً ، حياً في تفكيره ، حذراً في كلامه ، يسكن قبو بيت ندر ، ويشغل نجاراً ليحافظ على التوازن والانسجام بين الجسد وبين الروح . ولقد مللت صحبته ، ومللت معها كتاب سميث ، فقد بدت لي المبادئ الأساسية في علم الاقتصاد واضحة تمام الوضوح ، مألوفة تمام الإيلاف ، ولقد تمثلتها رأساً ، فهي منقوشة على جلدى ، وكنت أرى من العبث أن يؤلف مثل هذا الكتاب الكبير ، وأن تحتزع مثل تلك الكلمات الصعبة في موضوع يدرك جميع عناصره وخفاياه كل من وهب نفسه ليضمن ما يريد للناس من خير ، وليحقق ما يتمنى لهم من سعادة .

وكنت إذا حضرت هذه الدروس أقبع في زاوية من زوايا هذا الثقب الذى تفوح منه ريح الغراء ، أراقب الحنافس تتطارد فوق الحائط القذر ، وأبقى كذلك ساعتين ، أو ثلاث ساعات .

تأخر بيريزين مرة عن مواعده ، فظننا أنه لن يأتى ، وأعددنا مأدبة ، بما تيسر ، فيها خمر ، وفيها خبز ، وفيها أيضاً حلوى ؛ وبينما نحن منهمكون فيما نحن فيه ، مرت أمام النافذة قدما الأستاذ ؛ ولم نكد نخفى الخمرة تحت المنضدة حتى كان بيننا ، يشرح آراء تشير نيشيفسكى شرح العالم الخبير ؛ أما نحن فقمنا سكوناً كالأصنام ننظر

اللحظة التي تندلق ، فيها الخمرة ، ولقد عثر بالزجاجة كاذبنا فسالت ؛ ونظر إليها ثم لم يلبث ببنت شفة . ياليتها انفجر ساخطاً ، إذن هان علينا ما نلقى .

صمت مثل صمت القبر ، ووجه قاس عابس ، وعينان زائغتان مطبقتان ؛ لشد ما ملأني ذلك كله رعباً وهلعاً . كنت قد اعتبرت في الحلقة « عنصر فساد » فأجلت أنظاري في أوجه رفاقي وقد أحالها الخجل ، وشعرت إني مجرم في ذات راهبنا — ولقد رحمته رحمة صادقة مخلصة ، على الرغم من أني لم اشترك في شراء ما أضعنا من خمر .

أزعجتني هذه الدراسات وأرهقتني ، وكان أحب إلي أن أزور تلك القرية التترية وأجالس سكانها الطيبين الأغرار ، يحيون حياة فذة ، ويتحدثون بلغة تغيرت عما الفنا من لغة ، فأضحكتنا ، وأن أستمع عند المساء ، من أعلى المآذن الشاهقة إلى أصوات المؤذنين الباكية تدعو الناس إلى المساجد ، وكان يخيل ألى أن التتر يحيون حياة أخرى أجملها ، بعيدة عما أعرف من حياة لا أرضاها .

أحببت الفولجا ، وأحببت موسيقاه ، التي تبعثها الحياة العاملة النشيطة ، والتي ماتزال تبعث في نفسى نشوة لذيدة ، نشوة ما بعدها نشوة . إني ما أزال أذكر تماماً ذلك اليوم الذى أحسست فيه ، لأول مرة ، بما فى العمل من شعر بطولى ، ولعللى ذاكر بعض ما أحسست به .

ارتطم ، فى قازان ، مركب كبير بصخرة فتكسرت جوانبه ، وكان يحمل بضاعة من فارس ، واشتركت فى إنقاذه .

نحن فى أيلول ، والريح صرصر عاتية ، والأمواج تقفز كئيبه على النهر الأسمر ، تنزع الريح ذراها ، وتسقى بها النهر مطراً بارداً . وقف الجمالون ، وكنت فيهم ، وكنا خمسين برح بهم الحزن والأسى ، على ظهر مركب فارغ يحركه محرك يقذف فى المطر شظاياها الحمر .

أقبل الليل ، وأظلمت السماء وارتدت ثوباً من الرصاص ، ثم استلقت على النهر وكنا نصخب ونلعن ، ونشتم الريح والمطر والحياة ، ونأوى إلى الجسر نحاول أن نتقى البرد والرطوبة ، ما استطاعنا إلى ذلك سبيلا ، وخيل إلى وأنا أجيل طرفى فى هؤلاء الناعسين الكسالى أنهم لا يقدرّون على شىء ، وأن حمولة المركب هالكة لا محالة .

بلغنا موضع الصخور من النهر ، وقد انتصف الليل ، وصاف المركب الفارغ المركب المحطم ، وصرخ في الحمايين كبيرهم ، وهو عجوز معروق العظام قاسى الطبع ، ظاهر التكلف ، مجدور الوجه ، عيناه وأنفه كأنهما فى رأس عقاب ؛ صرخ ، وهو ينزع قبعته عن رأس أصلع ، فى صوت حاد كأنما هو صوت امرأة : صلوا يا أولادى . وتجمع الحمايون ، فى الظلمة ، على جسر المركب . يهمهمون همهمة الدببة ، وناداهم كبيرهم وقد أتم صلاته قبلهم جميعاً :

— المصاييح ، يا شجعان ، هاتوا برهانكم إن كنتم عاملين ، صبراً ، صبراً يا أولادى ! باسم الله ...

ولقد أعطى الرجال الثقال الكسالى المبللون برهانهم أنهم عاملون ، ووثبوا إلى المركب الغريق ، هاتفين ، صائحين ، ساخرين ، وتطارت أكياس من الأرز ، وصناديق من الزبيب ، وطرود من الفرو ، من حوالى ، خفيفة كأنما هى وسائد من ريش ، وتراكضت هنا وهناك أشباح مخنية ظهورها ، يشجع بعضها بعضاً ، بصيحة أو بمكاء أو بتصدية أو يمين أو بشتيمة .

أليس عسيراً أن يصدق المرء أن هؤلاء الكسالى المتراخين ، وقد كانوا قبل لحظات معدودات ، يشتمون الدنيا ناقمين ، ويلعنون المطر والريح ، قادرون على أن يعملوا فى مثل هذا اليسر ، وفى مثل هذا المرح ، وفى مثل هذه الجودة ؟

بردالجو ، وانهمر المطر ، واشتدت الريح ، فانتزعت القمصان ، وضربت بالكوفيات الرؤوس ، وكشفت عن البطون ، وما يزال الرجال السود يتحركون ، فى هذه الظلمة الرطبة ، يدغدغها ضوء ستة قناديل شاحبة ، فيجتازون الجسر فى خرس ، ويعملون كأنهم جياع إلى العمل ، وكأنهم يترقبون منذ أمد بعيد لذة الصراع مع أكياس يبلغ واحداهم مائة رطل أو يزيد ، ولذة الجرى بها وهى على ظهورهم مستلقية مستسلمة .

كانوا يعملون لاعبين ، وقد أفعمتهم حماسة مثل حماسة الطفل واندفاع كاندفاعه ، واستبدت بهم خفة لا تعد لها فى لذتها وعذوبتها الا قبلات النساء .

وجاء رجل من أقصى المدينة ، طويل اللحية ، يرتدى معطفاً عازلاً ، وكأنه هو

صاحب البضاعة أو نائبه ، وصرخ وقد هزته نشوة العمل :

— لكم عندى سطل من الخمر — لا بل سلطان ... إلى العمل عافاكم الله .

وتصاعدت من كل الجنبات أصوات متشابكة في الظلام :

— لا بل ثلاثة — طيب . لكم ما شئتم وإلى العمل ...

واشدت عاصفة العمل متصاعدة نامية .

وكننت أنا أيضاً أمسك بالأكياس ثم أحملها وأقذف بها ، وأركض فأحمل كيساً آخر ، وخيل إلى أنى أنا وكل ما يحيط بى ، قد أخذنا فى دورة رقص غاضب ، وأن هؤلاء الناس قادرون على العمل هكذا فى شكل هائل خفيف ، وفى مرح دائم لا تعتوره راحة ولا فتور ، شهوراً لا بل سنين ، وأنهم لو شاءوا لأمسكوا بالمدينة كلها من أجزاسها ومن مآذنها ثم حملوها أنى أرادوا ، وحيثما أرادوا .

لقد غمرتني هذه الليلة بسرور لم أشعر بمثله قط ، وألهبت روحى برغبة أكيدة فى أن أبقى ما حييت فى هذه النشوة من العمل ، وهى نشوة زادت فكادت تكون نصف جنون .

ورقصت الأمواج ، وتحطمت على جوانب المركب ، وألهب الغيث الجسور بسياطه ، وعبثت الريح بالنهر ، وتراكض الرجال ، فى الضباب الأشهب الذى بعثه الفجر ، مبيللين ، أنصاف عراة ، غير كسالى ولا وناة ، يصرخون ويضحكون ، فخورين بقوتهم ، معجبين بعملهم .

هاهى الريح تمزق حجب الغيوم الكثيفة ، وهاهو شعاع الشمس يسطع فى زرقة السماء ، وهاهى هذه البهائم الممراحة تستقبلها بصرخة واحدة وهى تقتل شاربها فوق أشداقها الطيبة . أى إنسان يستطيع أن يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات ، ذوات القائمتين ومن تقييلها ؟ إنها حيوانات ذكية فيما تعمل ، ماهرة فيما تصنع ، وإنها لتغرق فى العمل حتى تنسى نفسها . وهل يستطيع شئ فى الوجود أن يقاوم هذه الطاقة من العمل ، وهذه الفورة من القوة إذا تفتحت راضية مطمئنة ؟ إنها قادرة على خلق المعجزات ، قادرة على أن تهب ، فى ليلة واحدة ، ما يملأ الأرض كلها قصوراً رائعة ومدناً زاهرة تحجل منها المدن التى جاء ذكرها فى الأساطير .

وتأمل شعاع الشمس عمل هؤلاء الرجال دقيقة، أو دقيقتين ، ثم حجبته الغيوم ، فغرق فيها كما يغرق الطفل في اليم — وتحول المطر إلى زوبعة .
وسمعنا صوتاً من الأصوات يقول : كفى .

وغمرته أصوات مرحة : — لك ماتريد من كفى وكفى ...

نحن في الساعة الثانية بعد الظهر — وقد نقلنا كل مافي المركب من بضاعة ، نقاها هؤلاء الرجال أنصاف العراة ، تحت الزوبعة ، وفي وجه الريح العاتية ، نقلوها ولم ينالوا فترة من راحة ، لقد فهمت الآن فهماً عميقاً ، وعرفت اليوم معرفة صحيحة مقدار غنى أرض الانسان بهذه القوى الجياشة الزاخرة .

ومضينا إلى الباخرة ونمنا كأننا سكارى ، ثم بلغنا قازان فتدققنا على الرمل ، موجة من الطين الأكد ، ومشينا إلى الحانة نشرب سطور الخمر الثلاثة .

رآني باشكين اللص فاقرب مني ، ثم ألقى على نظرة ممتحن منقب ثم سألني :
— ما بك؟ — فأخبرته خبري في حماسة ، فأصغى إلى ، ثم قال في اشمئزاز واحتقار وهو يتنهد : — أبله ... معتوه .

ومضى ينساب بين الموائد ، يتهادى مثل السمك ، وقد جلس الخمالون يهتفون ، وغنى واحد منهم في إحدى الزوايا بصوته العريض هذه الأغنية المكشوفة :

قد كان ذلك ليلا

والبنت في البستان

ودوت أصوات الرجال ، وعزفت القبضات على الموائد :

عين الخفير رأتها

مغمضة الأجفان

كانوا يغنون ويصفرون في عاصفة من كلام ، مكشوف ، بأس ، ليس له مثيل على وجه الأرض .

عرفت اندره دورانكوف ، وهو صاحب دكان صغيرة ، ضائعة ، في نهاية شارع ضيق فقير ، على ضفة غدير غمره ماحمل من رواسب .

كان دورانكوف ضامر اليد ، ذا وجه طيب ، وعشرون بارز ، وعينين ذكيتين وكانت مكتسبة أحسن مكتسبات المدينة وأجمعها للكتب النادرة المحرمة ، وكانت تتداول هذه الكتب أيدي الطلاب في مدارس قازان وأيدي النازعين إلى الثورة فيها .

أما دكانه فقد كانت ملحقة بمنزل صراف على مذهب سكوبتس . يتصل بابها بغرفة واسعة تنيرها نافذة تطل على باحة الدار ، بنور شاحب ، وتتصل هذه الغرفة أيضاً بمطبخ صغير يحتفى وراءه ، بعد دهليز أسود يصل بين الملحق والمazel ، مكان تتوارى فيه المكتبة الغالية وهى تضم عدداً وافراً من الكتب منها «الرسائل التاريخية» لـ «لافروف» و«ما العمل ؟» لتشير نيشيفسكى ومقالات «بيسارييف» وكانت كلها مخطوطة فى دفاتر سميكة أهرأها طول استعمالها .

دخلت حانوت دورانكوف ، وكان مشغولاً بزبون ، فأشار برأسه إلى باب الغرفة أن أدخل فدخلت ورأيت فى الغبش «سيرافان دوساروف» ، وكان راكعاً فى زواية من زوايا الغرفة يصلى صلاة قانت منيب ، وأحسست فى هذا العجوز شيئاً غير قليل من التناقض والتنافر . قالوا لى أن دورانكوف شعبي ، وكنت أرى أن الشعبي ثورى ، وأن الثورى لا يؤمن بالله ، وخيل لى أن هذا الشخص التقي من زوائد هذا البيت .

أنهى الشيخ صلاته ، وفرك شعر رأسه ولحيته ، وألقى على نظرة فاحصة ، ثم قال : — أنا أبو اندره ، ولكن من أنت ؟ لقد ظننت أنك طالب متخف .
وقلت . — ولم يتخفى الطلاب ؟
وأجاب الشيخ فى دعة . — لست أدرى ، لظالما أرهقوا أنفسهم فى التخفى ثم ظهروا .

إن الله لا تخفى عليه خافية .
ومضى الشيخ إلى المطبخ وجلست عند النافذة أحلم . وإذا بصوت ناعم یرن فى أذنى — أهذا هو ؟

وتطلعت إلى الباب فرأيت فتاة بيضاء الثياب ، سوداء الشعر ، صفراء الوجه ، تبرق فيه عینان زرقاوان ضاحكتان ، وخيل لى أنها ملك كريم .

— ولم خفت ؟ وهل أنا بمن يخيف ؟

كان صوتها ذا ألوان وأغنام ، ومشى نحوى على حذر وفى بطء ، وهى تستند إلى الحائط فكأنها تمشى على شريط يمتد مترنحاً فى الهواء ، لا على أرض وتراب ،

وزادت مشيتها القلقة هذه ، ما بينها وبين العالم العلوى من شبه وتقارب . كانت فرائصها كلها ترتعد وترتجف وقلت لعلها تمشى فوق إبر مغروسة ، أو لعل الحائط يحرق أناملها الرخصة الجامدة .

وقفت أمامها لأبدىء ولا أعيد ، وتملكنى شعور فذ باضطراب عجيب وعطف غريب ، كل ما فى هذه الغرفة سحرى خارق .

جلست الفتاة على الكرسي فى حذر ، وقلت لعلها تخشى أن يطير قبل أن تجلس عليه ، ثم حدثنى فى بساطة ليست ولا يمكن أن تكون فى مخلوق . قالت إنها لزمت فراشها ثلاثة أشهر مشلولة اليدين والقدمين ، وأنها لم تمش إلا منذ خمسة أيام — ثم غنت وهى تضحك — مرض عصبي .

أذكر أنى كنت أطلع إلى تفسير آخر طريف ، فإذا يصنع المرض العصبي بمثل هذه الفتاة ؟ فى هذه الغرفة الغربية تزدهم فيها الأشياء فى حياء . ويسطع فيها أمام صور القديسين نور قنديل تستلقي ظلال سلاسله النحاسية على غطاء شديد البياض فوق مائدة طويلة .

وعادت تقول فى صوتها الملون ألواناً طفلة :

— سمعت عنك فأردت أن أراك لأعرف كيف تكون .

ثم نظرت إلى نظرة لا أستطيع إحتمالها ، ووجدت فى عينيها الزرقاوين شيئاً لم أعرف قط مثله فى عمقه ونفاذه . كيف السبيل إلى الحديث مع هذه الفتاة ؟ لاسبيل ولا طريق وها أنا خائف صامت أستر خوفى وصمتى فأحرق فى صور هرتزن وداروين وجاليلاردى .

وجاء من الدكان قتي فى مثل عمرى أشقر ، فى عينييه وقاحة ونادى :

— أين أنت يامارى ؟ ولم خرجت ؟

وقالت الفتاة : هذ أخى أليكس . كنت طالبة فى مدرسة القابلات فرضت و ..

ولكن لم أنت صامت ؟ أتخجل منى ؟ أتخاف ؟

وجاء أندره دورانكوف ويده الضامرة تحت معطفه ، فداعب شعر أخته الناعم

وهو ينبشه ويشعته ، ثم سألنى — وهو غير مصغ إلى — ماذا أريد أن أصنع ؟

ودخل شاب ثالث ضخم الجثة ، أشقر الشعر ، أخضر العينين فنظر إلى نظرة قاسية ثم تأبط ذراع الفتاة البيضاء وخرج بها وهو يقول لها : كفى يا ماشا .
 وخرجت أنا كذلك وقد علت وجهي حمرة الخجل والاضطراب — وعدت في مساء اليوم التالى إلى مكانى من الغرفة نفسها — وأجهدت نفسى لأفهم كيف ولم يعيش فيها الناس ؟ الا أنهم ليحيون حياة شاذة غريبة ؟
 هنا يجلس ستيفان ادرىفتش — وهو شيخ طيب النفس ، كثير اللطف ، شديد البياض فكأنه من بياضه شفاف . يجلس في زاويته ينظر منها إليك ، ويقلب شفثيه يتلذذ ثم يبتسم إبتسامة عذبة تراها فتظن أنها تقول لك :
 — لا مساس .

كان خائفاً خوف الأرنب ، يترقب دائماً أن يحل به حادث أو تقع في ساحة نائبة ، ولست في حاجة إلى جهد قليل أو كثير لتتبين ذلك فيه ، فهو شديد البيان .
 أما أندره — ذو اليد الضامرة — فتراه يدور في الغرفة ويطلع في مشيه ، وعلى وجهه إثارة من حزن ، وعلى شفثيه — رغم ذلك — إبتسامة مثل إبتسامات الأطفال إذا عفوت عنهم بعد هفوة إرتكبوها — وكان يلبس ثوباً رمادياً قسا صدره وذيله فعداء الشجر وغمرته ألوان مختلفة من السمن والدقيق . وكان له أخوان : أحدهما أليكس وهو كسول ثقيل ، يعينه في عمله ، والآخر إيفان وكان طالباً داخلياً في دار المعلمين يقدم إذا حان العيد فيلبس ثياباً نظيفة ويصفف شعره تصفيفاً جميلاً ، فكأنه موظف قديم متقاعد .

أما ماريأا أخته فكانت تقطن المستودع وقل أن تخرج منه ، فإذا خرجت ورأيتها شعرت بقلق بالغ لاعهد لى به وأحسست أنى مقيد بقيود لأأراها ، ولكنها مع ذلك تعصرنى عصراً !

وكان لأندره صديقة تشرف على تدبير منزله ، وهى امرأة فارعة القامة نحيلة الجسم وجهها وجه لعبة من خشب ، وعيناها قاسيتان كأنهما عينا راهبة غير صالحة . وكنت ترى ابنتها الشقراء ناستيا تروح وتغدو ورأها حيناً بعد حين ، فإذا نظرت إليك بعينيهما الخضراوين اضطربت ففتحنا أنفها الألقى محتلتجتين .

الفصل الثالث

أولئك هم أصحاب منزل دورانكوف في الظاهر ، أما أصحابه في الواقع فكانوا طلاب الجامعة والمعاهد الدينية والمدارس الاعدادية ، أغنى أولئك الناقمين الذين جعلوا همهم سعادة الشعب الروسي وضمان مستقبله . كانوا إذا أرهقتهم الكتب وملتهم مقالات الصحف ، وملأتهم حوادث المدينة وأخبار الجامعة هرعوا مساء إلى دكان دورانكوف الصغيرة ، واثالوا من كل حذب وصوب في قازان ليستغرقوا في جدال عنيف أو ليثبت بعضهم بعضاً آلامه ، وأشجانه ، في صوت خافت لا تسمعه إلا زاوية من الزوايا .

كانوا يحملون كتباً ضخمة ، ثم يشيرون بأصابعهم إلى مقاطع منها ، فيقرؤونها ثم يتجادلون وقد أعلن كل منهم ما عرف من صواب ، وما أدرك من حق استهواه وملك عليه سبله .

وكنت لا أدرك طبعاً هذه المناقشات إدراكاً كاملاً ، ولكن ضاعت الحقائق مني في أمواج من الكلمات ، كما تضيع نقاط الدهن في حساء الفقير الناحل .

ذكرت هؤلاء الطلاب بعض أصحاب المذاهب من الجيريين على ضفاف الفولجا ولكنني لم أذكر ذلك حتى بدا لي هؤلاء الطلاب وكلهم عاقد النية على إصلاح الحياة . نعم إن إخلاصهم قد كان يتخبط في سبيل متدفق من الألفاظ ، ولكنه لم يغرق فيه أبداً . ولقد كنت أرى في جلاء ما يجتهدون في حله من قضايا ومشكلات واهتم بما وصلوا إليه من حلول ، وإطالما خيل إلي أن أحاديث هؤلاء الطلاب إنما هي تفسير لما في عقلي من أفكار خرس ، تحمست لها حماسة ذلك الأسير إذا وعد بإطلاق سراحه .

أما الطلاب فكانوا ينظرون إلى كما ينظر النجار إلى قطعة من خشب قد يجعل منها خلقاً جديداً . كانوا إذا نظروا إلى قال بعضهم لبعض « مادة من المواد الخام »

ثم فرحوا وطربوا لذلك كأنهم أطفال وجدوا قطعة من نحاس فوق رصيف .
ولست أدري لما كان يحزننى أن أدعى « مادة من المواد الحام » أو أدعى « ابن الشعب » وبدأت لى الحياة راية (١) قاسية — وضقت ذرعاً بهذه القوة التى توجه تطور تفكيرى هذا التوجيه القاسى العنيف ، وهكذا فقد رأيت فى واجهة احدى المكتبات كتاباً تألف عنوانه من كلمات كنت أجهلها هى : « حكم ومبادئ » فأخذنى منها ما أخذنى من رغبة أكيدة فى مطالعتها — ورجوت طالبة من طلاب المعاهد الدينية أن يعيرنى هذا الكتاب .

— ما شاء الله ... تلك هى الحماقة ياشيخى ، اقرأ ما نعطيك يا مولاي ...
ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به غيرك مما لا تستطيع أنت اليه سييلا .
كان المطران المنتظر يصرخ وقد علت ثغره ابتسامة هزء قاتل أثارتنى — ولقد اشتريت الكتاب رغم أنفه وانفقت عليه كل ما كسبت من مال وأتممت ثمنه بمال استدنته من أئدره دورانكوف .

كان هذا أول كتاب محترم اشتريه وما يزال عندى ذكرى .
وليس ذلك كل ما قاسيت فقد حدث أن قرأت مقدمة فى علم الاجتماع وشعرت أن الكاتب قد غلا فى أهمية دور « العروق الرعاة » فى تنظيم الحياة المتمدينة وأهمل العروق البدوية الصيادة وأخبرت طالبة بما يساورنى من شكوك ، وكان من طلاب الفلسفه ، فحدثنى ساعة كاملة ، وهو يجهد نفسه ليهب لوجهه الأنشوى سيماء من هو ذو شأن ومكانة ، عن حق النقد ثم قال لى :

— ان من أحب أن يتمتع بحق النقد وجب عليه أن يكون مؤمناً بحقيقة من الحقائق . فبم أنت مؤمن يا صاحبي ؟

كان هذا الطالب الفيلسوف يقرأ فى كل مكان . وفى الشارع نفسه ، يمشى على الرصيف وقد غطى وجهه كتابه — ويضطدم بالمارة فلا يكلف نفسه عناء النظر اليهم — كان يسكن فى مستودع فأصابه التيفوس ولكنه لم يمنعه من أن يصرخ دائماً

— يجب أن تتحد في الأخلاق عناصر الجبر والاختيار اتحاداً منسجماً منسجماً..

من... من... من...

كان يشكو دائماً — وهو الناحل الرقيق — من فقر الدم ، ولقد زاد في ارهاقه بحته العنيد عن حقيقة ثابتة مكينة . وكان عزأؤه الوحيد ، بل كانت لذته الوحيدة في المطالعة ، فإذا ظن أنه وفق بين المتناقضات في مفكرين اثنين عظيمين أشرفت عيناه الجلياتان ببسمة طفل سعيد .

رأيته في خر كوف بعد سنوات عشر ، وكان قد نفى إلى « كيم » خمس سنوات ، ثم عاد إلى دراسته في الجامعة . ووجدت أنه لا يزال يعيش في قرية من قرى النمل « من الأفكار المتناقضة » . ولقد قتله السل وهو يحاول أن يوفق بين ينقشه وماركس ورأيته ينفت الدم وينادى وقد ضغطت أصابعه الباردة على كفي .
— ليس من سليل إلى العيش بلا فرضية .

ومات ، وهو في انترام ، في طريقه إلى الجامعة .

لقد عرفت كثيراً من هؤلاء الشهداء الأبطال — شهداء الفكر — وما تزال ذكراهم ماثلة أمام عيني ، مقدسة في قلبي .

كان يجتمع عند دوراتكون اثنا عشر أو أربعة وعشرون رجلاً ، وكان فيهم ياباني يدرس اللاهوت ، يدعى « بانتاليجون ساتو » وكان فيهم أحياناً شيخ ذو صدر عريض . ولحية كبيرة كشيفة ، ورأس يحلقها على الطريقة التترية . ويغطيها بقبعة قوزاقية تنحدر أطرافها إلى ما تحت فكيه . كان يجلس صامتاً في زاوية من الزوايا يدخن غليو ناً قصيراً وينظر إلى الناس أجمعين نظرة هادئة تنبعث من عيني شهلأوين توحيان إليك أنهما تقرأن ما في نفسك . وطالما وقعت نظراته على ووقفت عندي لا تفارقني ، فأشعر أنه — وهو الجاد الرصين — يزن عقلي ، فأخافه ولاأرى لخوفي ما يبرره . أدهشني صمته وودت لو يتكلم . لقد كان من حوله يتحدث حديثاً عالياً حازماً ، ولكم سررت بالحديث وكنت كلما زادت كلماته حزماً زدت له حباً . ولقد بقيت ما شاء الله أن أبقى وأنا لا أعرف ما وراء الكلمات الحاسمة الصارمة من أفكار فقيرة خلاصة خداعة . ولكن ماذا يخفى وراء صمته هذا العملاق ذو اللحية؟

بار كل اسمه « الاكراني » ولعل أئدره وحده يعرف اسمه الحقيقي وسألت عنه فعرفت أنه عاد منذ أمد قريب من منفاه في مقاطعة أركونسك ، وأنه قضى فيه عشرة سنوات كاملات . ولقد ضاعف هذا من إهتمامي به ، ولكن هذا الاهتمام لم يبلغ من الشجاعة حداً يجعلني أقرب منه وأتعرّف إليه ، على أنى كنت أراى لأستحي من معرفة الناس — وأنى على العكس فضولى فضولا مرضيا — ظامى دائماً إلى معرفة كل شيء وفى أقصر زمن . ولعل هذا الخلق هو الذى حال بينى وبين أن أركز إهتمامى تركيزاً جدياً فى أمر واحد ، طوال حياتى .

كانوا إذا اجتمعوا تحدثوا عن الشعب ، فأشعر ، وقد أخذتى الدهشة وفقدت ثقتى بنفسى ، أنى لا أستطيع أن أفكر فى هذا الموضوع على النحو الذى يفكرون . كان الشعب عندهم مهبط الحكمة ، ومنبع الجمال الروحى ، وموئل الطهر ، وكائنا ألهيا ليس كمثله شيء ، وأنه قوام كل جميل وعادل وعظيم .

أما أنا فلم أكن أعرف هذا الشعب . كنت أرى نجارين وحمالين وبنائين ، وكنت أعرف يعقوب ، وأوسيب ، وجريجوار ، كنت صديق فلان وفلانة ، ولكن ما بالهم يتحدثون إذا تحدثوا عن شعب فريد قائم بذاته ، يضعون أنفسهم دونه ، ويخضعون لأرادته ؟ كان يخل إلى على العكس أن جماعة دورانكوف هى التى تتمثل فيها جمال الفكر وقوته ، وأنها هى التى تلهب رغبة كريمة نبيلة فى الحياة وفى بناء الوجود على قواعد الانسانية الجديدة والحب العميق .

أنا لم أعثر يوماً بين أولئك « المسوخ » الذى عشت فيهم حتى اليوم ، على هذا الحب — حب الانسانية — ولكنه يدوى هنا دائماً فى كل كلمة ، ويسطع هنا دائماً فى كل نظرة .

كانت خطب عباد الشعب تهبط على قلبى برداً وسلاماً . وكان عزائى أن استمع إلى الأدب الحى العنيف يصف حياة القرية القائمة ويدعو إلى إنقاذ الفلاح الشهيد . وشعرت أن ليس فى مقدور إنسان أن يكشف عن معنى الحياة ، ويفهمها إلا إذا أحب الإنسانية حباً عنيفاً ، وأن هذا الحب وحده هو الذى يمده بما أراد من طاقة ، يتطلبها اكتشاف معنى الحياة وفهم مغزاها .

ومن أجل ذلك كله تركت التفكير بنفسى لأهتم بغيرى .
أخبرنى دورانكوف مطمئناً إلى ، واثقاً بى ، أن الأرباح المتواضعة التى يجنيها
من دكانه ينفقها كلها على إعانة من « وضع سعادة الشعب فوق كل شىء فى الوجود »
ولقد كان بينهم كالراهب فى صومعته يملؤه الإيمان ويكفيه الإيمان ، فهو يستمع إلى
صلاة المطران ، وهو يصغى إلى حكمة أهل الذكر فى حماسة وإخلاص .

قال لى مرة — ويده الضامرة فى قميصه ويده الصحيحة تعبت بلحيته :
— ما أحسن ما نسمع !

وكان إذا رأى اليطرى لونجونوف يرتكب جريمة الحملة على الشعيين ، وهو
يصيح بصوته الغريب الذى يشبه قوقاة الأوز ، أغمض عينيه خائفاً وتمتم :
— يالك من داعية للشر والشقاق .

ولقد كنت أقف من الشعيين موقفه منهم . أما الطلاب فكانوا يعاملونه
معاملة قاسية فيها شىء غير قليل من الإهمال ، هى معاملة سيد لعامل أو لنادل حانة .
ولم يكن ذلك يخطر له فى بال . كان إذا ودع آخر زائريه أبقانى عنده ، فننظف
المنزل ونضطجع على الأرض فوق بساط من وبر . ونتحدث حديث الصديق
الى الصديق حديثاً طويلاً لا يسمعه ولا يراه إلا هذا النور الخفياق يبعثه السراج .
ولكم سمعته يهتتم وهو مغتبط غبطة المؤمن :

— سيأتى يوم يجتمع فيه مئات وألوف من مثل هؤلاء الأبطال ، وسيدبلغون
أسمى المناصب فى روسيا ، وستنقلب الحياة آنذاك دفعة واحدة وتتغير .
كان دورانكوف أكبر منى — بينى وبينه عشرة سنين — وكانت ناستيا ذات
الشعر الأشقر تعجبه أيما إعجاب ، وكم حاول أن ينو من عينيه ويتأملها فى حزمهما
وجدهما . كان إذا حدثها أمام الناس جعل فى صوته لهجة سيد نافذ الكلمة ، فإذا
مضت شيعها بنظرة قلق خائفة ، وكان إذا خلا بها ابتسم لها فى حياء وخجل ، ويده
لا تفتر عن العبث بلحيته .

وكانت أخته مارى تشهد هى أيضاً معارك الألفاظ وتنبيه إنبها شديداً فيمتد
وجهها الصيبانى إمتداداً مضحكا لئلا وتتسع عينها إلى أقصى ما تطيقان من السعة

فاذا بلغ الحديث مرحلة ترن فيها الكلمات الحاسمة النهائية تنفست تنفساً عميقاً صاخباً فسكاً نك صبيت عليها بسجل ماء بارد .

وكان يحوم حولها كما يحوم الديك الوقور طالب في كلية الطب أشقر الشعر ، يدنو منها فيحدثها حديثاً غامضاً لا يعرف هو أين طرفاه . ثم يفرك حاجبيه كرجل ذى شأن ، لقد كان هذا كله مسلياً حقاً وصدقاً .

ودنا الخريف — وأصبح لزماً على أن أعمل عملاً دائماً لأعيش ، لقد كنت مأخوذاً بما حولي فتخففت من العمل حيناً بعد حين — وأكلت خبز الناس — ولكن خبز الناس صعب ابتلاعه ، عسير هضمه ، ومن أجل ذلك بحثت عن عمل لى فى الشتاء وفقت إليه فى مخبز فاسيلي سوموتوف . لقد أودعت فى بعض قصصى مثل « الرئيس » و « كومانوف » و « ست وعشرون رجلاً وإمرأة » وصف هذا العهد من عهود حياتى . نعم لقد كان عهداً قاسياً ولكنه ربانى وعلنى . ولقد كان قاسياً على مرتين جسدياً وأخلاقياً .

إنحدرت إلى قبو المخبز وانتصب بينى وبين هؤلاء الناس الذين لا أستطيع السلوان عنهم « جدار من النسيان » . لم أكن أزار ولا أزور — وكيف السبيل إلى الزيارة وأنا أشغل أربع عشرة ساعة فى كل يوم؟ وكنت لأرى دورانكوف إلا مرة واحدة فى كل أسبوع — وأما أيام الأعياد فكنت أنام فيها أو أجتمع إلى رفاقى فى العمل .

اعتبرنى بعض زملائى منذ أول عهدى بهرجايسلى ويسر ، وأحبنى بعضهم حب الأطفال العنيف لرجل كبير يقص عليهم قصصاً لذيذة طريفة ، يعرف إبليس وحده كيف كانت وماذا كانت ، وأعرف أنا أنها كانت تحمل إلى نفوسهم شيئاً من عزاء وتوحي إليهم مقداراً من الأمل فى حياة تختلف عن هذه الحياة ، وتكون أكثر منها يسراً وأقل منها عسراً .

وكنت ناجحاً فيما تعاهدته من أمر — وكنت ألمس أمارة نجاحى فيما أرى من وجوه منتفخة الأوداج برق فيها حزن إنسانى ، وفيما أبصر من عيون محمرة ألهبها نعمة وغضب ؛ وطالما سرنى ماأصنع ولعبت بى الكبرياء حين رأيتنى قد

أصبحت أنا أيضاً من «يعمل في سبيل الشعب» و«ينير له الطريق» ولئن عرفت الكبرياء حيناً فهي لم تحل بيني وبين معرفة نفسي أبداً ؛ فكنت شاعراً بما في من نقص ، وبما في معلوماتي من قلة ؛ وبما ألقى في حل قضايا الوجود البسيطة من اخفاق ؛ بل كنت أشعر بأكثر من ذلك ؛ كنت أحس أني أتردى في حفرة قائمة الأعماق يتخبط فيها الناس كما يتخبط الدود الأعمى . ورأيت أنهم وهم في ظلماتهم يعمهون — لا يحاولون إلا محاولة واحدة هي نسيان الواقع . ولا يستطيعون أن يلتمسوا هذا النسيان إلا في الحانات . في قراره كأس ؛ أو في أوكار الفساد

وكانت زيارة بيوت الفساد أمراً لا مناص منه في كل شهر يوم يستلم الناس أجورهم ولقد كانوا يحلون بما في يومهم السعيد من لذاتة ؛ قبل حلولة بأسبوع فيحدثون عنه في منامهم في صوت عال ويتحدثون عنه في يقظتهم في نحر ؛ ويتحدثون عنه إذا مضى أمداً طويلاً ، فيتذكرون ما أصابوا فيه من لذة ؛ ويفتخرون بما أنفقوا فيه من بأس وحب ؛ ويهزئون بمن عرفوا فيه من نساء هزءاً مريراً !

ولمحت وراء هذا كله معالم من الأسى واثاراً من الخجل والحياء تعتلج في نفوس أصحابي . كنت أراهم في هذه البيوت خلال ليلة كاملة — وقد ران عليهم ماران من اضطراب ، وحاق بهم ماحق من احساس بقبج ما يصنعون وسوء ما يرتكبون وبدا ذلك لي طبيعياً جداً وحقيقياً جداً . ولئن رأيت بعضهم يفعل فعلته في سهولة وخفة بالغتين ؛ فلقد كانت كلتاهما مصطنعتين كاذبتين فيما أعتقد .

والحق أن اهتمامي بهذه العلاقات كان اهتمام الحذر الخائف فكنت أراقبها مراقبة خاصة شاذة . ولم أكن ممن يظفر بدعابة النساء . ولكنكم أقضى ذلك على مضجعي . كن يسخرن بي وكان رفاقي كذلك يسخرون بي سخرية قاسية مريرة ؛ ثم تركوني فلم يذهبوا بي إلى دور العزاء ، بعد أن أعلنوا في صراحة صادقة .

— يا شيخنا . لا تذهب معنا .

— ولم ؟

— لأنك . . . إن الناس لا يرتاحون إلى وجودك .

وأصررت على تفسير وإيضاح وشعرت بما لهذه الكلمات عندى من أهمية ،
ولكنى لم أنل من ذلك ما أصبوا إليه .

— قالوا لك لا تذهب . وكفى . إن الناس لا يريدون أن تراقبهم .

وزم « أرتيم » شفتيه ثم قال :

لكأن من يرافقك يجد نفسه بين يدي راهب أو بين يدي أبيه .

ولقد سخرت بي البنات بادیء بدء ثم غاظن موقفى منهن فقلن لى ناقيات :

— أترأك تقرف منا .

ونظرت إلى تريز بوروتا البولونية السمينة الحسنة — وهى (آنسة) بلغت

أربعين عاماً — وقالت :

— إطلقن سراحه يافتياتي ؛ إن له الخطيئة . ومثل هذا العملاق لا يضبطه غيرها

كانت مدمنة تشرب شراباً عنيفاً ، فإذا ثملت أصبحت كراهية كراهية لا حد لها

فإذا أفاقت من خمارها أدهشتك بما فى مواقفها من تبصر ، وبما فى تفسيرها لأفعال

الناس من صدق .

— إن أشد الناس غموضاً عندى هم طلاب المعاهد الدينية . سأقص عليكم

ما يفعلون بالبنات . أنهم يداكون أرض الغرفة بالصابون ثم يحملون البنت على

أن تضع كل طرف من أطرافها الأربعة فى صحن ، فإذا تم لهم ذلك دفعوها من

ورائها ثم نظروا إلى مقدار ما تقطع من مسافة ثم جاءوا بأخرى بعدها . ذلك

مارأيتهم يفعلون وما أنال أسأل نفسى ولما يفعلون ذلك ؟ فلا أرجع بجواب .

ولم أصدقها فقلت لها — بل أنت تكذبين .

فقلت ولم تتكلف فى هدوء ساحق : كلا .

قلت : بل كل هذا شئ أنت تخترعينه .

وأشاحت بوجهها عنى وهى تسألنى : وكيف تخترع الفتاة مثل ما سمعت ؟ وهل

أنا مجنونة ؟

كان كل من حولي يستمع فى تلهف إلى حديثنا . وعادت تريز تقص علينا

ألعاب الزائرين فى برودة هى برودة إنسان لا يتوخى إلا أن يفهم أسباب ما يقوم به

الناس من أفعال . وسكنت تيريز فبصق كل من سمعها وكالوا للطلاب وكالوا الى معهم سيلا من سباب .

ونظرت فرأيت تيريز تثير حملة شعواء على أناس كانوا أعز ما عندي ، فقامت وأعلنت أن الطلاب يحبون الشعب وأنهم يريدون له الخير والسعادة .

وابتسمت تيريز ثم قالت — أنك لتتحدث عن طلاب الجامعة . وهم علمانيون أما أنا فلم أتحدث إلا عن الرهبان المنتظرين . إنهم أيتام ، واليتيم يصبح أويمنى بالضرورة سارقاً أو قاطع طريق ، أو على العموم رجل شروفساد ، وليس في العالم شيء يردع اليتيم أو يمسك به أو يأخذ على يده .

ولم تكن قصص المرأة الهادئة — ولا اتهامات البنات للطلاب والموظفين أو في كلمة مختصرة « لكل من هو نظيف » لتثير في نفوس زملائى حقدًا وغضبًا وكفى بل كانت تثير أكثر ما تثير نوعاً من أنواع السرور يجد تعبيره الصحيح في مثل هذه الكلمات :

— إذن فهؤلاء المثقفون ليسوا أقل منا خبيثاً .

ولقد كان عسيراً على أن أسمعها ثم لا أطيق لها دفعا . وكنت أرى طين المدينة يتجمع هنا في هذه الغرفة الصغيرة ، والحجرات الضيقة المظلمة كما يتجمع في الحفر والأخاديد ثم يختلط فيستخمر فيتعفن ، ثم يسيل على المدينة مرة أخرى فيملأها خبيثاً وحقداً .

وعرفت في هذه الثقوب التي تحشر فيها الغريزة الناس حشراً ويدفع الناس إليها سأم الحياة دفعا — كيف تنبت من كلمات شاردة قائمة أغان عن الحب والآلة . وكيف تنشأ الاساطير عن حياة « المثقفين » وكيف يكره الناس مالا يعرفون وأبصرت بعيني رأسى « بيوت العزاء » مدارس يتلقى فيها رفاقي مبادئ لاحد لتفسخها وانحلالها .

كنت أرى « بنات العزاء » يمشين على الارض أشباحاً قادرة . يجررن أرجلهن في تراخ . وأنظر اليهن يهزرن أجسامهن الناضبة هزاً قاتلاً على نغمات من مار محطم أو بيان مكسور — وهكذا ولدت نفسى أفكاراً غامضة ولكنها رجراجة قلقة . كان

كل ما حولي يرشح ضجراً وينفث في النفس رغبة في الفرار ، هي رغبة لا تقدر على شيء وصبوة إلى الاختفاء في مكان ما من هذا العالم الفسيح الضيق .
كنت إذا خلوت برفاقي في المخبز وحدثهم عن أناس ناصحين مخلصين ، يبحثون عن الطريق المستقيمة التي تؤدي إلى حرية الشعب وسعادته ، كنت إذا حدثهم عن ذلك قالوا لي وهم يتغامزون :

— سل البنات ينبئنك الخبر اليقين .

كانوا يستخرون سخرية لا رحمة فيها — سخرية الصابر المتجلد — وكنت أغضب وأثور عليهم فلم أكن إلا كلباً صغيراً قوياً يرى أنه ليس أقل حماقة وشجاعة من الكلاب الكبيرة .

بدأت أفهم أن الأفكار التي نصنعها عن الحياة ليست أقل قسوة من الحياة نفسها — وشعرت في مثل هذه الأزمات بفورات من الحقد على هؤلاء الناس الذين يصبرون ويتجلدون في رضى وعناد ، وثرث ثورات عنيفة على ما فيهم من قدرة على احتمال الآلام ومن رضى صامت بما يكيل لهم سيدهم العرييد من سباب وهوان .



الفصل الرابع

حدث في هذا الدور العصيب من حياتي ، حادث كأنه قدر تقديرأ عرفت فيه فكرة جديدة جدة مطلقة وكرهتها كرها عميقا ومع ذلك فقد هزتنى هزأ أعنيفا . عدت في ليلة ، تمنخص نهارها عن عاصفة جاححة — من منزل دورانكوف . وكأن الريح — وهي تزجر غاضبة ناقة — قد مزقت السماء فهي ترمى بها كسفا كسفا ، فتكفن بها الأرض وتلفها بأكوام من رماد متجمد ، وكأن الحياة ودعت الأرض وداع من لا يعود ، وكأن الشمس غربت عنها فهي لن تطلع عليها أبداً . وكنت أنا أخترق الريح وعيناي مغمضتان وفي أذني خليط كشيء من أنواع الفوضى تنش نشيئاً بارداً .

عثرت فوجدتنى على الأرض ؛ وتصاعدت في آن واحد شتيمتان قذفت بواحدة منهما بالروسية وقذف بالاخري ذلك الذي عثرت به بالفرنسية : — العمى .. رفعته وأوقفته على قدميه فوجدت رجلا نحيل الجسم ، قصير القامة ، يدفنى دفعا وهو يصيح : — قبعتي — يلعنك الله — قبعتي كدت أجمد . وجدت القبعة في الثلج ، فنفضتها ووضعها على رأسه فنزعها وهزها أمامي متوعداً ثم طردني وهو يجرب أنواع الشتائم بالفرنسية والروسية وقال : « إغرب عن وجهي » ثم مضى أمامي وذاب في الظلمات . وسرت في طريقي ولكني وجدته مره أخرى واقفا يستند إلى عمود مصباح منطفيء ، وهو يحدث نفسه حديثا فيه ماشئت من قناعة وعقيدة « هيلين ... هيلين لقد هلكت ... آه يالينا »

كان سكران ثملا لامناص له من الموت إن تركته في الشارع ، فدنوت منه وسألته أين بيته فقال والدموع في صوته .. — ونحن أين نحن ؟ لا أدري . وتأبطت ذراعه وسرت به وأنا أسأله — فتمتم وقد قطعت الرعدة تتمته تقطيعا . — بولاك ... بولاك ... حمام ... منزل .

وكان يترنخ فيعوق سيرى — وسمعت أسنانه تصطك وهو يتمم بالفرنسية
وما يزال يدفعني

— لو عرفت ... — ماذا؟

وقف ورفع يده — وقال لي واضح اللفظ : — لو عرفت إلى أين أسير بك..
وخيل إلى أن شيئاً من كبرياء خالط كلماته ؛ ثم ترنخ وكاد يسقط وجعل أصابعه
في فمه ، ورأيت أن حمله أسهل على خملته على ظهرى وقد طاحت ذقنه فوق رأسى
وتتم فمه :

— لو عرفت ... أموت ... برد ... يارب

بلغت بولاك وعرفت بعد لآي أين سكنته — وولجت به دهليز منزل تخفيه
أكوام الثلج وأخيراً عرف بيته فنزل وقرع الباب حذراً يترقب وهو يقول : —
هس ... هس ...

فتحت الباب امرأة ترتدى ثوباً أحمر ، وتمسك شمعة ، ورجعت القهقرى
وأفسحت لنا الباب ثم أخرجت من حيث لا أعلم مكبراً وبدأت تتفرس بي .
قلت لها إن أصابع يديه قد تجمدت فيما أظن ، وأن من الواجب أن يخلع ثيابه
وأن ينام .

فسألتنى : — نعم ؟ وكان صوتها رناناً فتياً . وعدت أقول :

— غطسى أصابعه في ماء بارد .

وأشارت بيدها إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فقطعت فلم أجد إلا لوحة رسم
فيها نهر وأشجار ، ثم كررت الطرف في وجهها فرأيت هادئاً هادئاً غريباً ، ثم رأيتها
تنتحي ناحية فتجلس أمام منضدة عليها مصباح — كليلة حمراء — ثم تفتح دفترأ
فيه صور ثم تحقق فيما ترى أو لا ترى .

وعدت أسأله في صوت مرتفع : — أليس عندكم خمر ؟

ولم تفعل غير أن بسطت الأوراق على المنضدة ، ثم لم تجب . وبدت على وجهها
أمارات إرتباك وبدأ لي انفعالها كأنه أنف عصفور تضيء جانبيه عيمان واسعتان جامدتان

وصفت شعرها وكان كشيئاً جداً حتى ظننت أنه مستعار وأخيراً سألت صاحبي في صوت خافت أكثر رقة وموسيقى :

— جورج ... ألم تر ميشا ؟

وكان صاحبي جالساً — قد تدلى رأسه . وامتدت يده — وكنت قد خلعت ثيابه وهو لا يشعر بما حوله فكأنه في حلم — ولكنه لم يكذب يسمع سؤالها حتى اعتدل في جلسته وأجاب رأساً : — ولكنه سافر إلى كيف .

وقالت المرأة وعيناها لم تتحولا عن الأوراق — نعم ... نعم ... إلى كيف ولا حظت أن صوتها على وتيرة واحدة ليس فيه أداء .

— سيعود عما قريب .

— نعم ؟

— نعم . عن قريب .

— نعم ؟ قالت المرأة

ووثب جورج إلى الأرض وثبتين فإذا هو راكع عند قدمي المرأة . وإذا به يتحدثها بالفرنسية فلا تزيد على أن تقول له بالروسية .

— أنا مرتاحة هادئة

فقال وهو يداعب يد المرأة فوق ركبته . — لقد جرت عن الطريق .. فالثلج والريخ كما تعلين ...

كان كهلاً في الأربعين من عمره — أحمر الوجه — غليظ الشفتين — أسود الشاربين — ظاهر القلق بآدى الخوف — لا تزال يده تعبت بشعره — وكان كلما طال الحديث إزدادت لهجته حزماً وحسماً . قالت المرأة .

— سنسافر غداً إلى كيف

ولم أدر أكانت تؤكد سفرها أم تسأل عنه ؟

— نعم . غداً . ولكن يجب أن تستريحى . لماذا لاتنامين ؟ لقد طال بك السهر

— ألا يعود اليوم ميشا ؟

أوه . أفى مثل هذه العاصفة يمكن أن يعود ؟ ... تعالى ... نامى ...

حمل المصباح ومضى بالمرأة إلى باب صغير وراء المكتبة. وظللت وحيداً
لا أفكر في شيء، أسمع صوته يدوى. كان الثلج يخرمش الزجاج بأظفاره الناعمة
ذات الشعر، ولهب الشمعة يتأرجح في حياء، تحت نقطة من الثلج الذائب — والحجرة
تغص بما فيها وتقعمها رائحة غريبة حارة تسكر الفكر.

وعاد صاحبي يترنخ مرة واحدة، وفي يده مصباحه يترنخ مرتين وقال: — نامت.
وضع المصباح على المنضدة ووقف في وسط الغرفة يفكر ثم قال ولم ينظر إلى:
— لولاك كنت ميتاً... شكراً... من أنت؟

ثم مال برأسه يصغى إلى ما في الحجرة فسأله: — أهذه زوجك؟
— نعم، إنها زوجي... هي كل... كل حياتي.
كان صوته واضحاً رغم خفوته. ثم فرك رأسه فركاً شديداً، وقال:
— هلا شربنا الشاي؟

ومضى إلى الباب ثم عاد، فقد تذكر أن الخادم أكلت كثيراً من السمك وذهبت
إلى المستشفى. عرضت عليه أن أشعل السماور فرضى؛ ومضى بي، ناسياً أنه عريان
إلى مطبخ صغير وقال: — لولاك لتجمدت... شكراً...
ثم اضطرب فجأة ونظر إلى وقد أدار عينيه الهلع:
— ماذا عسى أن يحل بها لو مت؟ آه يارب...

ومضى فبص من ثقب الباب، ثم عاد يقول:

— أرايت؟ إنها مريضة. كان لها ابن موسيقى فانتحر في موسكو، ولا تزال
تتظن عودته منذ سنتين.

وحدثني ونحن نشرب الشاي عن زوجته. كانت من صواحب القصور؛ وكان
هو أستاذاً للتاريخ — يدرس ابنها — فهام بها وهامت به، ونشرت من زوجها،
وهو بارون ألماني، لتغني في الأوبرا. وعاشا معاً سعيدين، رغم ما بذل زوجها السابق
من جهود في سبيل شقاؤهما. كان يحدثني وكأنه يقرأ في صحيفة خطها غير واضح.
وقد أغمض عينيه أو كاد ينمضهما.

كان يشرب الشاي، ويلذع لسانه، ويتغضن وجهه وتدور عيناه. ثم سألتني

مرة أخرى — من أنت ؟ ... خباز ... غريب ... ! ولم لا تتكلم ؟

وأخبرته خبرى فقال فى صوت واطىء : — فهمت ... فهمت

ثم أخذته فورة من الحماسة فسألنى : — أتعرف رواية « الكنار الحقيقى » ؟

أقرأتها ؟ — وانقلبت أسارير وجهه وغضب فسالت أشداه زبداء ، وتهدج صوته وقال :

— إنها لى السحر والغبى . قرأتها فى العاشرة من عمرى ، وسألت نفسى لم

لا أكون أنا أيضاً كناراً ؟ كنت أهم بدخول مدرسة الرهبان — فدخلت الجامعة

وأذكر أبى ذلك منى ، وكان هو قسيساً . ثم سافرت إلى باريس أدرس تاريخ

مصائب الانسانية ، تاريخ التقدم ... وكتبت ، نعم كتبت . آه كم كان ذلك ...

وارتعد رعدة هزت كرسىه ، وأرهف أذنيه يسمع نبأ الحجره ثم قال :

— نحن الذين اخترعنا التقدم ، ولقد اخترعناه لنغزى به أنفسنا . ليس لهذه الحياة

من معنى ، وليس لها من مبرر . التقدم لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت العبودية .

وإذا لم تخضع الأكرثية للأقلية ولم تمش وراءها وقفت الانسانية . أردنا أن

نجعل الحياة أبسط وأسهل ففقدناها ، وأردنا أن نخفف أتعابنا فزدناها . أرايت إلى

هذه المعامل وإلى هذه الآلات ؟ أنها لم تخلق إلا لتصنع آلات وآلات ... هذا أمر

غريب وعجيب حقاً ... يزيد عدد العمال يوماً بعد يوم ، ولا حاجة بنا إلا إلى

الفلاح — منتج القمح — فالخبز وحده هو الذى يجب علينا أن نسعى إليه . وكلما

قلت حاجات الإنسان زادت سعادته ، وكلما زادت مطامعه قلت خريته .

ذلك ما قاله صاحبى واثن لم تكن هذه ألفاظه فهى معانيه وأفكاره . سمعتها

للرة الأولى معروضة هذا العرض القاسى العارى فصعقتنى .

وكان صاحبى يصمت بعد كل فقرة ، ثم ينظر خائفاً إلى باب الغرفة ، ويستمع

إلى الصمت ، وعاد يقول وهو لا يزال فى أمر هو الغضب أو يقاربه :

— خذ عنى ما أقول لك : حاجة الإنسان ، كسرة من خبز ، وامرأة ...

وأخذ يتحدثنى عن المرأة فى همهمة سحرية . ويذكر ألفاظاً لم أعرفها ، وينشد

أبياتاً لم أسمعها ... فذكرت باشكين اللص .

— بياتريس — فيامينا — لور — نينون .

حدثني عن عشاق الملوك وعن الشعراء، وأنشد شعراً بالفرنسية، وقعه بذراعه العارى ثم قال : — الحب والجوع يحكان العالم .
وذكرت أن هذه الكلمات كانت في ذيل منشور ثورى عنوانه « القيصر بجاعة » وقد أحلها ذلك من نفسى محلاً خاصاً .

تركت المطبخ عند الفجر ، فى الساعة السادسة ، وسرت فى الضباب أحطم الجليد وأسمع عصف الرياح ، وأتذكر حديث الرجل ، وأشعر أن كلماته لاتزال تقف فى حلقى ، وتهم بخنق .

كرهت أن أعود إلى دكانى فأرى الناس ، فطفت شوارع المدينة التترية وعلى رأسى كومة من الثلج ، ومازلت كذلك حتى أقبل النهار وتمطت أشباح الناس تغوص فى أمواج الثلج .

لم أر الأستاذ بعد ذلك أبداً ولم أحاول أن أراه، ولم أكن أحب أن أراه، ولطالما سمعت الناس يتحدثون بعد ذلك عن شذوذ الحياة وتفاهتها ، وعن سخف العمل وقلة جدواه . كان أكثر من ينشر هذه الآراء حجاج جهال ، أو شذاذ آفاق لا بيت لهم يأوون إليه، ولا نار عندهم يستدفئون بها، ورأيت فيهم جماعة نالت ثقافة عالية ، فيها القسيس ، وفيها دكتور فى اللاهوت ، وفيها كيماوى يصنع المتفجرات ، وفيها عالم فى الحياة من أنصار المذهب الحيوى الجديد ، وفيها غير هؤلاء .. لطالما سمعت هؤلاء جميعاً فكنت أمر بلغوهم مر الكرام ، ولم أحس أبداً بمثل ما أحسست به فى أول مرة من تأثير أرهق عقلى وأزهق نفسى أمداً طويلاً .

وها أنا أعود فأسمع منذ سنتين ، أى بعد ثلاثين عاماً من حديثنا الأول ، نفس الأفكار بل نفس الألفاظ والتعابير من فم صديق لى قديم ، هو عامل من عمال سورموف .

كننا نتحدث يوماً حديث القلب إلى القلب ، وكان يلقب نفسه « رب السياسة » وهو يبتسم فى غير سرور ؛ قال لى فى صراحة لا يعرفها إلا الروس وحدهم ، فيما يبدو لى .

— آه يا اليكس ما كسيتمش — آه يا صديقى ! نحن لسنا فى حاجة إلى شيء ...

وهل يحدينا شيء أبداً؟ مجامع علمية ... علوم ... طيران ... كل ذلك باطل. أتعرف ماذا نريد؟ نريد زاوية هادئة وامرأة نضمتها، وتستجيب لنا صادقة جسماً وروحاً. أما أنت يا أليكس، فتفكر تفكير المثقفين. إنك لست منا. ولكنك مخلوق متسمم — تضع الأفكار فوق الانسان، وتفكر تفكير اليهود... — ولكن اليهود لا يفكرون هذا التفكير ...

— الشيطان وحده يفهم تفكيرهم، و...

ثم رمى في النهر عقب سيجارته وأتبعها نظره.. كنا على ضفاف النيفا، في ليلة مقمرة من ليالى الخريف، بعد أن قضينا نهاراً أرهقنا بما فيه من أحداث تافهة لا طائل تحتها وأفعمنا برغبة عنيدة في أن نؤدى عملاً طيباً نافعاً. وعاد صديق يقول هادئاً مفكراً.

— إنك معنا ولكنك لست منا. فاستمع إلى. يحب المثقفون الحركة والنشاط، وهم من أجل ذلك كانوا في صفوف الثائرين. وكما ثار المسيح، وهو مثالي، من أجل السماء، كذلك يثور المثقفون من أجل طوبى. يثور المثالي، ويثور معه كثير من الجبريين والأشقياء والأندال، يثرون لأنهم يحسون بالفراغ، لأنهم لا يجدون لهم مكاناً يملؤونه في الحياة. أولئك هم المثقفون ومن لف لفهم. أما نحن العمال فنثور لنصنع الثورة — نثور لأننا نريد توزيع أدوات الإنتاج والإنتاج نفسه توزيعاً عادلاً. ولكن أتحسب أن العمال إذا استولوا نهائياً على السطة أقروا بإنشاء الحكومة؟ كلا ثم كلا، سيمضى كل منهم في سبيله، وسيبقى له بوسائله التي بين يديه، ركناً هادئاً...

سقول — ماذا نفعل بالتقدم الصناعي؟ ماذا نفعل بالفن الآلى؟ وسأقول لك إنه هو الذى يزيد في ضغط الحلقة التي في أعناقنا، وهو الذى يثقل أغلالنا، أجل يجب أن نتحرر من العمل، من عمل لا جدوى فيه، ولا طائل تحته، فالإنسان يجب الراحة ويسعى إليها، وهذه المعامل وتلك العلوم لاتضمنها له، ولا تعود بها عليه. الإنسان الفرد لا يرغب إلا في القليل، ولا يحتاج إلا إليه. قل لي يا صديق. لم أبني المدينة إن كان يكفيني البيت الصغير؟

إنك لتجد في المواطن التي يكثر فيها الناس ويزدحمون، مجارى للأقدار، وأقنية للبياه، وأسلاكاً للكهرباء. دع عنك ذلك كله، وحاول أن تعيش غير هذه الحياة، ثم انظر إلى حياتك ما أسهلها وما أيسرها. هناك أشياء كثيرة زائدة جاءت بها المثقفون. ومن أجل ذلك قلت لك وأعود فأقول لك: «إن المثقفين فئة ضارة». أرايت؟ لقد قلت أن ليس في الناس من هو مثل الروسي، يستطيع في مثل هذا العمق وفي مثل هذا التصميم أن يلغى كل معاني الحياة. وعاد محدثي يقول متهمكاً ساخرأ.

— نحن أكثر شعوب الأرض حرية فكر، فهون عليك ولا تغضب إن كان رأيي صحيحاً، وإن كان تفكيرى، هو تفكير الملايين، ولكنهم لا يطبقون أدائه على النحو الذى قت أنا بأدائه. علينا أن ننظم الحياة تنظيمأ أكثر بساطة، لتصبح الحياة نفسها أكثر رفقأ بنا وأشد عطفأ علينا. لم يكن محدثي من أنصار تولوستوى قط — ولم أعرف أنه انحرف إلى «الفوضوية» فأنا أدري الناس بتاريخ تطوره الفكرى.

ولقد رأيتنى، بعد هذا الحوار، مضطراً إلى أن أسأل نفسى: — أحق أن الملايين من الروس لم يهتموا ما فى الثورة من آلام قاسية إلا لأنهم يدغدغون فى أعماق نفوسهم الأمل فى التحرر من العمل؟ «أقل ما يمكن من العمل، وأكثر ما يمكن من المتعة». ذلك أمر يغرى الناس أشد الإغراء، ويشير أقوى أنواع الحماسة ككل ما هو طوبأى لا يتحقق.

وإذا كان ذلك كذلك، فأنا موافق هنريك إبسن فيما كتب فى شيخوخته:

يقولون لى هل أنت محافظ؟ — فقلت كلا.

إننى أنا نفسى لم أغير طوال حياتى.

ولكنى لا أحب أن أغير أما كن أوراق القمار،

وإنما أريد أن أقلب اللعبة رأساً على عقب،

أنا لا أتذكر إلا ثورة واحدة.

كانت أحكم الثورات.

وكانت تستطيع القضاء على كل شيء .
إنها — ولا شك — ذلك الطوفان العالمى .
ولكن إبليس انخدع فيها أيضاً .
وأصبح نوح ديكتاتوراً كما تعلمون .
آه ، لو استطعتم أن تقوموا بطوفان أشرف وأسمى .
إذن لما تأخرت عن مد يد المعونة إليكم .
إنكم تعملون للطوفان العالمى وتهتمون به ،
أما أنا فأسأضع اللغم ، متطوعاً ، مختاراً ، تحت سفينة نوح .



الفصل الخامس

زاد عدد الأشخاص و « القضايا الصغرى » ، واشتدت الحاجة إلى المساعدات ، وكانت عائدات دكان دورانكوف تافهة لاتكفى .
قال لى اندره مرة مهموماً قلقاً ، وهو يعيث بعثونه على عادته ، وعلى ثغرها بتسامة طفل مذب ، وفى صدره زفرات عميقات :
— يجب أن نجد مخرجاً .

لقد بدا لى هذا الإنسان كمن يعتبر نفسه محكوماً عليه إلى الأبد بمعونة أخيه ، فهو راض بها ، صابر عليها ، ولاكنها تلح فى إرهابه . كنت أسأله ملوناً أسئلتى ومعدداً صيغها ، هذا السؤال الواحد : — ولم تفعل ذلك ؟
والحق أنه لم يفهم سؤالى أبداً ، ويخيل إلى أنه لم يكن قادراً على فهمه ، فيظن أنى أسأله عن غايته من عمله ، فيحدثنى عن حياة الشعب وآلامه ، وعن أهمية التعليم ، وضرورة المعرفة .

وسأله مرة : — ولكن هل يريد الناس المعرفة وهل يسعون إليها ؟
فأجبنى فى هدوء — نعم ، نعم ، إنك تبحث عنها أنت .

أجل أنا أسعى إليها ، ولكنى تذكرت أستاذ التاريخ وتذكرت قوله : « إن الناس يسعون إلى النسيان ويبحثون عن السلوان لا عن المعرفة . » ذكرت قوله هذا فسألت اندره ذلك السؤال .

ورأيت أن وجود مثل تلك الأفكار الأكاله فى رؤوس شباب لا يتجاوزون السابعة عشر ، لا يمكن أن يجدى شيئاً . الأفكار يفعل حد أنيابها ، والناس بها لا يتفعون . وشعرت أنى ألاحظ دائماً هذه الملاحظة : وهى أن الإنسان لا يحب القصص اللذينة ، ولا يرغب فيها ، إلا لأنها تتيح له أن ينسى ساعة آلام حياته اليومية ومتاعها ، وأنه يزداد إصغاء إلى القصة كلما ازداد حظ الاختراع فيها ، وأن أغرى

الكتب للناس ما حوى أجمل الأكاذيب... نعم لقد رأيت هذا ورأيت ذاك، من قبل، وأرى الآن أنى كنت أحوم فى ضباب يصدع رأسى.

رأى دورانكوف، حلاً لما يقاسى، أن يفتح مخبزاً، وحسب أن كل روبل فى مشروعه هذا لا يقل ربحه عن خمس وثلاثين فى المئة. وكان على أن أكون مساعداً للخباز و « معتمداً » أسهر عليه لئلا يسرق شيئاً.

ها أنا ذا إذن أنتقل من قبو إلى قبو آخر أقل سعة، وأكثر نظافة، وطالما أرهقى تنظيفه وغسله، وقد استبدلت بأربعين عاملاً، عاملاً واحداً، أسمر الأوداج دقيق العنن ناضب الوجه، قاتم العينين، شاذ الفم فكائه فم سمكة، مكوز الشفتين فكائه متجمعتان دائماً للقبل، يلعب فى أعماق عينيه تعبير هازىء ساخر. ولقد كان من فضول القول أن أقول إنه يسرق، فقد وضع جانباً منذ الليلة الأولى، عشر بيضات، وثلاثة أرطال من الطحين وقطعة طيبة من السمن. رأيت أنه يفعل ذلك فسألته: ولم هذا كله؟ فأجاب فى لهجة الصديق: سأحمّله إلى فتاة. وأضاف إلى ذلك قوله، وهو يحك أرنبة أنفه: فتاة هائلة....

وبذلت أقصى جهدى لأقنعه أن السرقة جريمة، فكنت كمن ينفخ فى حديد بارد، ولست أدري لم لم أنجح: ألا أنى كنت غير مقتنع بما أريد إثباته، أم لأنى كنت غير بليغ؟ كان مستلقياً على ظهره ينظر من خلال الطاقة إلى النجوم، ولا ينى يردد مثل قوله: — العمى، رجعنا إلى المدرسة... ما شاء الله... أصغر منى ثلاث مرات ثم يلقى على درسا... العمى...

وسكت، فنظر إلى النجوم ثم قال: أظن أنى رأيتك قبل هذا... أين كنت؟ عند سومونوف؟ هناك حيث ثار العمال. طيب. إذن فقد رأيتك فى المنام.

ولاحظت بعد أيام، أنه يستطيع أن ينام حيثما كان، وكيفما كان، وأن ينام ما طاب له أن ينام. يقف معتمداً على العرجون ثم ينام، فيحرك حاجبيه، ويتغير وجهه تغيراً غريباً، وتنطبع عليه سخرية لا حد لشذوذها وقوتها، فإذا صحا تحدث، وطاب له أن يتحدث عن الأحلام وعن الكنوز:

— إنى لأرى الأرض قطعة من عجيب محشوة بالكنوز! فى كل جانب منها صناديق من فضة، ووزرابى من ذهب، وأباريق من زبرجد،

رأيت مرة مكاناً ، أظن أنه حمام ، ورأيت في زاوية منه صندوقاً مدفوناً مفعماً بأوعية الذهب ، وصحاف الفضة ، فاستيقظت ، ووقت أحفر ، ثم أحفر ، فوجدت قطعة من فحم ووجدت جمجمة كلب . وبينما أنا منهمك في عملي تطاير زجاج النافذة ألف قطعة وقطعة ، وصرخت امرأة : إلى السارق !

أتظن أني بليد فأبقي وأموت ضرباً وصفعاً ؟ لقد هربت من النافذه فنجوت . العمى ... سمعت هذه الكلمة تدور على لسانه لاتنقطع ، لم أر إيفان لوزوفيتش يضحك قط ، كان يكتفي بغمز عينيه وهو يبتسم ويمسك أرنبه أنفه ، ويفتح خياشيمه . ولم تكن أحلامه معقدة ، بل كانت أكثر من الواقع إزعاجاً وخرقاً ، ولم أستطع أن أفهم السبب الذي يحذو به إلى روايتها متلهفاً متحمساً ، وهو ذلك الرجل الذي لا يحب أن يتحدث عما يجري حوله ويحيط به .

هاجت المدينة واضطربت فقد انتحرت ابنة تاجر غني من تجار الشاي ، تزوجت مكروهة ، فقتلت نفسها ، وهي راجعة من الكنيسة بعد حفلة إكليها . وتبع جنازته جمهور يربو على بضعة آلاف من الشباب ، وخطب على قبرها الطلاب ، فهاجمتهم الشرطة وفرقتهم ، وتحدث الناس عن هذه المأساة ، وغصت الحجرة المعهودة بالطلاب ، وصلت إلينا أصواتهم ونحن في قبونا ، نعجن الدقيق .

قال لوتونين : — إن أهلها لم يحسنوا تربيتها ... كان هذا كل ما قاله ثم لم يلبث أن أسرع فقال :

— كنت مرة أصطاد السرطان في المستنقع وإذا أنا بشرطى يصيح :

— قف مكانك .. كيف ... ؟ ليس من وسيلة إلى النجاة إلا أن أغطس في الماء ، فغطست فاستيقظت من منامى .

كان كل ماحول صاحبي من واقع يجري فلا يحس به ، ومع ذلك فقد شعر أن في المخبز شيئاً غير عادى . فالفتيات يدرنه مع أنهن لم يخلقن لمثل هذا العمل إذ كن لا يتركن الكتب يطالعهن ، والطلاب في الحجرة وراء الدكان يجتمعون أمداً طويلاً يصرخون أو يتهايمسون ، ودورانكوف قل أن يطل علينا ، وأنا الأجير أدير المخبز وأصرف شؤونه . كل ما ذكرت حرك لوتونين فسألني :

— أنت قريب من أقارب دورانكوف؟ أم أنه يريد أن تكون من أتباعه؟
العمى، لماذا يجتمع الطلاب عندنا؟ أمن أجل البنات؟ نعم. هذا ممكن، وإن كن غير
جميلات، وإن كان الطلاب أحرص على أكل الخبز منهم على مغازلتهم.
وكانت له صاحبة قصيرة الساقين، بنيت على شكل متوازي المستطيلات، مختلفة
الأبعاد، كأنها كيس بطيخ، تزوره في أكثر الأيام، بين الساعة الخامسة والسادسة
صباحاً، فتناديه من الشارع: — فانيا.

كانت تغطي رأسها بمنديل مطرز، تفر منه من هاهنا ومن هاهنا خصلات من
شعر مجعد، فتغمر جبينها وخديها المستديرين حلقات صغيرة، وتتأرجح فوق عينها
الناعستين فتمد أصابعها المتباعدة تباعداً مضحكا كأنها أصابع المواليد الجدد، فتصففها
وترتبها في تراخ وكسل.

ولقد شغلني السؤال عن نوع الحديث الذي يمكن أن يتحدث به مثل ذلك الرجل،
مع مثل هذه الفتاة، زمناً غير قصير.

كنت إذا جاءت أيقظت الخباز فيسألني: — أهذا أنت؟ — نعم أنا — هل
نمت؟ — نعم، نمت — وماذا رأيت في منامك؟ — لم أر شيئاً.
كل ما في المدينة هادئ ساكن، وهناك عصا الحارس تنقر على الأرض توقظ أبناء
الأزقة، وأشعة الشمس الناعمة ترف على النوافذ. ما أحلى تلك الأيام وما أحبها إلى
نفسى. كان الخباز يمد ذراعه من النافذة فيدغدغ ساقى الفتاة، مستسلمة مطيعة في
غير ابتسام، تغمره حيناً بعد حين بعيني عنزة طروب. يقول لى: يشكوف! أخرج
الخبز، فإذا أخرجه ألقاه في حضنها، فأمسكت به، تنقله من يد إلى يد، وتعض عليه
بأسنان مهرة صغيرة وهي تن، وتصرخ، وتحرك ساقها، والخباز يتأملها، ثم يقول:
— غطى ساقيك يا وفتة.

وتمضى الفتاة، فيبتدىء دوره في الفخر بما آثره:

— رأيت؟ إنها نعيمة طيبة كلها شبع ورى. أنا يا شيخى، لأحب النساء، بل
أهوى الفتيات وحدهن: أتعرف أين تحل هذه في حسابهن؟ إنها الثالثة عشرة. وهي
ريبية نيكيفوريتش.

وكنت أسمع نجواه وأحاديث هواه ، ثم أقول في نفسي :

— أيمكن أن يكون هذا يارب ؟

أما نيكيفوريتش هذا ، فقد كان مفوض الشرطة في حيننا . كان شيخاً جاف العود ، مديد القامة ، تغطي صدره الأوسمة ، في وجهه ذكاء ، وفي ابتسامته وداعة ، وفي نظراته خبث . وقد حذرني منه أصدقائي فقد كان رجلاً خطيراً . يتصل بالدرك ويحب مطاردة الطلاب .

كنت إذا أخرجت الخبز كله من الفرن ، حملت منه عشر أرغفة إلى دورا نكوف ، ثم عدت مسرعاً ، فمئات سلة تسع ثلاثين رطلاً ثم هرولت بها إلى قاعة الكلية لأصل في الساعة التي يتناول فيها الطلاب طعام الإفطار .

أقف عند الباب الكبير في المطعم ، وأبيع ديناً أو نقداً ، وأستمع اليهم وهم يأكلون ويتحدثون عن تولوستوى ، (وكان أحد أساتذة المجمع جوسيف عدواً لدوداً له) ، وكنت أحمل في سلتى أحياناً تحت الخبز ، كتباً يجب أن أسلمها سرّاً إلى بعض الطلاب ، أو كنت على العكس ، أسترده كتباً وبطاقات أخفيها فيها .

وكنت أمضى إلى أبعد من الجامعة ، يوماً من أيام الأسبوع ، إلى مستشفى المجازيب وهو يوم يلقى « بتشريف » درسه في حضرة المرضى .

كان يحدث يوماً طلابه عن مريض أصابه جنون العظمة ، وبداني باب القاعة رجل مديد القامة ، أبيض الثياب ، تغطي رأسه قبعة ذات ذيول ، نظرت إليه وابتسمت مكرهاً غير مختار ، أما هو فوقف ملاوة ، ينظر إلى فوئب متقهقراً كأنما أصابت قلبي نظراته السوداء النافذة . وجاء « بتشريف » يداعب ذقنة ، وهو يتحدث إلى المريض ، حديث السيد الجليل ، وأنا لأزال أمسح بيدي وجهي أخشى أن يكون قد أحرقه ذلك الرماد الحار .

كان المريض أصم الصوت ، يأمر بما لأعلم ، ويرسل من أكامه يدأ طويلة الأنامل ، وخيل إلى أن قامته تطول ثم تطول ، وأن حجمه يزداد ازدياداً مضطرباً لاحائل دونه ، وأن أنامله تمتد وأنها ستقبض على عنقي ، وأن نظراته في عينيهِ السوداء وين تنبعث من محجريهما في وجهه العظمى أمرة ناهية ، متوعدة متهددة ، والطلاب ،

وهم أكثر من عشرين ، يفحصونه ، فيبتسم بعضهم ، ويحزن بعضهم ، ويهتم بعضهم ،
وعيونهم كلها، إذا قورنت بعيني المريض الملهتين ، تبدو خامدة باردة .
كان هذا الرجل مخيفاً حقاً ، ولكأن فيه شيئاً جد عظيم ؛ وكان صوت الأستاذ
يثير صرخة من ذلك الصوت الأجش كأنها تخرج من الأرض ، أو تنفذ من وراء
الجدران البيض الميتة . أما حركاته فكانت كحركات المطران بطئاً وصلابة .
ونظمت في الليل قصيدة أدعوه فيها « سيد السادات » و« خليل الله ومستشاره »
ولقد بقي خياله في نفسى أمداً طويلاً ، يرهقني ويسحق كياني .



الفصل السادس

كنت أشتغل منذ الساعة السادسة مساء حتى قبيل الظهر ، وأنام في النهار ، ولا أستطيع القراءة إلا في فترات العمل : إذا أنهيت وجبة عجين ، وانتظرت إخراج الأولى أو إذا وضعت الخبز في الفرن . وكنت كلما أوغلت في أسرار الصنعة قل عمل الخباز ، فزاد في تعليمي ، وهو يقول لي مستغرباً مشفقاً :

— إنك لذو موهبة ، وستغدو خبازاً بعد سنة أو سنتين . العمى . أنت ماتزال فتى ولن يصغى إليك الناس . ولن يحترموك .

ولم يكن يوافق على شغفي بالقراءة ، ولم نصحني :

— نعم يا بني ، فلأن تنام خير لك من أن تقرأ .

ولم يسألني ماذا كنت أقرأ قط ، فالأحلام والأوهام والكنوز والفتاة المكورة ذات الساقين القصيرتين ، كل أولئك كان يتصه امتصاصاً كاملاً . كانت تزوره في الليل فيذهبان إلى الدهليز فوق الأكياس ، فإذا كان البرد شديداً قال لي ، وهو يحك أرنبة أنفه :

— هلا خرجت فاسترحت نصف ساعة صغيرة ، وسأدعوك إذا اقتضى الأمر .

وكنت أتركهما وأمضي مفكراً في مقدار اختلاف هذا النوع من الحب ، عن الحب الذي أقرأه في الكتب . ولقد كان ، والله ، اختلافاً مخيفاً .

أما أخت المعلم ماري ، فكانت في الغرفة الصغيرة وراء الخزن ، وكنت أهيئ لها السماور وأجتهد في أن أراها أقل ما يمكن ، فإذا ما رأيته شعرت أنني مضطرب قلق ، وأن عينيها الطفلتين ما تزالان تشعان بتلك النظرة التي لا تحتمل ، تلك النظرة التي عرفتها أول مرة . وكنت أقترض في أعماق هاتين العينين ابتسامة ، وكان يخيل إلي أنها ابتسامة ساخرة .

جعلنى انبثاق قواى إنساناً غير لبق ، فإذا رآنى الخباز أتتبع ثم أحمل أكياساً فيها مائة وخمسون رطلا ، قال لى فى لهجة المشفق الرقيق :

— وأما القوة ، فلك قوة ثلاثة رجال ، وأما اللباقة فلا لباقة ، إنك لطويل ، بل أنت ثور حقيقى .

أنهت ذلك الحين ، عدداً غير قليل من الكتب ، وشغفت بقراءة الشعر ، وبدأت أكتب أيضاً ، ومع ذلك فقد كنت « أتحدث إلى نفسى » وكنت أشعر أن ألفاظى قاسية ، ثقيلة ، وأنها وحدها ، على الرغم من ذلك كله ، قادرة على التعبير عن تعقد أفكارى العميق ، ولقد كنت أصطنع الغلظة أحياناً كى أحتج على شىء أشعر أنه غريب شاذ ، وأنه يثير غضبى .

قال لى أستاذ من أساتذتى ، كان طالباً فى صف الرياضيات ، وهو يلومنى :
— ان إبليس وحده قادر على أن يفهمك ، فأنت لا تتحدث بالألفاظ ، ولكن بالأثقال والأوزان .

وكنت أشد لوماً لنفسى منه ، بل كنت كما يكون أكثر الشباب ، ساخطاً عليها ، برماً بها ، وكنت أرانى مضحكاً ، فظاً ، غليظاً ، وأرى وجهى كأنه وجه قى من سكان الكلموك ، ناتئ الوجنتين ، وكأن صوتى ليس منى .

هذا أنا ، أما أخت المعلم فكانت رشيقة الحركات ، كما تماهى عندليب يطير ، ورأيت أن هذه الرشاقة تنافى جسدها المستدير الرخو ، وأن فى حركاتها وسكناتها شيئاً من الغموض ومن التصنع ، وأن صوتها يرن راضياً مطمئناً ، وأنها تضحك كثيراً ، وكنت إذا سمعت ضحكها قلت لنفسى مفكراً فيها :
— لعلها تريد أن أنسى يوم رأيتها أول مرة .

ولكنى كنت لا أريد أن أنساها . إن كل ما هو شاذ غير طبعى يغربنى ويملك على سبيلى ، بل إنى فى حاجة إلى أن أتحقق من أنه ممكن ، ومن أنه موجود .
كانت تسألنى أحياناً :
— ماذا تقرأ ؟

و كنت أجبها بأقل ما يمكن من الكلمات ، وأنا أكتفم رغبة جامحة تدفعني إلى سؤالها :

— وأنت لماذا تريد أن تعرفي ما أقرأ ؟

قال لي الخباز يوماً ، وهو يداعب متوازي أضلاعه مغيطاً ، مخنقاً :

— اخرج دقيقة صغيرة . ستذهب إلى أخت المعلم . إنك لتستلعم . . الطلاب . .

أما أنا فقد وعدته أن أكسر له رأسه إذا عاد إلى مثل هذا التعريض ، ثم خرجت إلى

الدھليز فجلست على الأكراس . وسمعت صوت لوتونين يخرج من فرجة الباب ،

— وعلام أحاول أن أغضب ؟ لقد ذبحته الكتب ، وهو يعيش كالمجنون .

كانت الفران من حولي تغني وتتسابق ، والفتاة في الحجرة تن وتشنخ ، فخرجت

إلى الباحة . وكان المطر يهطل ناعماً ، متراحياً ، صامتاً ، والهواء تفعمه رائحة الحريق ،

والغابات من أمامي تشتعل ، والليل قد قطع نصف طريقه إلى الفجر .

كانت نوافذ البيت الذي يواجهه الفرن مفتوحة ، تتعالى في حجراتها التي ينيرها

ضوء ناعس ، أصوات جماعة تغني

القديس فارلام نفسه ،

ذو الرأس الذهبي ،

رأهن ثم ابتسم .

حاولت أن أتخيل ماريادورا نكوفاً نائمة على ركبتى ، كما تنام تلك الفتاة على فخذي

الخباز ، وما أسرع ما شعرت ، بكل كياني ، أن هذا مستحيل ، وأنه أيضاً مخيف

مرعب .

وانفصل صوت عن الجوقة ينشد وحده :

وقضى ليلته كلها ،

يشرب ويغني ،

وكان ما كان ...

أحنيت ظهري واعتمدت يدي على ركبتى ! فرأيت من نافذة بيتنا ، ثم من

خلال ثقب في ستائر غرفة الجيران، جذراناً يضيئها مصباح صغير ذو غطاء أزرق، ورأيت أمام النافذة فتاة تكتب؛ هاهي ترفع رأسها، وتصفف بريشتها الحمراء خصلة من الشعر فوق صدغها، وعيناها تكاد تغمضهما، ووجهها يشرق بالتسامه، طوت الكتاب في بطنها، وبللت أطراف الغلاف بريقها، ثم ألقت بالغلاف على المنضدة وتوعدته بسباتها، ولمست خنصرى فكان أكبر من سباتها ولكن هاهي تعود فتمسك بالكتاب، ثم تمزق الغلاف ثم تعيد قراءة ما كتبت، ثم تأخذ غلافاً آخر وتضع الكتاب فيه، وتكتب العنوان وهي منحنية على المنضدة، ثم تلوحه في الهواء، كأنه علم صغير أبيض.

وقامت، وهي ترفع ذراعيها، ومضت إلى الزاوية التي فيها سريرها، ثم عادت وقد خلعت ثوبها وبدت أكتافها بضمة مستديرة كأقراص الحلوى؛ فحملت المصباح وتوارت وراء الجدار. إن الانسان، إذا كان وحده، بدا، لعيني من يراقبه، شيطانياً من الشياطين. وعدت إلى الباحة أطويها جيئةً وذهوباً وأنا أفكر في أن لهذه الفتاة — إذا خلت في زاويتها الصغيرة — وضعاً ما، يجب أن يكون شاذاً غريباً.

أعرف هذه الفتاة؛ وأعرف أنها تبدو أصغر حجماً وأضال جسمًا، إذا جاءها طالب أشقر، فتحدث إليها في صوت خافت، ونظرت إليه هي نظرة ولهي، وهي توارى يديها وراء ظهرها أو تحت المنضدة؛ ولقد غاظني هذا الفتي الأشقر حقاً. ومرت بي الفتاة المسكورة، تتدحرج متلفعة ثم قالت كمن يتجشأ:

— ادخل

ودخلت فحدثني الحجاز، وهو يرفع العجين من المعجن، عن فتاته. وكيف كانت مثالا للهو والعبت، وكنت وهو يحدثني، أسأل نفسي:

— يا نفسي، ماذا يضر لك المستقبل؟ وماذا ستكونين؟

وخيل إلى أن في زاوية قريبة بؤساً يرقبني لينقض على.

تقدمت أحوال المحبز، وازدهرت ازدهاراً دفع دورانكوف إلى البحث عن

قرن أكبر وإلى إقرار زيادة مساعد جديد . وكنت بذلك مسروراً ، فقد زادت أعمالى وبلغ بى التعب حد الإعياء . وقال لى الحُباز :

— ستكون فى القرن الجديد مساعدى الأول ، وسأقترح إعطائك عشرة روبلات فى الشهر . وعرفت ان من الخير له أن أكون مساعده الأول ، فهو لا يحب العمل ما دمت أقوم به متطوعاً ، ولقد كان تعبى برداً على قلبى وسلاماً ، كان يسدد قلق روحى ، ويعقل رغباتى الجنسية ، ولكنه كان أيضاً يحول بينى وبين القراءة . قال لى الحُباز يوماً :

— دع كتبك تأكلها الفيران . وحدثنى عن أحلامك . أتهزأ بى فتزعم انك لا ترى فى منامك أحلاماً ؟ إنك لتحلم ولكنىك تكتم عنى ما تراه . العمى . وهل فى رواية الأحلام من حرج ؟

كان كثير الرفق بى وخيل إلى انه يحترمنى ، ولعله خشى ان اكون امين المعلم ، ولكن هذا لم يمنعهُ سرقة المؤونة فى استمرار وانتظام . ماتت جدتى ، وعرفت موتها بعد سبعة أسابيع من دفنها ، عرفته من كتاب أرسله إلى أحد أبناء عمومتى ؛ كان الكتاب مختصراً وليس فيه فاصلة واحدة ، فيه أن جدتى سقطت وهى تستجدى أكف الناس من سلم الكنيسة فكسرت ساقها ، وأصابها التهاب فى اليوم الثانى ، وعرفت بعد ذلك أن أخويها وأختها وأبناءهم جميعاً — وكانوا شباباً اقوياء يعيشون على صدقات العجوز — لم يبلغ بهم التفكير حداً يتيح لهم استشارة الطبيب . وجاء فى الكتاب :

« دفناها فى مقبرة بطرس وبولس ، ومشى فى جنازتها كل ذوى القربى . كما مشى الشحاذون الذين أحبوها حية وبكوها ميتة ، وقد بكأها جدى أيضاً بكاءً مرّاً ، ثم طردنا وبقي وحده على قبرها . ورأيناها من خلال قصب المقبرة يبكى . وسيموت هو أيضاً عن قريب . »

أما أنا فلم أبك ، لقد لفتنى ريح متجمدة صرصر منعت عيني البكاء . وجلست فى الليل فوق كومة من الحطب فى الباحة ، وأحسست بلهفة قاتلة تدفعنى إلى أن أحدث مخلوقاً من المخلوقات عن جدتى ، وإلى أن أذكر له كم كانت

ذكية وطيبة ، ولم كانت ترأف بالناس وتحنو عليهم . ولقد حملت هذه اللفظة الثقيلة في نفسى أمدأ طويلا ، ولكن أين من أحدثه ؟ أين من أثبه همى ؟ كل ما حولى فراغ لا أجد فيه أحداً ، وهذه اللفظة تضحل ثم تضحل ثم تنطفىء .

ومضت الأيام وقرأت تلك القصة العجيبة في صدقها ، قصة تشيكوف حين تحدث عن حوذى جاء إلى حصانه يخبره أن ابنه قد مات : فأثارت في نفسى هذه القصة أسفاً جديداً . ياليت أنى كانلى فى تلك الأيام السود حصان أشكو إليه . ولكن لا حصان ولا كلب .

ولم يخطر على بالى أن أقاسم شقاوتى هذه الفيران ، رغم أنها كانت كثيرة عندى والله الحمد ، ورغم أننا كنا أصدقاء أوفياء .



الفصل السابع

كان نيكيفورتش، عريف المدينة، يحوم حولي كما يحوم العقاب حول فريسته كان طويل القامة، شديد البأس، على رأسه فرشاة من شعر فضى، عريض اللحية. كان ينظر إلى يكاد يمتصني كما يمتص الشره الشراب، ويتأملني كما يتأمل المتأمل بطة ذات ريش غداة عيد الميلاد.

قال لي مرة :

— أرى أنك تحب المطالعة . فماذا تقرأ ؟ أقرأت الإنجيل وحياة القديسين مثلاً ؟ كنت قرأتها فدهش نيكيفورتش وأزعجه ذلك إزعاجاً ييناً .

— نعم ، نعم إنها قراءة مشروعة ونافعة ! وهل قرأت مؤلفات الكونت تولوستوى ؟

وكنيت قرأت أيضاً تولوستوى ، ولكن كل هذه الكتب لم تكن هي التي يبحث عنها الشرطي .

إنها مؤلفات عادية يكتب أمثالها كل الناس ، ولكني سمعت أن هناك كتباً تحمل على رجال الكنيسة . ياليتني أستطيع قراءتها

و « بعض الكتب » هذه ، كنت أخرجها من تحت الخبز وأقرأها ! وبدأت لي محرجة ، وكنيت أعرف أن ليس من سييل إلى التحدث عنها إلى سعادته .

كانت هذه الأحاديث تدور بيني وبينه في الشارع ، ثم دعاني الشيخ إلى بيته قائلاً :

— زرنى نتحدث ونشرب الشاي .

وعرفت مايرمى إليه ، وكنيت أريد أن أزوره فاستشرت « أهل الذكر » فاتفقوا على أن رفض عروضه اللطيفة تزيد في شكوكه في المخبز .

ها أنا إذن عند نيكيفوريتش في غرفته ، وقد شغل ثلثها الأول الموقد ! وثلثها

الثاني سرير مزدوج عليه وسائد كثيرة أعطيتها من قطن ، يستره ستار هندی ، أما ما بقى من الغرفة فيزينه مقصف ومنضدة وكرسيان ومقعد تحت النافذة .

جلس نيكيفورتش مرتدياً ثيابه الرسمية على المقعد ، وسد النافذة الصغيرة الوحيدة بجسمه ، وجلست إلى جاني زوجته ، وهى امرأة صغيرة القد ، عامرة الصدر ، عمرها عشرون ربيعاً ، صبح الوجه ، خبيثة العينين لعينتهما ، فى لون بنفسجى غريب ، حمراء الشفتين حمرة قانية ، كأن عليهما اشمئزازاً يقول لك : دا عبنى ، صوتها أجش غضوب ... قال الشرطى :

— أعرف أن ريبتي سيكليتيما تكثر من زيارتك فى المخبز ، إنها ساقطة طائشة ، والحق أن النساء كلهن ساقطات .

فسأله امرأته : — أكلهن ؟

قال : — نعم كلهن ! ثم قرع أو سمته كما يقرع الحصان فضوته . ومص مصة من كأسه ، وعاد يردد فى اقتناع وسرور :

— نعم إنهن ساقطات طائشات من آخر ابنة من بنات الشوارع إلى أول ملكة من ربات القصور . لقد قطعت ملكة سبأ ألوف الأميال فى الصحراء لتكسب حظية من حظايا الملك سليمان ، وكذلك فعلت الامبراطورة كاترين على الرغم من أنهم يدعونها عظيمة .

ثم قص علينا فى تفصيل قصة موقد من موقدى المدافئ ، رفعتة الملكة فى ليلة واحدة قضاها معها ، رتبة ثم رتبة من عريف إلى جنرال .

وكان امرأته تصغى إليه ، وتقلب شفيتها وتعبث بقدمى تحت المنضدة ، وظل نيكيفورتش يحدثنا حديثاً فياضاً مختار الألفاظ ثم انتقل ، دون أن أنتبه ، إلى موضوع جديد فقال :

— هنا مثلاً طالب فى السنة الأولى يدعى بليتينيف .

وتنهدت زوجته ثم قالت :

— إنه ليس جميلاً ، لكنه طيب

— ومن هو هذا ؟

— السيد بليتينيف

— أولاً : إنه ليس بسيد الآن ، وسيصبح سيداً إذا انهى دراسته ! أما الآن فهو ليس إلا طالباً من الطلاب مثل ألوف من أمثاله لا أكثر لا أقل . ثانياً ماذا تريد من قولك إنه طيب ؟

— إنه قبيح طروب .

— أولاً : إن مرتزقاً من مرتزقة السوق طروب مثله .

— ولكن هذا المرتزق لا يطرب إلا للنقود .

— كفى ، كفى ! ثانياً : إن الكلب العجوز كان صغيراً في أول عمره ...

— ولكن المرتزق كالقرد ...

— كفى ، كفى ، قلت لك ؛ ألا تسمعين ؟

— طيب .

— إذن فالحمد لله ...

وعاد ينصحنى بعد ما كان من إهانته لامرأته :

— لا بأس أن تعرف بليتينيف، فهو أهل لأن يعرف ...

وقلت له ، وقد رأتى من قبل مرات أسير مع بليتينيف فى الشارع :

— ولكنى أعرفه .

— آه ، إذن فأنتما صديقان ؟

ومشى الكره فى ألفاظه ، وتحرك فجأة وقد قرقرعت أوسمته ، وأخذت حذرى ، فأننا عرف أن بليتينيف كان من أصحاب ماتحت الخبز ، ودفعت المرأة رجلى دفعة قوية ، وهى تنظر إلى الشيخ فى خبث ، أما الشيخ فقد انتفخ كما ينتفخ الطاووس ، وبذل كل ما يستطيع من جهد لىكون حديثه بليغاً فصيحاً ، ولقد منغى تجسس امرأته من الإصغاء إليه ، ثم تغير صوته مرة أخرى ، دون أن ألحظ ذلك بادىء بدء ، وأصبح أكثر هدوءاً مما كان ، وأشد رغبة فى الإقناع .

قال لى ، وقد اتسعت حدقتاه واستدارتا كأنما أخذهما الرعب :

— الخيط الذى لا يرى ، أفهمت ؟ لنفرض أن الامبراطور عنكبوت ...
فهمت امرأته مستغربة ، متعجبة :
— أوه ، ماذا تقول ؟

— أما أنت فاخرسى ، ياغبية ، إنما أضرب مثلاً ليتبين الناس ، لا لأغضب الامبراطور .
قوى فاحملى الساموريا مهرة .

وتقوس حاجباه وتقاربا ، ثم صغرت حدقتاه وضائقا ، وتابع فى اهتمام :
— أجل خيط لا يرى ، مثل خيط العنكبوت ، يخرج من قلب صاحب الجلالة ،
من قلب صاحب الجلالة الامبراطور اسكندر الثالث . يخرج هذا الخيط فيخترق أصحاب
المعالى الوزراء ، وصاحب السمو الحاكم ، وأصحاب السعادة من ذوى المناصب ، وأنا منهم
حتى يبلغ آخر جندى : كل يتصل بهذا الخيط ويمت بسبب إليه . وقوة هذا الخيط
التي لا ترى ، هي التي تحرس هذه الدولة وتحميها إلى قيام الساعة . ولكن البولونيين
واليهود ، وبعض الروس وبالأأسف ، ممن اشترتهم ملكة انكلترا يحاولون أن
يقطعوا هذا الخيط ، قطعت أيديهم ، أيا كانوا . ثم هم يدعون أنهم يعملون
فى سبيل الشعب .

وسألنى متمتماً مهدداً وهو ينحنى على من فوق المنضدة :

— أفهمت ؟ حسناً ، قد تسألنى لماذا أقول لك ذلك ؟ إن خبازك يلهمج بالثناء
ويقول إنك فتى ذكى شريف ، تعيش وحيداً فى منعزل عن الناس ؛ ولكن ما بال
أولئك الطلاب يجتمعون عندك ويقضون الليل مع أخت دورانكوف ؟ لو أنهم
مضوا ولم يبق منهم إلا واحد لفهمنا ، ولم نحتاج إلى كثير من الذكاء ، ولكنهم كثيرون
إليه : أرجو أن لاتظن أنى أسى الظن بالطلاب ، إن الطالب اليوم طالب ، وغداً
مدع عام أو مستنطق ، والطلاب كرام بررة ، ولكن هنالك من يدفعهم من حيث
لا يعلمون ، وأعداء القيصر لا يألون جهداً فى إثارتهم وتحريضهم ؛ أفهمت ؟ سأقول
لك كذلك ...

ولكن الشيخ لم يتم كلامه ، فقد فتح الباب على مصراعيه ودخل شيخ ذو أنف
أحمر ، تغطى رأسه قلادة من نحاس ، وفى يديه زجاجة من القودكا ، وهو يترنخ سكرأ

فقال نيكيفوريتش وقد ظهرت في وجهه الكراهية :-

- عمى ... والد زوجي

استأذنت بعد دقائق وخرجت ، وشيعتني المرأة إلى الباب ، ثم قرصتني وهي تغلق الباب من ورائي وتقول :-

- ما أشد حمرة الغيوم ، لكأنها من نار !

فنظرت فلم أجد إلا غيمة واحدة مذهبة تذوب في أفق السماء :

لست ممن ينكر الجليل أو ينسى المعروف ، ولست أريد أن أتهم إفهام أساتذتي ولكنني أقر وأعترف مع ذلك أن عريف المدينة قد استطاع ان يفسر لي في شكل جامع مانع لم يبلغوا كلهم شأوه ، الأداة الحكومية وآلياتها: هناك في مكان ما عنكبوت يخرج منه « خيط لا يرى » يحيط بالحياة ويلفها ؛ وعرفت بعد حين كيف أكشف في كل مكان من هذا الخيط ، مواطن عقده المتينة .

أقبل الليل ، وأغلق باب الحانوت ، واستدعيتني المعلقة إلى غرفها وأخبرتني أنها كلفت بمعرفة موضوع حديثي مع الشرطي ؛ ثم استمعت إلى قصتي في انتباه وصرخت :

- آه ، يارب !

كانت قلقلة تركض كالقأرة من ركن إلى ركن ، وهي تهز رأسها ثم سألتني :

- ألا يسألك الخباز عن شيء ؟ إن خليلته من قريبات نيكيفوريتش ؛ أليس كذلك ؟ يجب أن نطرده .

كنت أستند إلى مصراع الباب وأطرق رأسي : لقد نطقت باسم « خليلته » في بساطة أزججتني ، ولقد أسخطني أيضا قرارها بفصل الخباز .

- كن على حذر .

قالت ذلك ، وجملت تنظر إلى نظرتها المعمودة التي طالما هزتني ، وخيل إلي أن هذه النظرة تسألني شيئاً لا أستطيع فهمه ؛ ثم وقفت أمامي وسألتني ويدها وراء ظهرها :

ولم أنت حزين هذا الحزن ؟

- لقد ماتت جدتي منذ أمد قصير ...

لكن أن جوابي حمل إليها العزاء والسلوى فابتسمت وسألتني :

- أتحبها حباً جماً ؟

- نعم ... أتريد أن مني شيئاً آخر ؟

- كلا ...

خرجت ، ونظمت في ليلتي تلك أبياتاً فيها ، كما أذكر ، لازمة عنيدة :

- لست كما تريد أن تكوني ...

تقرر أن ينقطع الطلاب عن المخبز فلا يزوروه إلا قليلاً ، وفقدت كل فرصة أطلب فيها تفسير ما استغلق علي بما أقرأ ، فبدأت أدون ملاحظاتي وأسألتي في دفتر ، وحدث أن أرهقني العمل يوماً فنمت فوق الدفتر ، فقرأه الحباز ثم أيقظني ليسألني :

- ماذا تكتب ؟ « لماذا لم يطرد جاليلاردى الملوك » ؟ من جاليلاردى هذا ؟

وهل يمكن طرد الملوك ؟

ثم ضحك والقي بالدفتر على المصطبة وقال :

— اسمع .. انه يريد طرد الملوك . العمى . خل عنك هذه الفصاحة يا حضرة الأستاذ . منذ خمس سنوات قبض الدرك في ساراتوف على أمثالك من الفصحاء ، كما يقبض على الفيران . إن نيكيفوريتش يراقبك ويهتم بك منذ حين . دع الملوك هادئين .. يرحمك الله ..

لقد كان يحدثني وهو يريد لي الخير كما يراه ، ولم ارد عليه كما أود ، فقد حرم علي أن أتحدث إلى الحباز ، في موضوعات خطيرة ..

ورد المدينة كتاب مشير ، قرأه الناس وتنازعوا فيه ، ورجوت البيطرى لافروف أن يعيرني إياه فقال لي يائساً :

— لا ياشيخي ، دع عنك أمره . ولكنني أظن أننا سنتلوه في مكان ما ، وسأمضي بك إليه .

واتبعت في الظلام ، عند منتصف الليل ، غداة عيد انتقال العذراء ، خيال
لافروف وهو يمشى أمامي في حقل ارسكي على بعد خمسين خطوة .
كان الحقل مقفراً ، وكنت أمشي على الرغم من ذلك خائفاً أترقب ، كما نصح
لي لافروف وأنا أصفر وأغنى رافعاً عقيرتي ، محاولاً أن أتخذ مظهر «عامل عرييد» .
كانت الغيوم السود تسير متراخية فوق رأسى مرقاً مرقاً ، والقمر يلوح بينها
كرة من ذهب أصفر وهاج ، والظلال تلتقي نفسها على الأرض هنا وهناك ، والحفر
إذا مد إليها القمر عيونه التهببت فضة فإذا مدت عليها السحابة ظلها التهببت فولاذاً ،
ومن ورائي تدوى ضوضاء المدينة .

وقف رائدي أمام حائط بستان وراء مدرسة الرهبان ، فأسرعت الخطى لأصل
إليه ، وتسلقنا الحائط صامتين . واخترقنا البستان الكشيف ونحن نصطدم بالأغصان
فتمطرنا قطرات كبيرة من الماء . ثم باغنا منزلاً وجدبنا ستار نافذة فيه ، فبدأ لنا
رجل ذو لحية لاترى وراءه إلا الظلمة ، ولا تحس همساً ولا ركزاً . قال : — من
الطارق ؟

قائلاً — أرسلنا يعقوب .

قال — تسلقوا .

فاذا ظلمة كظلمات الجحيم بعضها فوق بعض ، واذا بي أشعر فيها بوجود
جماعة كبيرة . وأسمع خشخشة الثياب ، ووطء الأقدام ، وسعال إنسان يسعل في
رفق ، ثم اشتعل عود ثقاب فأضاء وجهي ، وتبينت على الأرض عند الحائط أشباحاً
سوداً كثيرة .

— هل من غائب ؟

— كلا .

— ضع الستار ولا تدع فيه ثقباً .

وهتف صوت ناغم غير خافت .

— أي ملعون فطن إلى جمعنا في هذا المنزل المهجور ؟

وأمرته أصوات خافتة من حوله : — اخفض صوتك .

وأضئ قنديل صغير في زاوية. كانت الغرفة خالية خاوية على عروشها ليس فيها إلا صندوقان عليهما لوح خشبي تربيع فوقه خمسة رجال كأنهم غربان فوق سياج ، أما القنديل فقد كان على صندوق آخر ، وجلس على الأرض ثلاثة آخرون يسندون ظهورهم إلى الحائط ، ووقف عند النافذة شاب طويل الشعر ، يحيل القد ، شاحب الوجه ، لم أعرفه من قبل ، ولم أعرف أيضاً الرجل ذا اللحية ، أما من بقي من الحاضرين فأعرفهم جميعاً .

أعلن ذو اللحية في صوت خافت أنه سيقراً علينا منشوراً عنوانه « اختلافاتنا » كتيبه « بليخانوف » ، الشعبي السابق .

وتتم صوت منبعث من الأرض في الظلام : — معروف .

لقد هزتنى غرابة هذه اللوحة هزاً لذيذاً ، إن شعر الأسرار والأحاجي أسمى الأشعار . وخيل إلى أنني مؤمن يصلي في الكنيسة صلاة الصبح ، وذكرت الأقبية والمقابر التي كان يأوى إليها المسيحيون الأوائل . وإذا بصوت يملأ الغرفة ، أجش ، واضح النبرات ، يتحدث حديثاً لم أفهمه .

وهتف من جديد هاتف في الزاوية: — يا للحماقة — وهناك على الجدار لمعت أداة من نحاس لمعاناً سرياً قلقاً ، ذكرني بخوذة جندي في خندق ، وتبينتها فإذا هي فم الموقد .

واختلطت الأصوات الخافتة فلا تسمع إلا فوضى نمزقة من الكلمات لا يمكن أن تميز فيها صوت انسان ، وسأل من جانب النافذة ، فوق رأسي ، سائل صوته عال ساخر :

— أتريدون أن نقرأ ؟ هكذا تكلم الشاب الأصفر .

صمت الجميع ، فكان على رؤوسهم الطير ، وبدأ تلاوة المنشور صوت خافت ، واشتعلت عيدان الثقاب ولمعت نيران السجائر الحجر ، تضيء وجوه الرجال وقد غدوا مفكرين متأملين ، جاحظة عيونهم أو مغمضة .

ومضت التلاوة طويلة مرهقة ، وتعبت من الإصغاء ، رغم مافي تلك الكلمات من حدة وعنف ، ورغم أنها كانت تتحول في سهولة وفي بساطة إلى افكار موقنة

بما فيها من صواب .

ونجاة انقطعت القراءة ، وامتألت الغرفة بكلمات لائحة

— مزيف..

— إنه يبصق على دم الشهداء

— أبعد شفق جينير الوف وأوليانوف؟

وسمعنا مرة أخرى من جانب النافذة صوت الشاب :

— ألا نستطيع ياسادة أن نستبدل بالشتائم والسباب ملاحظات جدية عميقة؟

أنا ممن لا يحب الجدل ولا يعرف الإصغاء إليه ، وعسير على أن أتتبع القفزات المتقلبة في التفكير الجامح ، وأتميز غيظاً إذا رأيت الكرامة الشخصية مطروحة على بساط البحث بين الخصوم .

مال الشاب إلى وسألني :

— أأنت بيشكوف الخباز ؟ أنا فيدوسيف . أتريد أن نتعارف؟ قم بنا . ستستمر

الضوضاء زمناً طويلاً ولكنها لن تفيد كبير فائدة . أتريد أن نخرج ؟

كنت أعرف أن فيدوسيف مؤسس جماعة من الشباب كثيرة الجد والحزم ، ولقد رأيته الآن فأرضاني وجهه العصبي الشاحب وعيناه العميقتان .

ومضينا نمشي في الحقل فسألني عن علاقاتي بالعمال ، وعن مطالعاتي ، وعن زمني وقال لي فيما قال :

— سمعت بمخبرك ، ووجدت أن ليس طبيعاً أن تهتم بما لا أعرف من حب

للإنسانية لا يجديها ولا يؤدي إلى خيرها .

ولقد شعرت أنا نفسي منذ حين أن ذلك لا يجدي وبسطت له رأبي ، فمرح بما

سمع ثم صاحني في بأس ، وابتسم في اخلاص ، وقال إنه مسافر بعد غد ، فغائب ثلاثة أسابيع ، وسيخبرني إذا عاد أين وكيف نلتقي .

الفصل الثامن

ازدهرت أحوال المخبز فازدادت أحوالى نكراً . ولقد زادنى انتقالنا من فرن إلى فرن عملاً على عمل ، فكان على أن أشتغل فيه، وأن أحمل الخبز إلى بيوت الزبائن وإلى الجامعة ثم إلى معهد البنات النسيلات . كن يتناولن الخبز من سلتى ويدسسن فيها بطاقات رشيقة كتبن عليها فى خط صياني كلمات داعرة تهزنى خوفاً وهلعاً . كن إذا تزاخمن حول سلتى رائقات الهندام ، طاهرات العيون ، ونيشن بضاعتى نبشاً حبيباً مضحكا ، وجعلن بأيديهن الموردة عاليها سافلها ، أنظر إليهن ، وفى جوانحى إحساس غريب ، وأحاول أن أكشف فيهن أولئك اللواتى كن يكتبن تلك البطاقات الطائشة ، وهن لا يفهمن فى غالب الظن معانيها التى يندى لها الجبين خجلاً . أوقفتنى يوماً فتاة شقراء ، عامر صدرها ، كشيء شعرها ، تتدلى غدائرة ، ثم قالت لى مسرعة خافضة :

— لك عشرة كوبكات إذا أديت هذه البطاقة إلى صاحبها.

وامتلأت عيناها السوداءوان اللعوبان بالدموع ، ونظرت إلى وهى تقضم شفيتها قضمًا ، وتخرج خذاها وأذناها بدم الخجل ، فرفضت المال، وقبلت البطاقة فأعطيتها صاحبها وهوابن عضو فى المحكمة ، طويل القامة، كسا السل خديه حمرة قانية . أخرج مافى جيبيه من نقود وأحصى خمسين كوبكا، ثم عرضها على صامتاً مفكراً ، فرفضتها طبعاً وأراد أن يعيدها الى جيبيه ، فألقاها دونه فسقطت وتناثرت على الأرض ، ورآها تتدحرج على الأرض من كل صوب فبدا على وجهه القلق والاضطراب ثم فرك يديه حتى كاد يقدر أصابعه ، وتتم وقد أصابه عسر فى التنفس

— ما العمل؟... الى اللقاء دعنى أفكر فيما نابنى

ولم أعرف طبعاً نتائج تأملاته العميقة ، ولكنى أشفقت على تلك الآنسة إشفاقاً، وسمعت بعد قليل أنها اختفت من المعهد ، ثم رأيتها بعد خمسة عشر عاماً معلية فى

مدرسة ثانوية في شبة جزيرة القرم . كانت مسلوقة تتحدث عن الكون كله حديث الناقم الغاضب . وكان غضبها عنيفاً لا أثر فيه للرحمة ، عصياً لا أثر فيه لغير الأعصاب ، هو غضب امرأة سحقتها الحياة سحقاً .

وكنتم اذا وزعت الخبز نمت ، فإذا حل المساء اشتغلت في الفرن ، فإذا انتصف الليل حملت الحلوى الى الحانوت ، ثم عدت فينشال على الناس من دار التمشيل - وكان فرننا قريباً منها - يلهمون الفطائر الساخنة ؛ ثم أكبت على صنع الخبز البلدى والخبز الفرنسى وماأظن أن من اللعب صنع ثلاثمائة رطل أو أربعمائة رطل من الدقيق . فإذا انتهيت من ذلك كله نمت ساعتين أو ثلاثاً ، وقت عند الصباح الى حمل الخبز .

كان هذا ديدنى كل يوم ، كان هذا ما يؤديه جسمى من أعمال ؛ أما نفسى فقد استبدت بها وملكت عليها سبلها لطفة لاتطاق تريد أن « تزرع الخير والعدل والخلود » كنت رجلاً أليفاً ، أعرف كيف أقص أحسن القصص فى حياة وقوة ولقد أهرق خيالى كل ما حيتته وما قرأته ، ولم تكن فى حاجة إلا إلى القليل كيما أستطيع أن أولف من حادث تاريخاً مؤثراً ينساب فيه رقيقاً ناعماً « ذلك الخيط الذى لا يرى » وعرفت أصدقاء بين عمال مصانع كريستوفينسكوف والوفوزوف وتوثقت أواصر الصلة بينى وبين فيكىتاروبتسوف ؛ وهو حائك قديم ، ذكى دائم القلق ، طوف روسيا كلها واشتغل فى مناسجها كلها .

قال لى فى صوت محتق ، وفى عينيه المريضتين ابتسامة تبدو من وراء عوينات سود حاملتها من نحاس ، يضعها على أرنبة أنفه ، ويرسلها من وراء أذنيه فتترك آثارها الخضر .

— لقد طوفت فى الآفاق خمساً وعشرون سنة يا صديقى اليكس مكسيمتش

الحبيب ... يا ...

كانوا يلقبونه « الالمانى » لانه يحلق ذقنه ويرسل شاربيه وعشونه وكان ربعة ، عريض ما بين المنكبين يملؤه مرح سوداوى . قال لى وهو يلقى رأسه الاصلع المحدودب على كتفه :

— أحب ملاعب الحيوان ، وأعجب كيف يستطيعون تدريب الخيل مثل هذا التدريب ؟ وهي بهائم . أن ذلك لعظيم . إنى إذا نظرت إلى البهائم نظرة احترام قلت فى نفسى :

— إن فى الامكان أن يعلم الناس الناس استخدام العقل واستعماله : يقولون إن المدربين يطعمون البهائم السكر ونحن نشترى السكر من الحوانيت ، اليس كذلك ؟ ولكن نفوسنا لا تريد هذا السكر الذى نشتره ، انها تريد سكرأ من نوع آخر هو الوداعة واللف . يجب يا صديق أن يعامل بعضنا بعضاً باللف لا بضربات العصى ، كما تعودنا أن نفعل حتى اليوم . ألا ترى ذلك معى ؟

اما هو فلم يكن يرفق بالناس ، كان يحدثهم فى سخريه قد تكون احتقاراً . فإذا حدثوه كان جوابه مقاطع لا كلاماً ، وهو يرمى بذلك إلى إثارة الحنق والغيط فى صدر من يحدثه .

عرفته فى حانة ، وقد هم الناس به لولا أن انقذته بعد أن ذاق لكمتين . قلت له وأنا أمشى فى الظلام تحت رذاذ من امطار الخريف :

— هل أصابك سوء ؟

تقال لى غير مكترث بى :

— أيدعى ذلك سوءاً ؟ اسمع . من أجاز لك أن تسألنى ؟

هكذا بدأت علاقاتنا ، ولقد سخر بى بادىء بدء ، سخريه ناعمة ذكية . وحدثته عن الدور الذى يلعبه فى حياتنا ذلك « الخيط الذى لا يرى » فصاح وهو يفكر :

— ولكنك لست بليداً يا صاحبي .

وشرع يعاملنى منذ ذلك الحين فى حنان أبوى ويدعونى باسمى وباسم أبى . قال لى مرة :

— ما أصدق أفكارك يا اليكس ماكسيمتش ، يا أخى العزيز ، ولكن الناس لن يصدقوك . وأنت إنما تريد لهم الهدى والخير .

— ولكنك أنت تصدقنى .

— اما أنا فلست إلا كلباً متشرداً ، قصير الذنب ، ولكن من حولك الشعب ، والشعب مجموعة من كلاب مغولة الرقاب ، طويلة الأذنان تراكم فوقها الفحم

— نساء وأطفال ، وآلات وكاوتشوك . كل كلب صغير يعبد بيته . وهم لن يصدقوك أبداً .

حدثت أمس في مصنع موروسوف حادثة كبرى ، ولقد أخذ من قام بها ، فضرب على أم رأسه ، وليس الرأس كالفقا يا صاحبي .. واعتدلت لهجته كذلك عند ماعرف عامل الأقفال يعقوب شابوشنيكوف ، وهو عامل عند كريستوفينيكوف . كان يعقوب مسلولاً ، يجيد العزف على القيثارة وعالمًا كبيراً من علماء التوراة ، ولقد صعقت روبرتسوف طريقته الناقصة في إنكار وجود الله ، وكان إذا شرع في ذكر أدلته الشديدة المتحمسة ، بصق في كل صوب بقايا رثيته المهترئين الدامية .

كان شابوشنيكوف إذا تحدث تغيرت ملامحه وأصبح خيفاً ، كان وجهه دقيقاً نحاسياً ، وشعره أسود مجدداً كشعر النور ، وأسنانه تبدو وراء شففيه الزرقاوين لامعة كأسنان الذئب ، وعيناه شهلاوين تتركزان جامدتين في وجه خصمه . لقد كان عسيراً على المرء أن يقاوم هذه النظرة التي تفرض نفسها فرضاً ، والتي ذكرت بها نظرة ذلك المريض المصاب بداء العظمة .

قال لي روبرتسوف ونحن عائدان من منزل شابوشنيكوف في صوت أجش :

— ما رأيت أحداً يثور على الله قبل اليوم ، ولم أسمع قط مثلها سمعت اليوم . لقد سمعت كل شيء ، أما هذا فلا ، لن يعمر هذا الرجل طويلاً ، يا للهول ، لقد سخن حتى ابيض . لشد ما أهتمي أمره .

ولم يطل الأمد بروبتسوف حتى أصبح صديق يعقوب الحميم ، ومنذ ذلك الحين أصابه غليان دائم وأصبح يحك عينيه بإصبعه دون انقطاع .

قال لي مرة وهو يبلع ريقه :

— إن القيصر لا يزغني قط . والمسألة اليوم ليست مسألة القياصرة وإنما هي مسألة أصحاب الأعمال . يمكن أن أقتاهم مع أي قيصر حتى مع « ايفان المرعب » ؛ اسمع أيها القيصر ، ابق هنالك جالساً على عرشك واحكم ما طاب لك أن تحكم ، ولكن دعني أرجع العقل إلى رؤوس أصحاب الأعمال . أسمعت ؟ فإذا أنت وافقتني ولم تعصني عقدت على رأسك التاج بسلاسل من الذهب .

قرأ مرة المنشور « القيصر بجاعة » ثم صرخ قائلاً : — كل ما فيه صدق وحق .
ورأى لأول مرة منشوراً ، فسألني :

— من كتب هذا ؟ إنها لكاتبه جيدة . إذا رأيته فبلغه بى السلام والشكر
كان روتسوف متلهفاً شوقاً الى المعرفة ، يصغى تمام الإصغاء إلى الآراء
الهدامة التي يعرضها شوبوشنيكوف ، ولقد ظل مرة ساعات وهو يصغى إلى وأنا
أحدثه عما قرأت فيضحك مسروراً ، يقلب رأسه الى الوراء ، ويقدم حنجرتة إلى
الأمام ، وهو شديد الحماسة :

ما أقوى العقل الإنسانى ؛ انه خير طيب ونعمة كبرى .

كان إذا قرأ ، أجهد نفسه وكانت عيناه الميضتان تحولان بينه وبين المطالعة ،
ولكنه كان واسع المعلومات سعة أدهشني .

— عند الألمان نجار ، ذو ذكاء خارق للعادة ، يدعو الملك نفسه إلى مجالس
مستشاريه عرفت أنه يعنى ببيل فسألته : — وكيف عرفت ذلك ؟
وقال وهو يحك جمجمته المحدودة : — أنا عارف .

لم يكن تلاطم الحياة المرهق ليشير اهتمام شوبوشنيكوف ، إذ كان مشغولاً عن
ذلك بمهاجمة الأديان والاستهزاء برجال الكنيسة وخاصة بالرهبان الذين كان
يكرههم كرهاً خاصاً .

سأله مرة روتسوف في هدوء :

— قل لى يا يعقوب ، لم تغفل كل شيء حولك ثم لا تهتم الا بالتحامل على الدين ؟
فصرخ يعقوب أكثر ما كان غضباً :

— وهل يزججنى غيره ؟ لقد آمنت به عشرين عاماً ، وعشت خلالها فى خوف
منه . وصبرت على كل ما كان منه . كست أقول : — هذا حكم الله يا نفس فاصبرى ،
ولا تنسكى أحكامه ، فهى أحكام منزلة من السماء ، عشت موثقاً مقيداً . ثم قرأت
التوراة فى عناية وانتباه ، ووجدت أن هذا كله باطل واختراع . نعم اختراع يانيسكيثا .
ومد يمينه كأنه يريد تمزيق « الخيط الذى لا يرى » ومضى يقول وكأنه يحمى بالبكاء :
— أرايت ؟ هذا هو الذى قتلنى ولم أبلغ أجلى .

كانت لى علاقات أخرى لذيدة، كنت أزور كثيراً مخبز سومونوف لألقى
رفاقى القدماء، فيستقبلونى فى سرور، ويستمعون لى فى لهفة. ولم أكن أستطيع لقاء
روبتسوف وشابوشنيكوف إلا نادراً، فقد كان الأول يسكن قرية الأميرالية، ويسكن
الآخر قرية التتر، وكانت زيارتهما لى مستحيلة، فليس لى مكان أستقبل فيه
الزائرين، وزاد الطين بلة أن الحياز الجديد كان جندياً متقاعدأ يرافق رجال
الدرك، وكانت «البذلات الزرق» المحترمة تقفز من فوق الحائط، لتحمل خبزها
وخبز قائدتها، وطلب إلى أصحابى أيضاً أن أقلل، ما استطعت، من ظهورى، خشية
أن ألفت الأنظار إلى المخبز من غير جدوى.

بدا لى أن عملى أضاع كل ما يبرر وجوده. وقد حدث كثيراً أن الناس كانوا
يستنزفون كل مافى الصندوق من مال، لا يكثرثون بنجاح المشروع، ولا يهتم
أمره، ولقد بلغ بنا الأمر أحياناً أننا كنا لانجد ثمن الدقيق. وكان دورانكوف
يعبث بعشونه حزينا وهو يقول:

— سنعلن إفلاسنا عما قريب.

كانت حياته غير راضية أيضاً: هذه فاستيا ذات الجداول الشقر، ضخمة بالغة
الضخامة، كانت تشتم وتكشر عن أنيابها كأنها هرة ناقة. وتثبت على كل شىء،
وعلى كل إنسان نظرة خضراء غاضبة. كانت تمشى إلى أندره على خط مستقيم،
كأنها لاتراه، فيفسح لها الطريق، وعلى ثغره ابتسامة مذنب وفى صدره
زفرات.

ولقد شكى إلى أمره أحياناً فقال:

— أرى أننا فى هزل لافى جد، إنهم يأتون على كل شىء دون تفكير؟ لقد
اشتريت سنة أزواج من اللفاف للأرجل، فطارت دفعة واحدة.

ولقد كان حديثه عن اللفاف مضحكا، ومع ذلك فلم أضحك. لقد رأيت هذا
الرجل المتواضع الذى وهب نفسه، يكافح من أجل مشروع نافع، يريد له أن
ينجح، بينما كان كل من حوله يدمر ما يصنع غير مبال ولا مكترث.

لم يكن دورانكوف يطمح إلى أن يعترف له أولئك الذين يضحى في سبيلهم بما يسدى إليهم من معروف ، فذلك أمر لم يخطر له في بال ، ولكنه كان ينتظر أن يقفوا منه موقفاً أدل على الاهتمام والصدقة ، فلا يجد هذا الموقف .

أخذت عائلة دورانكوف في التفسخ والانحلال . فقد أصاب أباه خبل ديني حلو ، وأكب أخوه الصغير على الخمر ، وعلى النساء ، وأصبحت أخته غريبة عنه . ولعل حكاية لاتسر ، كانت تدور بينها وبين الطالب الأشقر ، فقد لاحظت أن عينيها قرحتهما الدموع ، فكرهت ذلك الطالب كرهاً عميقاً .

خيل إلى أنى أعشق ماريادورا نكوفاً ، وأنى أحب أيضاً بائعة مخزننا «ناو جداثشير باتوقا» وهى فتاة فى ميعة الشباب ، موردة الحدين ، تفتر شفتاها القرمزيتان عن ابتسامة خالدة . كنت عاشقاً على كل حال . سنى ، وطبيعتى ، وحياتى المعقدة ، كل أولئك كانت تتطلب منى علاقات نسوية ، ولكن جئت فى الزمن الأخير . كنت فى حاجة إلى الحنان ، أو على القليل إلى عناية امرأة تعطف على ، كنت فى حاجة إلى أن أجد نفسى أن أتحدث عن نفسى حديثاً مفتوح الصدر ، كنت فى حاجة إلى أن أجد نفسى الضائعة فى خليط من الأفكار المتنافرة ، وفى فوضى من العواطف المختلفة .

لم يكن لى أصدقاء . وأوائك الذين كانوا يرون أنى « مادة من المواد الخام » لم ينالوا حبنى ، ولم يحملونى على الصراحة والصدق . كنت إذا حدثتهم حديثاً لا يتصل إياهم نصحونى قائلين : — دع عنك هذا .

قبض على جورى بليتينيف ونقل إلى سيجون بطرسبرج . ولقد نقل إلى هذا النبأ نيكيفوريتش نفسه . رأى فى الطريق صباحاً ، تياهاً بأوسمته التى تغطى صدره ، كأنه عائد من حفلة استعراض ، رفع يده إلى قبعته ، يمينى ثم مر صامتاً ، ثم وقف وقال لى من ورائى فى صوت كئيب : — قبض الليلة على «جورى اليكساندروفيتش» ثم أضاف إلى ذلك فى صوت أكثر خفوتاً ، وهو يتلفت حوله : — مسكين لقد ضيع نفسه ، وخيل إلى أن دموعاً تترقرق فى عينيه الخبيثتين . كنت أعرف أن بليتينيف كان ينتظر أن يقبض عليه ، وقد أخبرنى هو بذلك ونصحنى أن لأزوره .

سألني نيكيفوريتش، مطرق الرأس، ينظر إلى قدميه، في صوت اللائم :

— لم لاتزورني ؟

زرتة مساء ، وكان قد استيقظ وجلس على سريره يشرب شراباً ، أما امرأته فوقفت عند النافذة ترقع سروالا . قال لى الشرطى ، وهو يحك صدره الذى يغطيه شعر قنفذ :

« قبضوا عليه ، ووجدوا عنده أداة ، يعد فيها جبراً ، ليكتب المنشورات ويهاجم القيصر » ثم بصق على الأرض ، ونادى امرأته فرحاً : — هاتى السروال . وقالت امرأته ولم ترفع رأسها : — سأتيك به .

غمز الشيخ بعينه ، وأشار إلى امرأته وهو يقول :

— هاهى تبكى عليه ، وأنا أيضاً آسف لما حل به ، ولكن ماذا يستطيع

الطالب أن يفعل ضد الملك ؟

وشرع يلبس ثيابه وهو يقول : — سأخرج قليلا . هيئى لنا الشاى .

كانت امرأته تنظر من النافذة ، دون أن تتكلم ، فما كاد يغيب وراء الباب ، حتى استدارت فى نشاط ، ومدت قبضتها إلى الباب مهددة : متوعدة ، وقالت ، وقد ملاها الغضب :

— يالك من نذل عتيق .

كان وجهها قد نفخته الدموع ، وعينها اليسرى تكاد تغمضها زرقة قائمة ، ثم قفزت واقتربت من الموقد وانحنى على السماور وهى تصيح :

— سأخونه ... سأخونه مابقى يعوى ، وسيعوى عواء الذئب ، لاتصدقه أبدأ ، لاتصدق كلمة واحدة من كلماته ، إنه ينصب لك الفخ لتقع فيه ، كذاب ، أشر لايرحم ، يصيد الناس ، إنه يعرف كل ماتفعله ، وهو يحيا من أجل ذلك ، وبذلك ، لايرى الصيد إلا صيد الرجال .

واقتربت منى حتى كادت تلتصق بى ، وقالت لى فى صوت شحادة : — داعبنى

قليلا ... إيه ... داعبنى

كرهت هذه المرأة ، ولكن عينها كانتا تتطلعان إلى ، قلقتين ، نانذتين ، فعانقتها

وداعبت شعرها الأشعث ثم سألتها :

— من يراقب اليوم ؟

— رجلا في فندق رينورياد سكيا

— ألا تعرفين اسمه ؟

وأجابت وهي تبسم : — سأخبره بما سألت ... هاهو ...

وقفزت إلى الموقد، ودخل نيكيفوريتش يحمل زجاجة فودكا وحلوى وخبزاً. جلسنا نشرب الشاي وجاست مارينا إلى جانبي، تحيطني بعناية خاصة ، وتنظر إلى بعينها السليمة ، وزوجها يقول لي : — إن هذا « الخيط الذي لا يرى » متغلغل في أعماق القلوب ، فحاول، إن استطعت، قطعه أو استئصاله . إن القيصر عند الشعب هو الله .

ثم سألتني فجأة : — إنك درست الكتب، وقرأت الإنجيل، فاخبرني هل كل ما فيه صحيح ؟

قلت : — لا أدري .

— أما أنا فأرى أن فيه أشياء لا تنفع. خذ مثلاً قوله عن الفقراء : — « طوبى للفقراء ، فإن لهم ملكوت السموات » أو قوله « الفقراء هم أسعد السعداء » وفيهم سعادتهم ؟ إن في هذا الكلام خلفية وإرسالا له على عواهنه ، وهناك أمور كثيرة تتعلق بالفقراء لا نجد إلى فهمهما سبيلا . يجب أن نميز بين نوعين من الفقراء : — فقير كان ولا يزال فقيراً ، وآخر كان غنياً فافتقر. إن هذا هو البائس التعيس . أرايت كيف يكون التفكير السليم ؟

— ولماذا ؟

نظر إلى نظرة فاحصة، ثم سكت، ثم عاد يقول في صوت واضح موزون، وهو يشرح أفكاراً، طالما تأملها :

— في الإنجيل رحمة كثيرة، والرحمة أمر ضار سقيم. هذا هو رأيي، فاستمع إلى : تتطلب الرحمة نفقات كبرى ، في سبيل أناس لا ينفعون بل هم خطرون ؛ مستشفيات ... سجون ... ، بيمارستانات ... ؟ يجب أن نمد يد المعونة إلى الرجال

الأقوياء الأشداء، ليتسنى لهم إنفاق قوتهم فيما ينفع، وليكن لنا نحن نساعد الضعفاء. أفي مقدورنا أن نجعل الضعيف قوياً؟ كلا! إذن فنحن، نضعف الأقوياء ونلقى على عاتقهم الضعفاء. علينا أن نفهم أن الحياة قد بعدت الشقة بينها وبين الإنجيل منذ زمن بعيد، وأن لها سيرها الخاص، واتجاهها الصريح. أتدرى ما الذى قضى على بليتينيف؟ إنها هذه الرحمة!

هذه هي المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الأفكار فى هذا الشكل العامى، ولقد كنت سمعتها من قبل، أكثر حياة، وأكثر انتشاراً، بما يظن الناس فى الغالب. وانقضت عشرة سنوات، فقرأت نيتشه، وذكرت به فلسفة شرطى قازان. وإني لأنتهز هذه المناسبة لأذكر أنى قلباً وجدت فى الكتب أفكاراً لم أجدها من قبل فى الحياة. وما برح «صياد الناس» يتحدث، ويوجد، وهو ينقر بأصابعه أطراف الصحاف، ويقسو وجهه الجاف، وينظر إلى مرآة النحاس فى السماور. وقالت له امرأته مرتين: — لقد آن لك أن تذهب.

فلم يجبها وظل يكوم كلبه فوق كلبه، وجأة شقت أفكاره، ولم ألاحظ ذلك أيضاً، طريقاً جديدة فقال:

— أنت فتى ذكى متعلم. ولكنك لم تخلق لتكون خبازاً؛ إنك تستطيع، إذا شئت، أن تربح ما شئت إذا قت بخدمة مملكة القيصر.... وكنت أفكر وأنا أصغى إليه، فى الوسيلة المثلى التى أستطيع بها إنذار من يسكن فى شارع ريبنورياد سكيا. وكنت أعرف أن سيرج سوموف يقطن غرفة فيه، وقد عاد حديثاً من منفاه، وسمعت عنه أنباء خطيرة. — يجب أن يعيش الأذكىاء، أكواماً، أكواماً، كالنحل فى الخلية، أو الزنابير فى العش. إن مملكة القيصر...

وقالت امرأته مرة أخرى: — الساعة التاسعة....

— العـمى.... ونهض نيكيفوريتش يزر سترته.

— لا بأس. سأركب عجلة. إلى اللقاء يا صاحبي، لا تنس زيارتي ولا تستحي....

الفصل التاسع

خرجت من بيت نيكيفوريتش ، وقد قطعت على نفسى عهداً وثيقاً أن لا أعود إليه أبداً ، لقد بعث فى نفسى ، هذا الشيخ ، الاشمزاز والاهتمام فى آن واحد . وكم هزتى كلماته فى أخطار الرحمة ، ورسخت فى ذاكرتى رسوخاً عميقاً ، وأحسست بشيء من الصدق فيها ، ولكن الذى غاظنى أنها خرجت من شرطى .

كانت المناقشات ، حول هذا الموضوع ، متشعبة كثيرة . أدهشتنى واحدة منها دهشة خاصة قاسية : قدم المدينة رجل من أنصار تولوستوى ، وهو أول من لاقيت منهم . كان ضخيم الجثة ، مفتول الساعدين ، أسمر الوجه ، له ذقن تيس سوداء ، غليظ الشفتين كأنهما شفتا زنجى . كان ، أكثر ما تراه مطرقاً إلى الأرض ، فإذا رفع رأسه أحياناً رفعه فى حركة سريعة مفاجئة ، وقد أحرقنى ما فى عينيه النديتين من لهيب مستعر ، وأحسست أن شيئاً من الحقد يغلى فى هذه النظرة النافذة .

ألقى علينا حديثاً فى منزل أستاذ فى الجامعة ، وسمع الحديث عدد وافر من الشباب منهم قسيس صغير الجسم ، ناحل ورشيق . كان أستاذ فى اللاهوت ، وكانت سترته السوداء تلفت النظر إلى وجهه الجميل الأصفر ، وعليه سياء الرقة ، وقد أضاءته ابتسامة صغيرة ، فيها جفاء ، تنبعث من عينين باردتين شحلاوين .

تحدث صاحب تولوستوى ، حديثاً طويلاً ، استمر ساعة أو تزيد ، عن التضامن الخالد ، والانسجام الإلهى فى فضائل الإنجيل وحقائقه . كان صوته أصم وجملة قصيرة بيئة القصر ، ولهجة فى كلماته الواضحة ، تشعر كإيمان قوى مخلص . كان إذا تحدث حسبته يبحث عن شيء ، فترافق خطابه حركات متساوقة ، تقوم بها يسراه ، أما يميناه فلا تكاد تغادر جيبه .

سمعت واحداً من الناس يتمم فى أذن صاحبه :

— مهرج ! — نعم ممثل .

كنت قرأت قبل ذلك اليوم ، كتاباً ألفه درير - على ما أظن - عن النضال بين الكاثوليكية والعلم ، وخيل إلى في هذه اللحظة أني أسمع رجلاً ، من هؤلاء الناس الذين هم مستعدون ، استعداداً تاماً ، لسوق ذوى قرباهم إلى المسلخ ، وذبحهم ، راقية بهم ، على الرغم من أنهم يؤمنون بأن سلام العالم في قوة الحب .
كان يلبس قميصاً أبيض ، واسع الأكمام ، وصدراً قديماً يميزه من سائر الحاضرين ، وقد اختتم خطابه وهو يزأر :

— وأخيراً أخبروني أيها الناس ! أنتم مع المسيح أم مع داروين ؟

قذف بسؤاله هذا جبهة من الشباب تقف في زاوية من زوايا الحجرة ، في صفوف يرص بعضها بعضاً ، وتنبعث منها نظرات خائفة مترقبة ، ورأيت أن خطابه أثر في الحاضرين تأثيراً ، فصمتوا مفكرين مطرق رؤوسهم . فألقى الخطيب عليهم نظرة لاهبة ، لفتهم ، ثم قال في قسوة :

— إن الفريسيين وحدهم ، قادرون على محاولة الجمع بين هذين المبدئين اللذين لا يجتمعان ، وهم إذا وفقوا بينهما كذبوا على أنفسهم من حيث لا يعلمون ، وخذعوا الناس ، والله خادعهم ، ولكنهم لا يعقلون .

وانتصب القسيس الصغير واقفاً ، ثم أزاح أكمام رداءه في عناية ، وشرع يتحدث حديثاً غزيراً ، ظاهر اللطف ، خلاب البسمة ، فقال :

— أرى أنكم ، جميعاً ، تشاركون في الرأي الذي يراه العامة في مسألة الفريسيين وهو رأى ليس ضخم الخطأ وكفى بل هو تام الخطأ من جميع جوانبه .

وشرع ، وقد شدهت ، يثبت أن الفريسيين كانوا هم حفظة التقاليد اليهودية ، وأنهم هم الصادقون المخلصون الذين أيدهم الشعب دائماً ضد أعدائه ، وسار وراءهم — اقرؤوا مثلاً فلافيوس جوزيف ...

قفز صاحب تولوستوى ، وأشار بذراعه إشارة حصدت رأس فلافيوس ، ومن لف لفه ، وكانت عريضة هدامة ، ثم صرخ :

— إن الشعوب اليوم تمشي وراء أعدائها ضد أصدقائها . ولكن هذه الشعوب لا تسير سيرها الخاص ، فهي مدفوعة دفعاً ، مشدودة شداً ، وماذا يعني من

صاحبك فلا فيوس... واطع القسيس وبعض الحاضرين موضوع المناقشة الأساسي تقطيعاً، وانتهى الأمر، وصاحبنا ما يزال يصرخ: الفضيلة هي الحب .
أما عيناه فكانتا تقدحان حقداً واحتقاراً .

كنت دائماً لا أكاد أتبين نفسي، في مثل هذه المناقشات، وكنت أشعر أني سكران بالكلمات، غافل عن الأفكار، وأن الأرض تدور تحت قدمي في عاصفة لفظية، وكنت أفكر في نفسي يائساً، معتقداً أن ليس على ظهر الأرض إنسان أكثر مني حمقاً وأقل مني موهبة .

كنت، أفكر في ذلك، وصاحب تولوستوي يصرخ، بكل ما أوتي من قوة، وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه :

— ألغوا الإنجيل إلغاءً، أو أنسوه نسياناً، كيلا تكذبوا. واصلبوا المسيح مرة أخرى فذلك أولى بكم وأشرف لكم .

وانتصب أمامي هذا السؤال كما ينتصب الحائط العالي :

— إذا كانت الحياة فضالاً لاهوادة فيه، يريد أن يظفر بالسعادة على الأرض، فالرحمة والحب لا يستطيعان إلا أن يعوقا، أو يعرضا للهلاك نجاح هذا النضال .
عرفت أن صاحبنا يدعي كوابسكي؛ وعرفت أين يقطن، فزرت في اليوم الثاني مساءً. كان ينزل بيت فتاتين من عائلة نبيلة، ووجدته في البستان جالساً وراء منضدة معهما، في ظل زيزفونة كبيرة باسقة . كان يرتدي سروالاً أبيض وقيصاً عريضاً، ورأيته طويلاً، جافياً، على مثال الصورة التي تخيلتها نفسي عن التائه الذي يبحث عن الحقيقة .

كان يأكل بمعلقة من الفضة، كرزاً بابن، فيزددد اللقمة في شراة ويمطق بشفتيه الغليظتين .

كانت إحدى الفتاتين تقوم بخدمته، وتقف إلى جانب المنضدة، أما الأخرى فتعتمد على جزع الزيزفونة، تتطلع حاملة إلى السماء الحارة المغبرة. وكانتا كلتاها تلبسان ثياباً خفيفة، مودة، وقد بدا فيهما متشابهتين، حتى لا تكاد تميز بينهما إلا في جهد .

حدثني صاحب تولوستوى، في رغبة وعطف، عن قوة الحب المبدعة، وأكد لي أن علينا أن ننمي في نفوسنا هذه العاطفة، فهي، وحدها، قادرة على أن تصل الإنسان بروح العالم، أى بالحب الذى يبسط ظلاله على كل ما في الحياة أيا كان.

قال: — الحب، وحده، هو الذى يستطيع أن يصل بين الناس، ويربطهم بأواصر لا تنفصم، وأنت لن تفهم الحياة إذا لم تحب. أما أولئك الذين يزعمون أن قانون الحياة هو النضال، فهم قوم ليس لهم عيون يبصرون بها، وهم أموات شبع من نفوسهم الموت. إنك لن تستطيع إطفاء النار بالنار، وكذلك فلن تنتصر قوى الشر على الشر.

ومضت الفتاتان الى البيت في أقصى البستان فأتبعها أنظاره، وعيناه مغمضتان إلقاءً قليلاً:

— وأنت من أنت؟

أصغى إلى، ثم قال لي، وهو ينقر المنضدة:

— إن الإنسان إنسان حيث كان، ورأى أنى كان، وليس على الإنسان أن يسعى إلى تبديل وضعه فحسب، بل إن عليه أيضاً أن يسمو بفكره في حب أخيه. كلما كان الإنسان منحطاً كان أقرب إلى الحياة الصحيحة، إلى الحكمة القدسية. وشككت قليلاً في معرفته «للحكمة القدسية» ولكنى سكنت، وشعرت أنى أزججه فقد كان يتطلع إلى، من بعيد، ويتأرجح، ويضع ذراعيه وراء عنقه، ويمد ساقيه، ويغمض عينيه مترخياً، ومع ذلك فقد حدثته عن آراء الشرطى في أخطار الرحمة، فتمتم، وما يزال يغمض عينيه:

— نعم لاجل للرحمة في النضال. ذلك أمر واضح.

وقال وهو يهيم نعساً:

— الصبر الجميل في الحب... قانون الحياة.

وحرك ذراعيه، وهو يرتجف، كأنه يحاول أن يمد بسبب إلى السماء، ثم حملني في خائفاً وقال:

— ماذا؟ أنا تعب، فعذراً...

ثم أغمض عينيه، وصرف بأسنانه كأنه يتألم، ومط شفته السفلى، ورفع شفته العليا، ونهض، ونهضت شعرات شاربيه الزرق. وخرجت غاضباً، أشك شكراً غامضاً في إخلاص هذا الرجل.

صادفت كلوبسكى بعد أيام، وأنا أحمل الخبز إلى معبد في الجامعة، عرييد عزب، ورأيت وجهه سيئاً حاله، من ليلة قضاها لم ينم فيها، ولا شك، ورأيت عينيه منتفختين وكأنه ثمل، أما المعبد فكاد يبكي وقد لبس ثيابه السفلى، وفي يده قيثارة، وهو قائم في فوضى من الأثاث، والمقاعد، والزجاجات الفارغة، والملابس الموزعة، كان يتأرجح ويصيح به :

— افتح لنا باب الرحمة والإحسان.

وصرخ كلوبسكى غاضباً حازماً.

— لارحمة، ولا إحسان. نحن أمام أمرين: إما أن ينضجنا الحب، وإما أن يسحقنا النضال في سبيله، ونحن على كل حال هالكون ...

وقبض على منكبي، وأدخلني الغرفة وقلل لصاحبه :

— سل هذا ينبئك عما يريد. سل هل هو في حاجة إلى حب أخيه وقريبه ؟

ورمقني المعيد داعم العينين، ضاحكاً، ثم قال :

— هذا هوا الخبز، وهو يريد ديونه.

وترنح، ثم مد يده إلى جيبيه، فأخرج مفتاحاً، وقدمه إلى قائلاً :

— خذ كل ما وجدته.

ولكن صاحب تولوستوى خطفه منه، وأشار إلى يده :

— اذهب، وسيدفع لك دينك عما قريب.

ثم أخذ الخبز من السلة، وقذف به على المقعد في زاوية من زوايا الغرفة.

لم يعرفني، وكنت بذلك سعيداً حقاً، وعدت، وفي ذاكرتي ما ذكره من هلاكنا في الحب، وفي قلبي شعور بالقرف منه.

وعرفت بعد حين أنه أعلن الحب مرتين، لكلتا الفتاتين، وتحدثتا إلى بعضهما بهذا الحب فرحتين، مغتبطتين، فانقلب سرورهما غضباً ونقمة وأمرتا الحال.

فدعا رسول الحب، إلى مغادرة منزلها رأساً، واختفى محبهما معاً من المدينة .
لقد عرضت لي، منذ، نعمة أظفاري، مسألة الحب والإحسان، ومقدار أثرهما في
حياة الإنسان، وهي مسألة معقدة مخيفة ، عاشت أوائل حياتها، غامضة، مشوهة ،
حادة، رغم غموضها وتشويهاها، ثم أخذت لها صورة واضحة في سؤال واضح هو :
— ماهو دور الحب ؟

كان كل ما قرأت مفعماً، بالآراء المسيحية والإنسانية، محشواً بصرخات العطف
على الناس، وسمعت كل من أعرف من أختيار الناس، وذوى فصاحتهم وجرأتهم،
يتحدثون عنه مثل هذا الحديث ، ذلك ما كانت أسمع وأقرأه .

أما ما كنت أراه وألاحظه ملاحظة مباشرة، فلم يكن له ما يوصله بالعطف على
الإنسان. كانت الحياة تجري أمامي سلسلة لا نهاية لها من العنف والعدوان، ونضالا
مستمراً وغير شريف، في سبيل امتلاك ما لا قيمة له من الأشياء . وكنت أرى
أنى لا حاجة بي إلى غير الكتب ، أما سائر ما في الدنيا، فتافه لا أهمية له عندي .
كان يكفيني أن أخرج إلى الشارع وأن أبقى ساعة في الباب واقفاً على عتبة،
حتى أفهم أن كل من أرى من حوزيين، وحمالين، وعمال، وموظفين، وبائعين لا يحيون الحياة
التي أحيهاها، ولا يحيون حياة من أحب ، وأنهم لا يطلبون ما نطلبه نحن ، ولا
يسيرون في الطريق التي نسير فيها .

أما أولئك الذين كنت أحترمهم، وأؤمن بهم ، فكانوا على نقيض من سلف،
كانو يعيشون معتزلين ، غرباء غير نافعين، في محيط تسود فيه أكثرية ساحقة من
الناس ، يعملون كالود، عملا صناعياً، تافهاً، يبنى بغير انقطاع، قرية نمل للحياة، هذه
الحياة التي بدت لي كلها، حياة بهيمية مضجرة ، ولطالما لاحظت أن هؤلاء الناس
ليسوا محسنين، محبين إلا في الكلام، وأنهم يتبعون، في الواقع ومن غير أن يشعروا،
بمجرى الحياة العام .

كان كل هذا قاسياً على . ولم أكن أعلم أين أنا منه ؟

قال لي مرة لافروف البيطرى ، وهو رجل أصفر الجلد ، نفخه ما يعانى من

ضيق في التنفس :

— يجب علينا أن ندفع القسوة إلى أقصاها، حتى يملها كل إنسان؛ وحتى توحى إلى الناس جميعاً، وإلى كل منهم على حدة، ما يوحىه إلى هذا الخريف اللعين . ولقد كان هذا الخريف المبكر شديداً، المطر، قارس البرد، غنياً بالأمراض والانتحارات . وقد مل لافروف انتظاره الطويل ليخنقه ضيق تنفسه، فتجرع جرعة طيبة من سيانور البوتاسيوم، وانتحر .

ولقد رثاه الخياط ميدينيكوف، صاحب منزل لافروف، حين سمع بموته، فقال :

— كان يربى البهائم، ففطس كما تفطس البهائم . تلك هى الكلمات التى رافقت جثة لافروف إلى قبره . ولقد كان هذا الخياط قصيراً، نحيلاً، متخذلقاً، يحفظ أغاني العذراء عن ظهر قلب . كان ينهال على ولديه بالسوط، وهما فتاة فى السابعة، وطالب فى الحادية عشرة، وكان له سوط ذو ثلاث شعب، أما امرأته فكان يضربها بعصا خيزران، ثم يجأ بالشكوى :

— لقد حكم على الحاكم لأنى تعلت، كما يزعم، هذه الطريقة الصغيرة، من أهل الصين، وأنا لم أر فى حياتى صينياً قط إلا فى الصور والاعلانات... كان يقول عنه عامل من عماله، كالح الوجه، عبل الساق، يلقب «زوج دونكا» — إن أخشى من أخشاه اللطفاء المتقون، أما الرجل الشديد، فأعرف من هو، وهو أيضاً يدع لى فسحة من الوقت لأتقيه، وأما الرجل اللطيف فينتفض عليك وأنت لاتراه، كما تتسلل الأفعى من بين الأعشاب، فتعضك، فجأة، فى أكثر مواطن جسمك تكشفاً وانطلاقاً، إنى لأخشى اللطفاء .

لقد كان فى كلمات «زوج دونكا» شئ من الحق، فهو نفسه لطيف، خبيث، وخيل إلى أحياناً أن هؤلاء « اللطفاء »، وهم يعدكون كالأشنة الأكلة قلب الحياة الصخرى، يجعلونها أكثر رقة وخصباً، ولكنى كنت إذا رأيت العدد الوفير من هؤلاء « اللطفاء » وأبصرت ألفتهم اللبقة لكل ما هو حقير تافه، وعرفت ما فى نفوسهم من تقلب، وما فى أرواحهم من مرونة، وسمعتهم يطنون طنين الذباب، كنت إذا

رأيت ذلك وسمعت هذا، شعرت بما يشعر به الحصان الراسف في قيوده، إذا أحاطت به سحابة من ذباب .

كنت أفكر في هذا، وأنا عائد من بيت الشرطى .

الريح تعصف وتزأر ، وأنوار المشاعل تترنح، وخيل إلى أن هذا الاضطراب هو اضطراب السماء ؛ وكانت تزرع في الارض مطراً تشرينياً ناعماً كالهباب . ورأيت في الشارع فتاة مبللة ، تجر رجلاً ثملاً وقد أمسكت به من تحت إبطه . أما هو فكان يدمدم، وكان ينتحب ، والمرأة تقول له في صوت أخرسه التعب :

— نصيب ، نصيب !

وقلت في نفسى :

وأنا ما أزال أيضاً أجز نفسى جراً إلى الزوايا القذرة ، وأرى أموراً دنسة وحزينة وأبصر أوشاباً من الناس من كل جنس . لقد سئمت كل هذا يا نفس . يمكن أن لا تكون هذه الفكرة قد ارتدت هذه الألفاظ ، ولكنها هى التى عرضت لى ؛ لقد شعرت لأول مرة بالسامة تقضم نفسى ، وبالتأكل يهرىء قلبى . وشعرت منذ هذه اللحظة، أن فكري يمرض شيئاً فشيئاً ، وشرعت أنظر إلى نفسى فى برود ، ومن خارج ، إذا صح هذا التعبير وبعينين أجنبيتين معاديتين . ورأيت أن فى كل إنسان تقريباً تكمن التناقضات فى غير نظام، وأن هذه التناقضات ليست تناقضاً بين القول والعمل وكفى ، بل هى تناقضات بين العواطف ، ولقد كان لهوها المغزى مثاراً لأقسى ما عرفت من الألم والعناء . ولقد كان أقسى من ذلك كله، وأشد على ، أن ألاحظ فى نفسى أيضاً هذا اللهو والعث . كان كل شئ يغربنى : — النساء، والكتب، والعمال، والطلبة الضاحكون - ولكنى لا أبلغ شيئاً منها فى حينه، ولا أعيش مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . كنت أدور كما يدور الخزوف، وأشعر فى الوقت نفسه ، أن يداً مجهولة قوية، تلهبى بسوط لا أراه .

وبدأت أتعلم العزف على الكمان ، فأهزه فى الليل هزاً عنيفاً ، وأزعج المصباح والفئران ، ولقد أحبت الموسيقى ودرستها فى لفقة، وحرارة . خرجت فى درس من دروسها، وتركت أستاذى، وهو عازف فى المرقص، ففتح باب الصندوق

وعدت، فوجدته يملأ جيوبه مالا . رآني واقفاً في عتبة الباب، فدنحوى عنقه، ووجهه
الأمعط، الكالح، ثم قال لي في صوت خافت :

— تعال . اضرب .

كانت شفاته تحتلجان ، ودموعه تنهمر من عينين أضاعتا لونهما ، كبيرة كبراً
غريباً . كنت أريد أن أضربه ، ولكي أتجنب ذلك قعدت على الأرض، ووضعت
يدي تحت نخذي ، وأمرته بإرجاع المال إلى الصندوق ، فنفض جيوبه ومضى إلى
الباب ، ثم وقف وقال في صوت هائل، مخيف، مأفون .

— هات عشر روبلات .

وأعطيته ما أريد ، وتركت الكمان .

قررت في كانون الأول (ديسمبر) أن أنتحر ، وقد حاولت أن أصف العوامل التي
دفعني إلى قرارى هذا، في قصتي « حادث في حياة ماكار » ولكنى لم أوفق فيما حاولت
فقد كانت القصة غير ماهرة ، وكانت مزعجة ، خالية من الحقيقة الداخلية ، وفي
رأى أن من الواجب أن نعد فقدان الحقيقة فقداناً تاماً فيها من أول صفاتها .
نعم إن وقائعها صحيحة ، ولكنى أشعر أنى لست أنا من أخرجها إلى النور ، وأن
آخر غيرى قصدت إليه فيها . ومهما يكن من أمر هذه القصة، ففيها شيء واحد
يرضىنى :

لقد أحسست فيها أنى اجتزت نفسى .



الفصل العاشر

اشتريت مسدساً، فيه أربع رصاصات، ثم أطلقت النار في صدري راجياً أن أصيب قلبي، ولكنني لم أظفر إلا بخرق رئة واحدة، وعدت إلى العمل في الخبز بعد شهر، خجلاً، مرتبكاً شاعراً أني أحق حقاً ~~ألا~~ ليس عليه من مزيد، ولكنني لم ألبث أن تركت الخبز. عدت يوماً في أواخر آذار (مارس) إلى المخزن فوجدت فيه صديقي الأوكراني. كان جالساً على كرسي عند النافذة، يدخن سيجارة غليظة، وهو يفكر وينظر في انتباه إلى غيوم الدخان. قال لي ولم يسلم علي :

— أنت غير مشغول ؟

— نعم خلال عشرين دقيقة .

— اجلس ، ولتحدث .

كان ، كما كان دائماً ، يتلفع بقازاقية من « جلد الشيطان » ، وذقنه تتربع على صدره العريض، وجبهته العنيدة تتوجها شعرات قاسية، مقصوفة، قصيرة، وفي رجله حذاء فلاح، ثقيلة، تفوح منها رائحة الشحم .

قال لي في هدوء، وصوت متزن :

— أتريد أن تشاركني في عملي ؟ إنني أقطن قرية كراسنوفيدوف ، على بعد خمسة وأربعين ميلاً من هنا ، وعندي فيها دكان . ستكون مساعداً لي ولن يكلفك ذلك زمناً طويلاً، وعندي هناك كتب طبية، وسأعينك على دراستك. أقبلت ؟

قلت: — نعم

قال: — كن يوم الجمعة في الساعة السادسة صباحاً على رصيف كورباتوف. واسأل عن مركب كراسنوفيدوف، وعن المعلم فاسيلي بانكوف، وسأكون هناك فأراك . إلى اللقاء .

ثم نهض: ومضى إلى يدا عريضة، وأخرج بيده الأخرى، من صدره، ساعة من فضة،

ثقيلة ، وقال :

— لقد اتبينا في ست دقائق آه. إن اسمي ميخائيل انطونوف، وأكنى روماس ومضى دون أن يلتفت ، في خطى متزنة ، وكانت رجلاه تحملان حملاً مريحاً جسده الثقيل العملاق.

و كنت بعد يومين ، أركب السفينة إلى كراسنوفيدوف . بدأت العقبة ، وتأرجحت على مياه الفولجا المضطربة ثلاث متقطعة دكن ، تتكسر على الشاطئ ، إذا اجتازها المركب ، وتتفرق بلورات حادة ، وكانت ريح الشمال تلعب ، وتقذف بالموج على ظهر المركب ، والشمس تسطع فتغشى العيون وتنعكس على زرقة الثلاث ، خطوطاً ، يديضاً ، شديدة البياض .

وكان الفلك يسير مثقلاً باكياس ، وبراميل ، وصناديق ، يدير ساريتيه بانكوف وهو فلاح شاب ، عليه معطف من جلد الخروف ، مزرر على صدره . كان حزيناً هادئ الوجه ، بارد النظرة ، يشبه قليلاً ما أهل الجبال ، وعلى مقدمة الفلك وقف مساعد بانكوف ، وقد أمسك بيده عرجوناً . كان أشعث الشعر ، صغير الجسم ، يلبس صدراراً ممزقاً ، وقد اتخذ زناراً من حبال ، ووضع على رأسه قبعة خوري ممزقة ، يبدو من تحتها وجهه ، وقد غطته آثار جراحات زرق ، كان يدفع الثلاث برفشه الطويل حيناً وبشتائه الهائلة حيناً :

— روجي .. إلى أين ؟

كان اسمه كوكوشكين .

جلست فوق صندوق ، في ظل السارية ، إلى جانب روماس ، وهو يتحدثني في رفق بين :

— الفلاحون لا يحبونني ، والأغنياء منهم أكثرهم مقتاً وكرهاً لي . عليك أن تتحمل أنت أيضاً هذا العداء .

وقال كوكوشكين ، وقد وضع الرفش عند قدميه ، وأدار وجهه إلينا في قوة وحرارة :

— والخوري أكثر الناس كرهاً لك يا انطونيتش .

وقال بانكوف مرئيداً . — نعم : تماماً .

— ومع ذلك فلن يستطيع هذا الكلب العقور أن يبلغك .

وعاد روماس يقول : — ولكن لى بينهم أصدقاء، وسيكون لك أنت أصدقاء فيهم .

كان البرد شديداً ، وشمس آذار (مارس) تسطع ولا تدفئ قط، والأغصان القائمة على الأشجار العارية تتأرجح على الشاطئ، هنا وهناك في الحفر والمستنقعات يتراكم الثلج أكواماً مخضوضرة وعلى طول النهر تستلقي الثلجات كأنها قطعان من الخرفان، خيل إلى أنى في حلم وأن كوكوشكين يقول وهو يحشو غليونه :

— لو كنت امرأة الخورى لفهمنا سبب خصامه لك ، ولكنك لست امرأته ،

وواجب مهنته يحتم عليه أن يجب جميع المخلوقات ، كما ورد ذلك في الكتب .

وسأله روماس وهو يرى جراحاته :

— ومن فعل بك هذا ؟

فقال كوكوشكين في احتقار :

— قوم سفلة ، لامقام لهم ولا شأن ، ثم تابع في كبرياء :

— نعم إنهم سفلة . ضربني مرة رجال المدفعية ، نعم إن ضربهم هذا وحده

يدعى ضرباً . ولا أستطيع أن أفهم كيف عدت إلى الحياة على أثره .

— ولم ضربوك ؟

— من ؟ أصحابي بالأمس ؟ أم رجال المدفعية ؟

— لا بل أصحابك أمس .

لا أدري ولا يمكن أن أعرف لماذا أضرب ثم أضرب . إن الناس عندنا كالتيوس يهجمون عليك لأدنى سبب . يجب أن نتضارب .

— أعتقد أن لسانك هو الذى يدفع الناس إلى ضربك فهو خبيث .

— قد يكون هذا صحيحاً ، فأنا طليعة بطيىتى ، وعادتى أن أسأل دائماً دون انقطاع .

إن معرفة ما هو جديد سعادة عندى .

واصطدم الفلك بثلاجة صدمة عنيفة ، وحدثت على الشاطئ قرقة صاعقة ،

وأمسك كوكوشكين، وهو يترنح بعرجونه، وقال له بانكوف يلومه....
— انتبه إلى عملك يا ستيفان.

فصرخ كوكوشكين وهو يدفع الثلاثية.

— أما أنت فلا تخاطبني. أترى أنى أستطيع العمل والكلام فى آن واحد؟

وتنازعا فى غير خبث، وقال لى روماس:

— الأرض هنا أقل خصباً من أوكرانيا، ولكن أهلها أطيب قلوباً. وهم

حقاً موهوبون.

أصغيت إليه وصدقته. هدوم وما فى ألفاظه من تناسق، وبساطة ورسوخ،
أرضياني، وشعرت أن هذا الرجل يعرف كثيراً من الأمور، وأنه حقاً يعامل
الناس كما يحب هو أن يعاملوه.

ولقد سرنى منه قبل كل شئ أنه لم يسألنى لماذا أردت أن أقتل نفسى. ولو كان
غيره لسألنى عن ذلك منذ زمن بعيد، وهو سؤال طالما نلت منه ما يكفينى، وهو
فوق هذا وذاك صعب لأعرف جوابه، ولعل الشيطان وحده هو الذى يعرفه،
ولو سألنى عنه روماس لم يظفر منى بغير جواب طويل سخيف.

كنت حقاً لأحب أن أذكر هذا الحادث. مأجمل الفولجا. إنه لهو الحرية
والنور. والتحم المركب بالشاطئ، واتسع النهر عن يسارنا فطنى على الشاطئ
الرملى وقد غطته المروج، ومضى موجه طليقاً أو هو يهيم أن يكون طليقاً، يداعب
شجيرات الشاطئ ويهز أقصابه. وترا كضئ سيول الربيع الصافية تتلقاه وهى
تدرج صاخبة. والشمس تضحك وأشعتها تدغدغ ريش العنابد الفولاذى
الأسود وتثير مناقيرها الصفر، والعنابد رائحة غادية تجدد بناء أعشاشها. وهناك
من خلال الأرض يطل لاستقبال الشمس رأس حشيشة زاهية وهو ما يزال يشد
قواه ليرنو إليها سامقاً عالياً. وهذا جسمى تأخذه قشعريرة من برد، وهذه نفسى
يملؤها فرح ناعم رقيق وتتولد فيها آمال تدفع عذبة مع نسائم الربيع. لا بأس، لا بأس
أن أعيش على ظهر الأرض فى الربيع.

كان صوت روماس يبلغنى من خلال تهوية خفيفة:

— هنا صياد اسمه إيزوت ستألفه ويألفك.

بلغنا كراستوفيدوف ظهراً ، وهناك على قمة تل عال منحدر الجنبات ، قامت كنيسة ذات قبة زرقاء ، واصطففت على جانبها بيوت جيدة متينة تلمع تحت الشمس أخشاب سقوفها الصفرة ، ويسطع قشها الذى يعلوها ، بساطة وجمال ، شدماء عجبت بهذه القرية . وقال لى روماس وأنا أعاون كوكوشكين فى حمل الأكياس :
— أذن فأنت قوى ؟ ثم تابع ولم ينظر إلى : — ألا تشكو صدرك ؟
— أبداً ..

ولقد ألقى سؤاله فى رقة هاجتى ، وكنت أتمنى ، وقد تخلصت من المدينة ، أن لا يعرف الفلاحون محاولة انتحارى :
وكان كوكوشكين لا ينقطع عن الثثرة :

— أما قوته فهو قادر على أن يوزع منها ماشاء على الناس ، ومن أين أنت أيها العملاق من تيجنى نوفغورود ؟ إنهم يسمونكم « شراب ماء » .
وهبط من التل ، من منحدر طينى يابح فيه ألف ينبوع من الفضة ، فلاح طويل القامة ، عارى القدمين واسع الخطى ، يلبس قميصاً وسروالاً من خام غليظ ، له لحية نبي مجمدة ، وشعر كثيف أشقر ، ونادى فى صوت رنان حبيب :
— مرحباً بالقادمين ..

ونظر حوالبه فأخذ رفشاً ثم آخر وسند طرفها على الشاطئ ثم قفز خفيفاً إلى الفلك وقال :

— ضع قدميك على طرفى الرفشين حتى لا ينزلقا ، وتلق البراميل . تعال ساعدنى يا ولى .

كان جميلاً كأنه صورة ، وكان قوياً تضىء وجهه المورد وجانبى أنفه الألقى ، عينان زرقاوان . قال له روماس :

— سيصيبك الزكام يا إيزوت !

— أنا ؟ لا . لا تخف .

ودحرجت على الأرض برميل بترول ، وحدجنى إيزوت بنظرة كأنه يرونى ثم سأل :

— أأنت الشريك الجديد؟

وقال له كوكوشكين: — هلا تصارعتما؟

— أراك قد كسرت بوزك مرة أخرى ياستيفان...

— وماذا تريد أن أفعل بهم؟

— بمن؟

— بهؤلاء الذين يتصاربون!

وقال ايزوت وهو يتنهد:

— آه: أى رجل أنت؟

وأضاف يخاطب روماس:

— ستأتى العجلات حالا. لقد رأيتمكم قادمين من بعيد، وكنتم مسرعين.

اذهب يا انطونيتش وسأتولى عنك عمالك.

لاحظت أنه يعامل روماس معاملة صديق معوان فيها أثارة من حماية، رغم أن الأوكرانى أكبر منه بعشر سنوات.

وكنست بعد نصف ساعة فى غرفة نظيفة موموقة من منزل جديد لا تزال تشبع منه رائحة السباع، وامرأة نصف، قوية العينين تضع مائدة الطعام، والأوكرانى يخرج كتباً من حقيبته ثم يضعها فوق رف قريب من الموقد. قال لى:

— إن غرفتك فى العنبر

رأيت من نافذة العنبر قسماً من بيوت القرية، ورأيت فى آخر النهر من بين القصب بساتين وحقولاً سوداً تنتهى إلى واد رائع يمتد نحو الغابة الزرقاء عند الأفق. هنا فلاح أزرق الثياب، يمتطى صهوة حصانه، يمسك بيده معولاً ويسند على كفه جبينه، ويسير إلى جانب الحمامات وهو يتطلع إلى الفولجا. وهناك عربة تتن وبقرة تخور، وسواقى تصل. وهناك امرأة ترتدى السواد، تخرج من باب بيت كبير، ثم تعود فتقف عند عتبة وهى تصرخ فى صوت عال:

— ياليتكم تفتطسون جميعاً.

وسمع صوت المجوز صبيان يسدان بالحجارة والطين مجرى ساقية وكانا ينهكان

في عملهما فهو لا يسابقان الريح . أما هي فالتقطت من الأرض قطعة خشب ، وبصقت فوقها ثم ألقته في الساقية ، وخربت برجلها المنتعلة بجذء فلاح بنايات الطفلين ثم هبطت إلى النهر .

— أية حياة سأحيها هنا ؟

ودعيت إلى الغداء ، وكان إيزوت جالساً إلى المائدة ماداً ساقيه الطويلتين وهو يتحدث فلما رأى سكت ، فقال له روماس مستغرباً .

— مالك ؟ تكلم .

— هذا كل ما عندي . لقد أخبرتك بقراراتهم — سنبليغ منهم مانشاء وحدنا... أما أنت فاخرج بمسدس أو بهراوة ونحن لا نستطيع أن نتحدث بكل شيء إلى بارينوف ، فهو مثل كوكوشكين ، لسان امرأة . أتعجب الصيد يا ولدى ؟

— كلا .

وشرع روماس يتحدث عن ضرورة تنظيم الفلاحين ، والملاك الصغار للبياتين وانقاذهم من أيدي السماسرة التجار . فأصغى إليه إيزوت في انتباه ثم قال :

— ولكن أكبر القرية سيجعلون حياتك مستحيلة فيها .

— سنرى !

— سيكون ما قلت لك .

ونظرت إلى إيزوت مفكراً « إن من أمثال هذا الفلاح قد استوحى كورونين وزلاتوفراتسكي قصصهما » وسألت نفسي أترين يا نفس أنى وفقت إلى لقاء أمر جدى ؟ إني أستطيع أن أشارك بعد الآن مع أناس يعرفون حقاً كيف يعملون . وتغدينا ثم قال إيزوت :

— لا تعجل يا ميخائيل أنطونوف ، فرب عجلة تهب ريثا . وأولى لنا أن نترفق .

ومضى ، فقال روماس مفكراً :

— رجل شريف ذكى ، ولكنه يال للأسف قليل الثقافة ، لا يكاد يعرف القراءة ،

وهو يتعلمها الآن في صبر دائم . ساعده إذا استطعت .

وأخبرنى روماس عن أسعار البضائع في مخزنه ، ثم قال لى .

— أنا أبيع بأسعار أقل من أسعار البائعين الآخرين في القرية . وذلك لا يرضيهما فهما يهدداني بالضرب ، وأنا أعيش هنا لأن التجارة شيء لذى ذو أرباح ، بل لأسباب أخرى . إنه مشروع مثل مشروع الخبز ...

وقلت له إنى فهمت ذلك من قبل :

— نعم... يجب أن نوقظ الناس قليلاً . أليس كذلك؟

وكانت الدكان مغلقة ، وسرنا وفى يدنا قنديل ، ورأينا فى الشارع إنسانا يخوض الوحل ، ويصعد درجات السلم فى صعوبة .

— أسمعت ؟ هناك من يمشى . أنه سيريلكا ، وهو متشرد ، سكير ، فاسد ، يجب أن يسيء إلى الناس كما تحب الفتاة الجميلة غزل الشباب . لا تتحدث إليه إلا وأنت فى حذر ، وكن على العموم حذراً .

وصلنا إلى غرفته ، فأشعل غليونه ، وأسند ظهره إلى الموقد ، وأغمض عينيه ، وأرسل فى لحيته خيوطاً من الدخان ، ثم قال فى هدوء وفى كلمات سهلة واضحة إنه منذ زمن طويل لاحظ أنى أضيع بلا فائدة أيام شبابى :

— أنت حقاً ذو مواهب ، عنيد ، تملؤك الإرادة الصالحة : يجب أن تتعلم على أن لا تحجب الكتب عنك الإنسان ؛ لقد قال حكيم وكان على صواب : « الإنسان مصدر كل علم » نعم ، إن الناس يعلمون الناس فى ألم وفى قسوة ، ولكن هذا العلم وحده هو الذى يبقى ثابتاً راسخاً .

وذكر لى حقائق متداولة ، وصرح أن الواجب ، فى بلاد زراعية ، يتقاضانا أن نوقظ وعى القرية قبل كل شيء ؛ وكان كلامه معروفاً ومع ذلك فقد لاحظت فيه معنى أكثر عمقاً وطرافة :

— يتحدث الطلاب عندكم كثيراً عن حب الشعب ؛ ولكم قلت لهم : الشعب لا يمكن أن يحب ؛ إن حب الشعب لفظة لا أكثر من ذلك ولا أقل وضحك فى ذقنه وهو ينظر إلى نظرة عميقة ، وشرع يغدو ويروح فى الغرفة وهو يقول فى قوة :

— الحب موافقة ، وتراجع ، وغض ، وتجاوز ، وهذا ما تريده المرأة . ولكن

هل تستطيع أن تلاحظ جهل الشعب فتوافق على خطيئات تفكيره ، وتتجاوز عن كل انحطاطه ، وتعفو عن قسوته ؟

— كلا !

— أرايت ؟ هناك ، عندكم ، يقرأ الناس ويترنمون بنيكراسوف دائماً ، وهم لن يبلغوا بنيكراسوف شيئاً ، يجب أن نفهم الفلاح مايلي : — إنك لست في صميمك انساناً شريراً جداً ، ولكن حياتك شر وأنت لا تعرف سبيلاً إلى جعلها أكثر خيراً أو أكثر يسراً : إن البهيمة لتهم بنفسها أكثر مما تهمك أنت نفسك وتدافع عن نفسها أكثر مما تدافع أنت عن نفسك .. منك أيها الفلاح انبثق كل شيء : النبلاء ، والكهنة ، والعلماء والقياصره كانوا كلهم فلاحين : أرايت ؟ أفهمت ؟ إذن فتعلم كيف تحيا كيلا تهلك وتبيد :

ومضى إلى المطبخ وأمر الخادم بأشعال السماور ، وعرض على كتبه وكانت أكثرها عليية : بويكل ، لوك ، لوبوك ، تايلور ، ميل ، اسبنسر ، داروين ، وأرايت من الكتاب الروس بيسارييف ، دوبرولوبوف ، تشيرنيشيفسكى ، بوشكين نكراسوف .

وداعب روماس بيده العريضة هذه الكتب في حنان ، كأنه يداعب قططاً صغيرة ، وتتم في حب :

— كتب طيبة ، هذا الكتاب نادر تماماً ، فقد أحرقت المراقبة ، إذا أردت أن تعرف ماهى الدولة فاقراه . ومد الى كتاب الدولة لهوبز : — وهذا أيضاً يعالج قضية الدولة ولكنه أكثر سهولة ، وتسلية ، ولم يكن هذا الكتاب المسلى غير « الأمير » لصاحبه ماكيا فيلى .

وحدثني عن موجز حياته ونحن نشرب الشاي . كان ابن حداد من تشيرنيكوف ، وكان يشحم القاطرات في محطة كيف عند ما تعرف إلى رجال ثوريين ، وشكل بين العمال لجنة للتعليم الشخصي ، فألقي عليه القبض وقضى سنتين تقريباً في السجن ثم نفي عشر سنين إلى مقاطعة ياقوت .

— كنت في بادئ أمري أعيش مع الياقوتيين في قراهم ، وأعتقد أن لن

أعود من هناك . كان الشتاء الشيطان هناك قاسياً لاحت لقسوته ، فالروح تتجمد في الجسد والدماغ يتجمد في الرأس و«هو» هناك غير نافع إن تجمد أو لم يتجمد . رأيت فيها زوساً مشردين غير كثيرين ، ولكنهم موجودون على كل حال ، ولكن لا يداخلهم الملل كان يضاف إليهم في كل يوم عدد جديد . كانوا رجالاً طيبين فيهم طالب هو فلا ديمير كورولا نكو ، وقد عاد هو أيضاً من منفاه . وكنت أنا وهو على أتم ما يكون التفاهم ثم تفرقنا : كنا متشابهين كثيراً ولكن التشابه لا ينفع شيئاً في الصداقة . كان جدياً جلدأ ، موهوباً في كل عمل . كان يصور حتى التماثيل ، ولقد ساءني ذلك فيه ، ويقال إنه الآن كاتب ناجح ينشر في المجلات .

وانتصف الليل وظل روماس يبسط نفسه ويتحدث عنها ، رغباً ولاشك في أن يساوى بيني وبينه . ولم يحدث مرة أن كنت طيب النفس مع أحد مثلي معه : لقد شعرت أنني سقطت سقوطاً هائلاً في احترامى لذاتي ، بعد محاولتي الفاشلة في الانتحار ، وشعرت أنني ناقص ، مذنب ، أخجل من الحياة . ولقد فهم ذلك روماس ، ففتح أمانى ، في إنسانية وبساطة ، باب حياته ، وأخذ بيدي يوقفي على قدمي ، وشعرت أنني في أرض راسخة الدعائم ثابتة الأركان وأن يومى ذلك كان يوماً خالداً لا أنساه ، ولا يمكن أن أنساه .

فتحنا أبواب الدكان يوم الأحد بعد الصلاة ، وانتال الفلاحون زرافات ووحيداناً يجتمعون حول الدرج وكان أولهم ماتنى بارينوف ، وهو رجل وسخ وغلظ ، له ذراعاً قرود طويلتان وعينا امرأة جميلتان نظرتهما حاقدة شاردة . قال بعد أن ألقى التحية :

— هل من جديد في المدينة ؟

ولم ينتظر الجواب بل مضى يقول لكو كوشكين :

— ستيفان ! لقد أكلت قططك ديكاً آخر !

ثم مضى مرة ثالثة فروى علينا أن الحاكم غادر قازان لمقابلة القيصر في بطرسبرج ليطلب إبعاد كل التتر إلى القوقاز أو تركستان . ثم أثنى على الحاكم وقال إنه رجل ذكى ، يعرف عمله ... وقال روماس في هدوء :

— إنك لتلتق هذا كله يا صاح

— أنا ؟ ومتى ؟

— لا أدري !

— ولماذا أنت قليل الثقة بالناس ، يا أنطونيتش ؟

قال ذلك بارينوف في لهجة لاثم ، وهو يحرك رأسه تحريك مشفق رحيم ثم قال :

— أما أنا فأشفق على التتر . إن العيش في القوقاز عسير على من لم يألفه .

واقترب في أدب ، رجل نحيل يلبس مانعاً ممزقاً ، يبدو جلياً أنه ليس له ،
ووجهه الأسمر قد غيرت معاملته تقطعية تمد شفثيه القاتمتين في ابتسامة مؤلمة . وعلى
عينه اليسرى التي تطرف بلا انقطاع يهتز حاجب أبيض يقطعه أثر جرح قديم .

قال له بارينوف ساخراً :

— سلاماً يا ميجون ! ماذا سرقت الليلة ؟

— دراهمك .

قال ذلك ميجون في صوت جهورى وهو يرفع قبعته أمام روماش .

وخرج من الباحة صاحب البيت وهو جارنا ، بانكوف ، وكان يلبس سروالاً ،
ويضع كوفية حمراء في عنقه ، وعلى صدره سلسلة فضة طويلة كأنها غل ، فألقى على
ميجون نظرة غاضبة وقال :

— إذا رجعت إلى بستانى أيها الشيطان العتيق كسرت ساقيك بالمجرقة .

— وقال ميجون في هدوء :

— هذا هو الحديث المعاد المكرور . ثم تنهد وأضاف :

— كيف يستطيع الإنسان أن يعيش ثم لا يضرب أو لا يضرب .

وأغلاظ له بانكوف فقال ميجون :

— لست أبداً عجوزاً وأنا لم أتجاوز السادسة والاربعين .

— ولكنك بلغت الثالثة والخمسين غداة عيد الفصح الماضى . لقد قلت ذلك

لى أنت ، نعم ثلاث وخمسون فلماذا تكذب ؟

— أكذب لكى تكون صادقاً مرة واحدة فى حياتك ، على الأقل !

وجاء سوسلوف ، وهو شيخ قوى ذو لحية ، وجاء معه إيزوت ، فبلغ عدد المجتمعين عشر رجال .

كان الأوكرانى جالساً على الدرج عند باب الدكان ، يدخن غليونيه ويصغى صامتاً إلى أحاديث الفلاحين الذين جلسوا على الدرجات أو على المقاعد من كل جانب . كان النهار بارداً حولا ، وعلى السماء الزرقاء التى جمدها الشتاء ، تمضى الغيوم بسرعة ، وهنا وهناك بقع من النور ومن الظل ، تغتسل فى الغدران وفى البرك فتعشى الأنظار بلعائها القوى حيناً ، وتداعبها بعذوبة مخملية حيناً .

ومشت الصبايا وقد أخذن زينة الأحد ، يزين الشوارع التى تؤدى إلى الفولجا . كن يقفزن البرك وقد رفعن أثوابهن وأظهرن أحذيتهن الثقيلة . والصبيان يترا كضون حاملين عصى الصيد الطويلة فوق أكتافهم ، وبعض ذوى الوقار من الفلاحين يمشون فىلحقون على الجمع عند الدكان نظرة مائلة ثم يرفعون فى صمت قبعاتهم . وكان ميجون وكوشكين يحاولان فى هدوء أن يحلا موضوعاً أشكل عليهما وهو : من الذى يستطيع أن يصرع الآخر ؟ التاجر أم الآغا ؟ — أما كوشكين فيزعم أنه التاجر ، ويصر ميجون على أنه الآغا ، وقد علا صوته الرنان على كلمات كوشكين المبعثرة :

— لقد جر أبو الآغا فنيخوروف نابليون بونابرت من لحيته ، وطالما أمسك الآغا باثنين من طوق رداءهما ، ثم حرك ذراعيه ، فضرب جبهة هذا بجبهة ذاك ، ها هما على الأرض هامدان لا يتحركان .

— نعم ... هذا ، ... هذا صحيح ، قبل كوشكين ، ولكنه لم يلبث أن قال — ومع ذلك فالتاجر يأكل أكثر من الآغا ...

شكا المحترم سوسلوف وهو جالس على أعلى درجة من السلم فقال :

— إن الفلاح لاتصل بينه وبين الأرض صلة ياميتخايل أنطوفيش عندما كان قنأ لم يكن له حق فى الحياة إذا لم يعمل ، فكان لكل إنسان عمله . فأجابه إيزوت :

— يجب أن تبعث بتقرير لىكى يعيدوا عهد العبودية إلينا !
ونظر إليه روماس صامتاً ثم أفرغ غليونيه ، فضربه على حافة الدرج .

سألت نفسي متى يتكلم . وكنت ، وأنا أصغى في انتباه إلى أحاديث الفلاحين الشاردة : أحاول أن أتخيل ماسوف يتحدث به إليهم . وخيل إلى أنه أضاع سلسلة من الفرص أتاحت له الاشتراك في الحديث . ولكنه كان صامتاً في غير اكتراث ، جالساً في مكانه لا يتحرك كأنه صنم . ينظر الى الريح تنسج الماء في البرك وتلم الغيوم في السماء في سحابة كثيفة دكساء .

وتتأبب باخرة على النهر وتضاعدت أغاني الصبايا إلينا ، وعزفت الموسيقى ، وهبط الشارع سكير يعربد ويترنخ ويحرك ذراعيه وساقيه حركة آلية . وسكنت أحاديث الفلاحين ، وتمشت فيها الكتابة ، ثم تمطت فأصابتنى بها معها . السماء الباردة تنذر بالمطر وهأنا أتذكر مافى المدينة من ضوضاء لا تنقطع ومافى ضوضائها من تنوع ، ومافى الشوارع من حركة ، ومافى تعليقات الناس من حيوية ، ومافى كلماتهم من غزارة ، تثير الفكر وتدفع إلى البحث .

وجاء المساء ، وكنا نشرب الشاي ، فسألت روماس لم لم يتحدث إلى الفلاحين .

— وعم أتحدث ؟

ثم أصغى إلى وقال :

— آه ، لو تحدثت إليهم هكذا ، وفي الشارع أيضاً ، لعدت إلى الياقوت لاحالة .

وحشا غليونه وأشعله ، وتجلبب بسحابة من الدخان ، وحدثني في هدوء وبكلمات لاتزال راسخة في ذكراى ، عن حذر الفلاح وعدم ثقته ، إنه يخاف نفسه ويخاف جاره ويخاف خاصة من الغريب . إنه لم توهب له حريته إلا منذ ثلاثين عاماً ، وكل فلاح بلغ من العمر أربعين سنة ولد عبداً ويذكر أنه ولد عبداً : ومن العسير أن يدرك ماهى الحرية . يقول له التفكير البسيط : إن الحرية هى الحياة كما تهوى . ولكن هناك في كل مكان سلطات تمنعك هذه الحياة .

القيصر هو الذى أنقذ الفلاحين من الأشراف ، إذن فالقيصر هو الان وحده سيد الفلاحين . ولكن ماهى الحرية مرة أخرى ؟ سيأتى يوم يبين فيه القيصر ماهى هذه الحرية إن الفلاح يؤمن كثيراً بالقيصر ، فهو وحده صاحب الأرض

ومالك ثروتها جميعاً . لقد سلب النبلاء الفلاحين ، وهو قادر على أن يسلب التجار
مراكبهم ومخازنهم .

الفلاح مع القيصر ، وهو يقول لنفسه إن الأسياد إذا كثروا كانوا شراً
وإن من الخير له أن يكون له سيد واحد ، وهو ينتظر ان يفسر له القيصر في
يوم من الأيام معنى هذه الحرية ، وعند ذلك فليذهب كل إنسان بما يستطيع أن
يذهب به . كل إنسان يرجو هذا اليوم ، وكل إنسان يخشاه ، وكل إنسان يعيش في
نفسه آخذاً حذره ؛ المهم عنده أن لا يضيع يوم القسمة العالمية الحاسم . الفلاح يحذر
نفسه ويريد كثيراً من الأشياء والكثير موجود معروض فإذا يصنع ؟ يشحذ
الناس كلهم أنيابهم ويرقب الناس كلهم هذه النهاية . ولكن هنالك حيثاسار واعدداً
لا يحصى من السلطات تناصب الفلاحين وتناصب القيصر العداء ، وهم لا يستطيعون
أن يتخلوا عنها وإلا فإنهم يقتلون ويقتلون .

كانت الريح الغاضبة تسقي الزجاج مطراً ربيعياً سخياً وتمطت في الشارع سحابة
دكناء واصبح كذلك كل مافي قلبي أسود قلقاً . وكان صوت روماس يقول
هادئاً خافئاً مفكراً .

— افهم الفلاح أن عليه أن يزيل سلطة القيصر شيئاً فشيئاً وقل له إن الشعب
له الحق في أن ينتخب من صفوفه كل السلطات . المفوض والحاكم والقيصر .

— ولكن هذا يتطلب مائة عام !

وسألني روماس جاداً :

— أتعظ أنك بالغه قبل عيد الحلول ؟

خرج مساء وسمعت حوالى الساعة الحادية عشر صوت طلق نارى في الشارع ،
وهرعت في الظلام تحت المطر فرأيت شبح ميخائيل أنطوفيتش الكبير الأسود
يسير نحو الباب ويبدأ غير مستعجل ، وهو يتجنب في عناية سيول المياه ويقول :
— ماذا ؟ أنا أطلقت النار .

— على من ؟

— أناس هاجموني يحملون معاولهم ؛ فقللت لهم دعونى وإلا أطلقت النار

فلم يسمعوا قولى ، فأطلقت النار فى السماء ، ولا أظن أنها أضرت بها ...
 ووقف فى الدهايز يخلع ثيابه ، ويهز لحيته المبللة وينفخ كأنه حصان :
 — لقد تمزق خدائى ، ووجب أن أستبدل به غيره . هل نظفت مسدساً بدأ ؟
 — إذا شئت ، وإلا أكله الصدا ، امسحه بالبتروى
 لقد غاظنى هدوءه الذى لا يدرك غوره ، ونظرتة الحلوة الصابرة التى تلمع فى
 عينيه الشهلأوين وقال لى وهو يمشط لحيته أمام المرأة :
 — كن حذرا إذا اجتزت المدينة ، ولا سيما فى أماسى الأعياد ، فسيحاولون
 ضربك ، ومع ذلك فلا تحمل هراوة ، إنك إن تحملها تثرهم فيظنوا أنك خائف : وعليك
 أن لا تخاف . أما هم فكلهم جبنا .



الفصل الحادى عشر

عشت منذ اليوم حياة شائقة حقاً ، يحمل إلى كل يوم فيها مفهوماً جديداً ومهماً ، وأكبت في شره على الكتب التي تبحث في العلوم الطبيعية . وروماس يرشدنى :
— يجب أن تدرس هذا العلم الطبيعى يا مكسيمتش قبل كل علم وأكثـر من كل علم ، فقد وضع العلماء فيه أحسن ما فى العقل البشرى .

وكنت أنا ألقى على إيزوت درساً فى القراءة ثلاث مرات فى الأسبوع . كان بادى ذى بدء غير مطمئن إلى ، ساخراً بي سخريه خفيفة ، ولكنه بعد بضعة دروس قال لى بادى الإخلاص والسرور :

— ما أحسن شرحك ! يجب أن تكون معلماً يا ولدى .

ثم عرض على فجأة هذا العرض :

— إنك لتبدو قوياً ، فهلا لعبنا بالعصا !

وأخذنا عصوين من المطبخ ، وجلسنا على الأرض وقد أسند كل منا قدمه إلى قدمى الآخر ، وحاول كل منا زمناً طويلاً أن يقيم صاحبه . وروماس يحرضنا وهو يبتسم :

— عليك به !

وأقامنى أيزوت ، وكأنا فرج هذا عنه كرتبه ، وخيل إلى أنه أصبح بعد ذلك أقرب إلى وأدنى منى . وقال لى يعزىنى :

— لا بأس ... إنك لقوى . وكـم ساءنى أنك لاتحب الصيد . تعال معى إلى الفولجا تر الجنة : الفولجا والليل .

كان يتعلم فى إخلاص وفى نجاح غير قليل ، وطالما أخذه عجب لنيد ، فهض فجأة فى خلال الدرس ، وتناول كتاباً من الرف ، وتهجى فى جهد سطرين أو ثلاثة أسطر ، وهو يقطب حاجبيه ، وينظر إلى وقد علته حمرة الخجل ،

ويردد وهو مضعوق :

— ولكن ها أنا ذا أقرأ .

ثم يغمض عينيه ويردد :

تنوح على السهل الحزين حمامة * كما ناحت الشكلى رأت خضرة القبر

سألنى مرات خجلاً خافتاً صوته :

— فسر لى ، يا صاحبي ، كيف يمكن أن يكون هذا ؟ إشارات وخطوط صغيرة ، ينظر إليها الإنسان فيجد فيها ألفاظاً وكلمات يعرفها ، هي كلمات حية ، كلمات أنا صاحبها . قل لى وكيف أعرفها ؟ ولم يخبرنى بها أحد . لو كانت صوراً لفهمتها ، ولكنى أجد الأفكار ذاتها مطبوعة ها هنا . ما معنى ذلك ؟ كيف وبماذا أجيب ؟ إن « لا أعرف » تغيظ هذا الرجل كلما سمعها منى .

فيقول وهو يتهد ويتهد وينظر إلى صفحات الكتاب فى النور :

— ذلك هو السحر المبين !

كانت حيويته وانبثاقاته لذيذة مؤثرة ، فيها صفاء طفولة ، ولقد ذكرنى بالفلاح ذى القلب الطيب ، الذى يتحدث عنه الناس فى الكتب . وكان كأكثر الصيادين شاعراً يحب الفولجا ، ويهوى الليالى الصامتة ، ويؤثر الوحدة وحياة التأمل . كان ينظر إلى النجوم ثم يسألنى :

— يقول روماس إن عليها قوماً مثلنا ، فإذا ترى ؟ هل هذا صحيح ؟ ياليتنا نستطيع أن نشير إليهم نسألهم كيف يعيشون ، لعل حياتهم خير من حياتنا ... كان يتيماً لا يملك شبراً من الأرض ولا علاقة له بإنسان فيما يباشر من عمل هادئ . ولقد بدا لى راضياً بعيشته فى قرارة نفسه . ولكنه كان يكره الفلاحين ويجب أن يحذرني منهم .

— لا يغرنك ما ترى من تقربهم منك ومسائرتهم لك . إنهم زائفون منافقون فاحذرهم . هم اليوم ما ترى وغداً غير من رأيت . لا يرى كل منهم إلا نفسه ، أما المصلحة العامة فهى سجن لهم .

ثم تحدث في حقد يندر أن تضمره مثل هذه النفس الحلوة ، عن « الذوات »
و « الأكار » فقال :

— ولم كانوا أغنى من غيرهم ؟ ذلك لأنهم أشد ذكاء . أنظر إلى الفلاحين ، أيها
اللعين ، تجدهم مختلفين متفرقين وقد وجب أن يتحدوا ليكونوا قوة ذات بأس .
ولكنهم ينشقون على أنفسهم في القرية كما تنشق العيدان في الحزمة الواحدة : إنهم
هم أعداء أنفسهم ، أشرار أنذال ، ألا ترى ما يقاسى روماس منهم ؟
كان إيزوت قوياً ، جميلاً ، يعجب النساء أيما إعجاب ، فيتهاين عليه تهافتاً .
قال لى مرحاً :

— نعم أنا من أجل ذلك مقصى مكروه ، إن ذلك يسخط أزواجهن ، والحق
أنى لو حلت محلهم لغضبت . ولكنك لا تستطيع إلا أن تشفق على النساء ، فالمرأة
روح ثانية لك ، هذه الروح لا تجد مرحاً ولا تعرف عاطفة ، فتعمل كالفرس ولا
تجد إلا العمل : أما زوجها فقد شغله عمله عنها ، ولكنى أنا رجل حرطليق . وهناك
كثيرات عرفن غير أزواجهن في السنة الأولى من زواجهن : لقد سلوت بهن ، ثم
لم أسألهن إلا شيئاً واحداً « لا تتنازعن ، فأنا أكيفكن كلكن ، لا تتحاسدن ، فأنا
أحبكن كلكن وأشفق عليكن كلكن » ثم يبتسم إيزوت ويقول في خجل :

— ولقد طوت أيضاً بسيدة ، قدمت القرية في عطلة ، كانت جميلة بيضاء
كاللبن أما شعرها فخير ناعم ، وعيناها زرقاوان ، بعثا سمكاً ثم نظرت إليها
نظرة طويلة فسألتنى :

— مالك ؟

فقلت لها :

— أنت نعرفين ما أريد .

— حسناً سألقاك هذه الليلة فانتظرنى .

ولقد جاءت حقاً . ولكن الذباب كان يلذعها ثم يلذعها فلا تستطيع إلى دفعه
سيلاً . هاهى تكاد تبكى وهى تقول : — ما أقسى لذعها وأشدّه .
وجاء زوجها القاضى في اليوم التالى . . . أرايت إلى السيدات ما أرقهن ؟ إنهن يمنعن
الذباب العيش . . .

وبدا على وجه إيزوت الحزن والملامة
ومدح إيزوت كوكوشكين كثيراً :

— انظر إلى هذا الفلاح . إن له نفساً طيبة . ولكن الناس لا يحبونه ، وهم في ذلك مخطئون ؛ نعم إنه ثرثار ، ولكن لكل حيوان مناعيه .

كان كوكوشكين كذلك لأرض له ، فتزوج عاملة زراعية تسكر دائماً ، ولكنها لبقة ، قوية ، خبيثة ؛ كانا يسكنان الحمامات ، بعد أن أجر كوكوشكين منزله للحداد ، وكان كوكوشكين مولعاً بالأخبار يرويها ، فإذا لم يجد لها مرة ، اخترع أساطير كانت تحوم دائماً حول موضوع واحد لا يتغير :

— أسمعت يامينايل أنطونيفتش ؟ حارس تانكوف يريد أن يكون راهباً ! يزعم أنه لا يريد أن يكون مضطراً ، قياماً بوظيفته ، إلى كسر أصدقاء الفلاحين . فلقد كفاه ما جناه من قبل .

ويحببه روماس في جد :

— كذلك ستزول كل أنواع السلطة من ديارنا !

فيفكر كوكوشكين فيما قال روماس ، وهو يشد شعره الذي اختلط به القش والحشيش والريش :

— لا ، لن تذهب كذلك كلها . ولكن ذوى الوجدان لن يطيقوا الصبر على وظائفهم . أنا أرى يا انطونيفتش أنك لا تثق بالوجدان ، ولكن لاسيلاً إلى الحياة بلا وجدان ، ومهما كان المرء ذكياً اسمع ماجرى ...
ثم قص حكاية صاحبة أملاك « لم ير أذكى منها » فقال :

— لقد كانت خبيثة خبيثاً دفع الحاكم نفسه ، رغم سمو منزلته ، إلى زيارتهما في بيتها ثم قال لها :

— كفى ياسيدتى . فقد باغت أنباء قسوتك بترسبرج !

أما هي فقد سقته الخمر وقالت له :

— اذهب في سلام ، فلن أستطيع تبديل طبعي .

ومضت سنوات ثلاث ثم مضت بعدها بضعة أشهر ، فإذا بها تجمع نخأة

فلاحيا: — خذوا أرضي كلها ، وداعاً ومغفرة... أما أنا فأريد أن أدخل
وقال روماس :

— الدير

ونظر إليه كوكوشكين في انتباه ثم قال :

— نعم رئيسة دير ، وهل سمعت أنت بهذا النبأ ؟

— كلا ، أبداً ...

— ولكن كيف عرفته؟

— لأنني أعرفك !

وتتم اللعوب العايب ، وهو يحرك رأسه : — يالك من رجل جاحد .

كانت أقاصيصه كلها كما سمعت ؛ أشخاصه كلهم يملون القسوة ثم يحتفون فلا
يتركون وراءهم أثراً ، وكان كوكوشكين يبعث بهم في غالب الأحيان إلى الدير ، كما
ترسل القطع المعدنية إلى المصنع لتستبدل ...

ولكم خطرت في باله أفكار غريبة غير متوقعة فتراه — إذا جاءت — قطب
وجهه وصرخ :

— لقد أخطأنا حين هزمنا التتر وغلبناهم ، فهم خير منا

وكان الحديث يدور آتئذ حول إنشاء جمعية لمزارعي الخضار ، ولم يجر ذكر
التتر ، على لسان إنسان .

وحدث مرة أخرى أن كان روماس يتحدث عن سببيري وفلاحيا الأغنياء ،
فإذا بكوكوشكين يتمتم مفكراً :

— لو ترك الناس صيد السمك إلا بالغى سنتين أو ثلاث سنوات لتكاثر ثم
تكاثر ثم طغى البحر على الشاطئ ، وحدث الطوفان ، ما أكبر هذا السمك !

أما القرية فكانت تعتبر كوكوشكين امراً تافهاً . كانت قصصه وأفكاره غريبة
تزعج الفلاحين وتبعث إهاناتهم وسخرياتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يصغون دائماً
إليه في انتباه واهتمام ، كأنهم يرجون أن يصلوا إلى الحقيقة من خلال هذه

الإختراعات . وإيكم رآه ذوو الوقار من الرجال ثم قالوا :

— يالك من طاحون كلام .

أما بانكوف الظريف فكان يقول وحده :

— أما استيفان فصاحب الغاز ورموز .

كان كوكوشكين عاملاً ماهراً جداً ، يعرف صنع البراميل ، ويبني الأفران . ويربي النحل ويعلم النساء تربية الدواجن وينقش الخشب في مهارة . كان ماهراً في كل مايعانى رغم أنه كان يشتغل في بطة وفي غير رغبة . كان يحب القطط ويربي في الحمامات عشرة منها « فقط » ولم تكن هى وحدها بل كان معها أولادها . وكان يطعمها الطيور والعصافير ، وقد زادت في حقد الفلاحين عليه ، تلك العادة التى عودها قططه ، وهى أن تأكل الدواجن ، فكانت تأكل الدجاج والأفراخ فتطاردوها النساء ويضربنها ضرباً مبرحاً ، ثم يجتمعن عنده ، ناقيات صاخبات ، ولم يكن ليزججه صراخهن ولم يكن ليزيد على قوله لهن :

— اسكنن يا غيبات ، ألا تعرفن أن القط حيوان صياد ، وأنه هو خير من الكلب ؟ أنا أريد أن أعلمها الصيد فى الحقول دون الكلاب ، أصغين إلى أعرض عليكن مشروعى سنربى مئات من القطط ، وسنكون نحن وحدنا تجارها ولن تعود عليكن هذه التجارة إلا بالربح ، أيتها الغيبات ...

كان يعرف القراءة ولكنه نسىها ولم يفعل شيئاً ليتذكرها ، وكان ذكياً بالفطرة وكان أول من يفهم مغزى قصص روماس ، فيقول وقد تغضن وجهه كالطفل إذا تجرع جرعة من دواء مر :

— نعم ، نعم إذن فلم يكن إيفان المرعب عدواً للشعب

وكان هو وإيزوت وبانكوف يزوروننا فى المساء ويمكنون حتى ينتصف الليل ، يصغون إلى روماس يتحدث إليهم عن تنظيم العالم ، وعن الحياة فى الدول الأخرى . وعن ثورات الشعب وكانت الثورة الفرنسية ترضى بانكوف خاصة فيقول :

— إنها انقلاب حقيقى فى الحياة !

ويقولها مؤيداً موافقاً ...

صفي بانكوف حساباته مع أبيه منذ سنين ، وكان أبوه فلاحاً ناتيء الحنجرة ، غائر العينين ، إلى درجة مخيفة ، وأحب بانكوف ثم تزوج يتيمة هي ابنة أخي إيزوت ، وكان يعاملها معاملة قاسية . ولكنه يكسوها كما تكسئ سيدات المدينة . وقد لعنه أبوه لعقوقه ، وكان إذا مر ببنت ابنه الجديد بصق على الأرض بصقة ناقة . وقد أجر بانكوف بيتاً من بيوته إلى روماس وبني إلى جانبه دكاناً ، رغم اعتراض أثرياء القرية ، الذين كرهوه من أجل ذلك . أما هو فكان يعاملهم في غير اكرام ، ويتحدث عنهم في قرف ، ويخاطبهم في لهجة عنيفة ساخرة ، وقد كانت حياة القرية ترهقه ، وطالما ردد قوله :

— لو أن لي مهنة هاجرت إلى المدينة .

كان كثير النظام ، دائم نظافة الثياب ، وقور المجلس ، كثير الكرامة ، شديد الحذر ، قليل الثقة بالناس .

قال لروماس ذات مرة :

— قل لي ، أتقوم بهذا المشروع رغبة فيه وتذوقاً له أم لأمر ورأه أنت تخفيه ؟

— وأنت ماذا ترى ؟

— كلا ، قل أنت .

— ولكن أيهما خير عندك ؟

— لا أدري ، وعندك ؟

وكان الأوكراني عنيداً فأنتهى إلى إلقاء الفلاح إلى أن يكون أول معترف :

— حقاً ، إنه لمن الخير أن نعمل من أجل هدف ، ولكننا لا نبلغ بلا مال ،

فيذا نحن استطعنا جمعه شد إزرننا في مشروعاتنا . القلب مستشار غير مؤتمن . ولو اتبعت قلبي لالتقي الأرزاء ، من كل جانب ولأشعلت النار في بيت القسيس ، لأعلمه كيف يتدخل فيما لا يعنيه .

والحق أن القسيس ، وهو شيخ خبيث ، له أنف خلد أرهق بانكوف بتدخله في نزاعه مع أبيه .

عاملني بانكوف بادئ الأمر في غير رضا ، وربما في سخط ، وحدثني حديث

ديارى

السيد ، ولكنه بدل سريعاً موقفه هذا منى ، وشعرت أن لا يزال فى قلبه شيئاً من عدم الثقة بى ، وكان هو أيضاً لا يرضى إلا قليلاً .

لا تزال ذكرى ليالىنا التى قضيناها فى الغرفة النظيفة ، ذات الحيطان الخشبية ، حية قوية ، هذه ستائر النوافذ مسدلة ، وهذا مصباح يلتب فى زاوية على منضدة ، وقد جلس وراءها رجل على الجهة ، كبير اللحية ، قصير الشعر ، يتكلم فى هدوء ويقول :
— بعد الإنسان شيئاً فشيئاً عن الحيوان ، هذا هو جوهر الحياة ومغزاها .

وقد أصغى إليه ثلاثة من الفلاحين ، وعيونهم كلها جميلة ، ووجوههم كلها ذكية ، أما إيزوت فجالس لا يتحرك أبداً ، لكأنه يسترق السمع إلى صوت بعيد ، هو وحده يسمعه ، وأما كوكوشكين فيضطرب ويتحرك ويختلج كأنما الذباب يلذعه لا يفتقر عن لذعه ، وأما بانكوف فيتأمل متمتماً فى صوت خافت وهو يقتل شاربيه :
— إذن فقد كان طبيعياً أن ينقسم الشعب إلى طبقات .

لم يكن بانكوف يخاطب كوكوشكين أبداً خطاب العنيف به ، رغم أنه كان فى خدمته ، وكان يصغى إلى اختراعات هذا الحالم العجيبة — شدماسرنى هذا وأسلانى : كنت إذا انتهى الحديث ، أذهب إلى مستودعى ، فأجلس عند النافذة المفتوحة . أنظر إلى القرية النائمة ، وأطلع هنالك إلى الحقول وقد خيم عليها صمت لا تزججه نائمة . وأحرق فى الشهب تهوى وتخرق القتام ، وهى تباعد عنى كلما اقتربت من الأرض .

وهكذا يعصر الصمت قلبى عصراً شديداً ، فنتشر وتنطلق أفكارى فى الفضاء اللامحدود ، وأرى ألوفاً من القرى تستلق على ظهر الأرض كما تستلق قرينتا هذه ، فى هدوء وسكون .

لفنى الضباب برطوبته ، وشد على روحى بألوف من شرايين لا أراها ، وشعرت بقلق يداعبنى ثم يستولى على شيئاً فشيئاً . أنا صغير دقيق فوق الأرض ... وظهرت لى الحياة فى القرية كئيبه لا سرور فيها ، ولكم سمعت أن هذه الحياة القروية أكثر عافية ، وأكثر صدقاً من الحياة فى المدينة ، وها أنا ذا أرى الآن هؤلاء

الفلاحين ينهمكون في جهد لا ينقطع ولا يفتر ، هو جهد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، ها أنا ذا أرى فيهم كثير آمن تهدمت أجسامهم ، هدمها الجهد والإرهاق ، أو حرماها المرح والنشاط . نعم إن صناعات المدينة وعمالها ليسوا أقل عملاً ، ولكنهم يعيشون عيشة أكثر سروراً ، وهم لا يرهقونك بمثل ما يرهقك به هؤلاء الناس المتشائمون . ولم تبد لي حياة الفلاح بسيطة أيضاً ، فهي تتطلب انتباهاً دائماً للأرض ، وكثيراً من الحيلة في علاقات الناس بالناس ، وهي أيضاً ليست أكثر صدقاً ، ولقد خيل إلي أن كل الفلاحين يعيشون في حذر دائم ، كالعميان حين يمشون ، وأنهم دائماً يخافون شيئاً من الأشياء ، وأنهم أبداً لا يثق بعضهم ببعض . إن فيهم لذنباً .

لم أفهم قط لماذا كانوا يصرون على كره روماس وبانكوف وكل أولئك الذين يزوروننا ، كل هؤلاء الذين يريدون الحياة كما أمر بها العقل . وظهرت لي هنا مزايا المدينة في وضوح وفقيها ظمناً دائماً إلى السعادة ، وتطلع دائم إلى الفهم ، وتنوع شائق في الأهداف والأعمال . وطالما تذكرت في مثل هذه الليالي هذه اللوحة : « ف . كالوجين وز . نبي ، خيران في الساعات ، يقومون أيضاً بإصلاح كل أنواع الآلات ، وأدوات الجراحة وآلات الخياطة ، وعلب الموسيقى من كل الأجناس الخ ... »

كانت هذه اللوحة معلقة فوق باب ضيق ، لدكان صغيرة ، فيها نافذتان مخبرتان ، جلس عند إحدهما كالوجين ، وهو رجل أصلع ، أصفر الصلعة منظاره على عينه ، ووجهه مستدير وقوي ، يبتسم دائماً ، وهو يبحث بكاشة رقيقة بالساعات ، وكان يغني دائماً فإذا لم يغن فتح فاه المدور تحت فرشاة شاريه البيضاء . وجلس عند الثانية « ز . نبي » أسود الشعر أشعثه ، معقوف الأنف ، كبير العينين كأنهما منشوران ، دقيق العنثون ، كان جافاً قاسياً كالشيطان ، وكان هو أيضاً يصلح ويبدل الأشياء الدقيقة الصغيرة ، ويصرخ بين حين وحين فجأة في صوت جهورى :

— ترا — تا ، تن ، تن

وتترام وراء ظهر الساعات فوضى من الصناديق والآلات والإطارات والأدوات

والكرات الأرضية ، وعلى الرفوف كثير من الأدوات المعدنية ، من كل نوع ، وعلى الحيطان يتحرك عدد كبير من الرقاصات ، كنت أحب أن أقضى يومى كله ، أنظر إلى هذين العاملين ، ولكن جسمى الطويل كان يحجب عنهما النور فيسخران بى كثيراً ، ويحركان أذرعهما ، ثم يطردانى فأمضى ، وأنا أقول فى حسد وحرقة :

— ما أسعد من يصنع ما يشاء !

احترمت هذين الساعاتين ، وتصورت أنهما يعرفان كل مافى هذه الآلات والأدوات من أسرار ، وأنهما يصنعان كل شئ فى العالم ، ويصلحان كل شئ فى العالم . أولئك هم الرجال .

أما القرية فلم أرضها ، ولم أفهم فلاحيها ، فالنساء شاقيات « يطق دائماً شئ ما فى قلوبهن » أو « يقبض على صدورهن » و « بطونهن دائماً مريضة » . كن يتحدثن دائماً عن ذلك فى سرور ، وخاصة إذا جلسن أيام الأعياد ، أمام منازلهن على ضفاف الفولجا . وكن يغضبن فى سهولة ثم يتشائمن فى غيظ ، وربما ثار النزاع بين ثلاث عائلات ، من أجل إبريق مكسور لا يسوى أكثر من اثني عشر كوبكاً ، فتكسرت ذراع عجوز ، والنشقت جمجمة صبي . ولم يكد يخلو أسبوع من مثل هذه المعارك والملاحم .

وكان الشباب يلاحقون الفتيات فى دعر صريح ، ويعبثون بهن فى وقاحة ، ويمسكونهن فى الحقول ، ثم يرفعن أذيالهن ، ويعقدونها فوق رؤوسهن ، عقداً وثيقاً ، بحبال من لحاء الأشجار ؛ يسمون ذلك « تحويل الفتاة إلى زهرة » وكانت الفتيات العاريات من أقدامهن إلى خصورهن ، يتملصن ويشتمن ، وقد قيل لى إن هذه اللعبة تسرهن ، والذي أعرفه أنا أنهن كن يحللن عقدة أثوابهن فى بطة لو أردن لأنقصن منه .

وفى الكنيسة ، خلال المواعظ ، كانوا يقرصون أعجاز البنات ، ولولا ذلك لهجروا الكنيسة فى الغالب ، وكم خطب فيهم القسيس فقال :

— يا خبشاء ! هلا جربتم خبثكم فى غير بيوت الله !

قال لي روماس :- في أوكراينا تجد الروح الشعرية أوفر نصيباً في دين الشعب ، أما هنا فالإيمان بالله لا يخفى وراءه إلا أحط غرائز الخوف والملق . إن الناس هنا لا يحبون الله حق الحب ، ولا يتحمسون لجماله وقوته حق الحماسة . وعندى أن ذلك خير لهم ، فهم يستطيعون أن يتحرروا في سهولة من الدين ، وهو في رأي أشد الأحكام السابقة عرقلة لسير الحياة .

وكان الناس هنا كثيرى الجمعجة ولكنهم جبناء ، وقد حاولوا مرتين أو ثلاثة ، عندما صادقتهم في الطريق أن يضربوني ، فلم يستطيعوا إلا مرة واحدة ، أصبت فيها بعضاً على غنذى ولم أخبر روماس طبعاً بهذه الدعابات ، ولكنه لاحظ عرجى وفهم ما حدث فقال :

— إيه ، إيه إذن فقد وصلتك الهدية . ألم أخبرك ؟

ونصح إلى أن لا أتنزه في الليل ، ولكنى كنت أحياناً أخترق البساتين إلى ضفة الفولجا ، وأجلس في ظل الصفصافات ، أنظر إلى أكلة الليل الشفافة ، وإلى النهر ، ثم إلى المروج النائمة على ضفته الثانية ، كان مجرى الفولجا البطيء الذى ترسم ألوانه أشعة الشمس التى لا تراها ، والتى يعكسها القمر علينا ، عظيماً حقاً . أنا لا أحب القمر ، ففيه شئ حزين ، يوحى إلى ، كما يوحى إلى الكلب ، الكتابة والرغبة في العواء عواء مزعجاً . وكنت سعيداً جداً سعيداً عندما علمت أن هذا القمر لا يضىء لنا بنوره الخاص ، وأنه عالم ميت لا يمكن أن تجد فيه حياة ما . وكنت من قبل أتخيله ، وقد سكنته أناس من نحاس ، أجسادهم مثثة ، يمشون مشى المثلثات الخشبية ، ويفكرون تفكير الأجراس في الأعياد ، وأن كل شئ فيه من نحاس ، الزرع والحيوان ، وأنها كلها ترن لا تفتر عن الرنين ، وأنها كلها كارهة للأرض ، تريد بها الشر . ولكم كان لذيذاً عندى أن أعرف أيضاً أنه قابع في السماء في زاوية فارغة من زواياها ، ومع ذلك فقد كنت أحب أن يسقط على هذا القمر شهاب يصدمه ، فلعل قوة احتكاكه به تكفى لاشعاله ، ولعله ينير الأرض مرة واحدة بنوره الشخصى ، مرة واحدة على الأقل ...

رأيت النور على الفولجا يضطرب في عصب ملونة ، والنهر يولد هناك في مكان

ما بين الظلمات ، ثم يترعرع ثم يخفى في ظلال الشاطئ ، ورأيت فكري يزداد حركة ووضوحاً . وهكذا في مثل هذه الليالي يفكر الإنسان في أشياء بعيدة عن حياته اليومية ، في أشياء لا تعبر عنها الألفاظ .

كان الماء يجري أخرس صامتاً ، وهناك على صدره المظلم ، جرى مركب كالعصفور المارد ، له ريش من نار ، يمشى ويترك وراءه رفيف أجنحته الثقيلة ، وعلى الشاطئ الذى كسته المروج ينتشر شعاع صغير على الماء أحمر دقيقاً . ذلك صياد يصيد على ضوء المصباح ، فتخاله نجمة سقطت من السماء على النهر ، فاستحالت إلى زهرة من نار ، تتنزه فوق الماء في كبر وخيلاء .

وهكذا يستحيل ما يقرأه الإنسان في الكتب إلى أحلام غريبة ، وأوهام عجيبة ، ينسج لها الخيال دون كل ولا ملل ، لوحات ذات جمال لا يضارعه جمال ، ويخيل إلى الإنسان فيها أنه يسبح في لجة الليل الهادى هناك وراء لجة الماء . وكنت ألقى إيزوت ، فأراه في الليل أكبر منه في النهار وأرضى . يسألنى وهو يجلس إلى جانبي :

— ها أنت هنا ؛ ثم يبقى زمناً طويلاً صامتاً ، متمركزاً على نفسه ، يتأمل النهر والسماء ويداعب الحرير الناعم في لحيته المذهبة . ثم يحلم ...

— إذا غدوت مثقفاً ، وإذا قرأت كثيراً ، فسأركب الأنهار كلها ، وسأفهم كل شيء ، ثم أعلم الناس . نعم ، نعم ، لا بأس أن تقاسم قلبك آخر مثلك ، يا صاحبي . سأجد أيضاً بعض النساء اللواتي يفهمنى إذا حدثتهن حديث الروح . لقد كانت ، منذ أمد غير بعيد ، في زورقي هذا ، واحدة ؛ منهن فسألتنى :

— ماذا نغدو إذا متنا ؟ أنا لا أعتقد ، كما قالت ، بجهنم ولا بالآخرة .

أرأيت ؟ هن أيضاً يا صاحبي ...

ولم يجد الكلمة فسكت ثم أضاف :

— أرواح حية .

كان إيزوت إنساناً سوداوياً . كان يحس الجمال ويعرف كيف يتحدث عنه ، في كلمات هادئة يهذى بها طفل حالم . كان يؤمن بالله كما تراه الكنيسة ، ولسكنه

كان لا يخافه، وكان يتصوره كهلاً جليلاً محترماً قيوماً على الكون عاقلاً طيباً ولكنه لا يستطيع أن ينتصر على الشر لانه، كما يقول: « لا يقدر عليه، فقد تكاثرت الناس كثيراً، ولكن هون عليك، فسيقضى عليه يوماً ما، وسترى. أما المسيح فهو وحده الذى لا يستطيع فهمه أبداً. إنه لا يسمن ولا يغنى من جوع. أفهمت؟ هنالك إله قلنا: — قبلنا، قالوا: وها هو إله آخر. وهو ابنه، وماذا يجديننا لو كان ابنه مادام الإله حياً لم يموت؟ »

ولكن إيزوت كان يبقى جالساً فى أغلب الأحيان صامتاً مفكراً، يردد من حين إلى حين وهو يتنهد:

— أ رأيت؟ ...

— ماذا؟

— لا شئ! أنا أحدث نفسى.

ثم يعود، فيتنهد مرة أخرى، وهو ينظر إلى البعيد المضطرب:

— ما أجمل الحياة!

وأجيبه

— نعم، ما أجملها!

كان الماء يجرى قوياً قاهراً، وقد ارتسمت على صفحته الحجر الفضية، وبرقت فيها النجوم الكبيرة، كأنها قبرات من ذهب، وغابت الأفكار فى سر الحياة غناء رقيقاً، لا يسمعه الا القلب.

— الشمس ما أروعها. وابتسم إيزوت ابتسام السعيد القلق.

هاهى أشجار التفاح، زاهرة زاهية، والقرية يكسوها ثلج مورد ذو رائحة مرة، تتغلغل فى كل شئ، وتتحقق رائحة القطران والدخان. ومئات من الأشجار المنورة تمشى صفوفها منتظمة، من بيوت القرية إلى الحقول، وقد زينت بغلائل مودة. وفى الليالى القمرى كانت الفراشات إذا هزها النسيم وشوشت وشوشة غير مفهومة، وكانت القرية مكسوة بغيوم ثقيلة، ذات زرقة ذهبية، وفى النهار كانت البلابل تشدو هائجة غير متعبة، تتنازع، وكانت القبرات، من حيث لا تراها

تسكب على الأرض ، دون انقطاع ، هتافاتها المتصاعدة .
وفي أماسى الأعياد كانت الفتيات والفتيان يتنزهون في الشارع يعنون ،
وأفواههم فاغرة كأنها مناقير العصافير عليها بسمة عصبية مريضة . وكان إيزوت
يبتسم فيها أيضاً ، ابتسام رجل مخمور ، فقد غدا نحىلا ، وغاصت عيناه في حجرهما
القائمين ، وأصبح وجهه أكثر رصانة وجمالا ، كأنه وجه قديس . وأصبح ينام
أياماً كاملة ، ولا يبدو في الشارع إلا عند المساء ؛ كان مشغولاً مفكراً تفكيراً
حلوأ . وكان كوكوشكين يمازحه في رشاقة وحب ، أما إيزوت فيقول وعلى ثغره
ابتسامة مرتبكة :

— اسكت . ليس لى عمل يشغلنى . ثم يشور فيقول :
— أوه ، الحياة حلوة ، وحبنا يزيدنا حلاوة وجمالا ، رب كلمة تبلغ
القلب . رب كلمة لا ننساها ما بقينا أحياء غير أموات ، فإذ امتنا ثم بعثنا ، كانت هى أول
ما تذكره من هذا العالم .

وقال له روماس ذات مرة وهو يبتسم رفيقا حنوناً :
— الحذر الحذر ، فالأزواج يتربصون بك ليقتلوك .
فأجابه إيزوت

— إن يفعلوا فقد أنضجت جلودهم غيظاً .

لم تكذب تحلو ليلة ، فى الساعة التى يزقزق فيها العصفور ، من صوت ميجون ،
ينشر فى البساتين والحقول على شاطئ النهر ، عالياً مضطرباً ، ينشد فى فن مدهش
أغانى جميلة أ كسبته وحدها رضا الفلاحين .

فإذا حل مساء السبت اجتمع حول الدكان نفرين دأدون شيئاً فشيئاً ، منهم
بارينوف والعجوز سوسلوف ، والحداد كروتوف ، أما ميجون فلم يرغب عنها
مرة . وكانوا إذا اجتمعوا جلسوا ينظر بعضهم إلى بعض مفكرين ، ثم قام من
قام ، وقدم من قدم ، حتى إذا انتصف الليل تفرقوا ، وربما قامت النزاعات بينهم
ولاسيما إذا حضر الجندى كوستين ، وكان أعور لم يبق له فى يسراه إلا ثلاث

اصابع . وكانت أكامه مهترئه يهز فيها قبضته ، ويقترب من الدكان ، في كبرياء
ديك من ديك القتال ويصرخ في جهد بصوت صخرى :

— أيها الأوكرايون ! يا أبناء الشعب القذر ! أيها الملاحدة ! لماذا لاتذهب
الى الكنيسة ، قل ، أجب ، ياسليل الهراطقة يازارع الفتنة أجب من أنت ؟
وكانوا يهزؤون به :

— ميشكا ، لماذا قطعوا لك إصبعين من أصابعك ؟ ألم يملك الترك فزعا
ورعبا ؟

ويهمج عليهم فيقبضون عليه من ذراعه ويدفعون به دفعا إلى المستنقع
ضاحكين صارخين ، ويتدحرج فيه المسكين كما يتدحرج الخروف وهو يصرخ
صراخا مخيفاً :

— النجدة ! النجدة : قتلت .

ثم يخرج ، وقد غطاه الغبار ، ويرجو روماس أن يدفع له مايشتري به فودكا .

— وعلام أدفع لك وقد كان منك ما كان ؟

— ولاكنى أضحككم !

وينفجر الفلاحون جميعاً ضاحكين .



الفصل الثانى عشر

فى صباح يوم من أيام العيد ، أشعلت الطاهية النار فى الموقد ، ثم خرجت
وكننت فى الخانوت ، فسمعت فجأة زفرة هائلة فى المطبخ ، اهتز لها الخانوت ،
وسقطت الأواني من الرفوف ، وتحرك الزجاج ، وزلزلت الأرض ، فهرعت
إلى المطبخ وإذا بغيوم سود تنفذ من الباب ، ومن خلفها شىء يدوى وينفجر .
أمسك روماس بى ثم قال :

— اسكت !

وجاءت الطاهية ، تصرخ فى الدهليز ، فنادها أن كنى يا غبية ، ثم مضى إلى
المطبخ فغاب عنا بين الدخان وسمعناه يحرك شيئاً . ثم يشتم ويصرخ :

— كنى ... كنى ... هاتوا ماء .

كان الدخان ما يزال ينتشر من الأخشاب فى أرض المطبخ ، وفيها واحدة
ما تزال تشتعل ، وهناك أجرات متناثرة ، وفم الموقد نظيف كانه كنس كنساً .
وعثرت وأنا أتقرى يمدى فى الدخان ، على سطل ماء فاطفأت النار وأعدت
الأخشاب إلى الموقد . وأمسك روماس بالخادم يحركها جراً ويقول لها :

— هونى عليك ولا تجزعى !

ثم أغلق عليها باب الغرفة وقال :

— أغلق باب الدكان يا مكسيم . قف فقد يحدث انفجار آخر !

ثم انحنى فأخرج الأخشاب من الموقد ، وتحراها واحدة واحدة ؛ ومد إلى
واحدة منها كنت ألقيتها فيما ألقيت ثم قال :

— انظر !

ونظرت إليها ، فوجدت فيها ثقباً غريباً يتصاعد منه الدخان ، وروماس يقول لى .

— أفهمت ؟ لقد حشا الأبالسة هذه الأخشاب باروداً ، ولكنهم أغبياء ،

فما يكفى رطل من البارود لنسف منزل .

ثم ألقى بالحشبة جانباً ، وغسل يده وهو يقول .
— لو لم تخرج إكسينيا لأصابها شر عظيم .

تقشع الدخان الأسود ورأينا على الأرض صحافاً متكسرة ، ورأينا ألواح الزجاج في النوافذ محطمة كلها تحطيماً ، ووجدنا آجرات اقتلعها الانفجار من الموقد .
غازطنى هدوء روماس في هذه اللحظة وسأنى ؛ فقد كان يتحدث عن الاختراع الأحمق وكأنه لا يثيره ولا يتعلق به في كثير أو قليل .

تراكض الأولاد في الشارع وهم يصرخون .. النار ... النار عند الأوكرانى ،
النار .. وصرخت امرأة رددت صراخها إكسينيا . — يحاولون الدخول إلى
الدكان ، يامىخائيل أنطونيفتش .

وقال روماس وهو يمسح لحيته المبللة يمينه :
— صبراً ! صبراً .

وأطلت علينا من نوافذ الغرفة وجوه فاعرة أفواهها ، أحالها الخوف والغضب ،
حجرة أعينها غيرها الدخان ، وسمعنا منادياً ينادى :

— اطروده من القرية ... فى كل يوم له حادثة ، وما معنى ذلك يارب ؟
وجاء فلاح أشقر يصلب ويحرك شفقيه ، ويحاول أن يتسلق النافذة ، فلا
يستطيع ، وفى يمينه فأس ، فسأله روماس ، وقد أمسك بيده خشبة :
— إلى أين ؟
— إلى النار ...

— هون عليك فقد أطفأناها ...

ففر الفلاح فاه رعباً وهلعاً ، ثم اختفى وراء الناس وخرج روماس فوقف
على درج المخزن وأشار إلى الحشبة وقال يخاطب الجوع المحتشدة :

— لقد حشا أحدكم هذه الخطبة باروداً ، ثم دسها فى حطبنا ، ولكن البارود
كان قليلاً . ووقفت وراء الأوكرانى أنظر إلى الناس ، وسمعت الفلاح ذا الفأس
يقول فى صوت خافت :
— ماله يتوعدنى ؟

وصرخ كوستين الجندى وكان ثملاً .

— يجب علينا أن نطرده ... أن نحاكمه ... شيطان لعين .

أما سائر الناس فكلنوا صامتين ساكنين ينظرون إلى روماس خائفين ،
ويستمعون إليه قلقين .

وقال روماس :

إن نصف بيت واحد يتطلب عشرين رطلاً من البارود... عودوا إلى بيوتكم .

وسأل واحد من جاره :

— أين العمدة ؟

وقال آخر :

— أرى أن نستدعى الشرطة .

ثم مضوا كلهم غير عجلين كأنما هم يأسفون على شيء ...

جلسنا نشرب الشاي ، وإكسينا ، أحسن وألطف ما تكون ، تنظر إلى روماس
في عطف وحنان وتقول :

— مالك لا تشكوهم ولا تقيم عليهم دعوى ؟ إنهم يعرفون منك ذلك ، فهم
لذلك يصرون على العبث بك .

وسأله :

— ألسنت غاضباً ؟

قال :

— كلا ، ليس لي من الزمن ما يوسع غضبي لو أردت أن أغضب لكل حماقة .

وفكرت في نفسي قائلاً : لو أن الناس قاموا بواجبهم في مثل هذا الهدوء!

أما هو فقد كان يتحدث عن رحلته القادمة إلى قازان ويسألني عن الكتب

التي أريد .

خيل إلى أن في هذا الرجل شيئاً من الساعة ، وأنه استبدل بالروح لولباً

أداره مرة واحدة وكفى ليبقى دائراً ما بقيت الحياة تحتلج في عروقه . لقد أحببت

الأوكراني واحترمه واحتراماً جماً . ولطالما تمنيت أن أراه غاضباً على أو على غيري

مرة واحدة ، صار خائياً أو بغيرى مرة واحدة ، ضارباً برجله الأرض مرة واحدة ، ولكنى لم أظفر بشيء من ذلك كله . لقد كان غير قادر على الغضب ، أو راغباً عنه إذا فرضنا أنه كان قادراً عليه . كان إذا هزته حماقة أو حقارة ، غمز بعينه الشهلأوين ، ساخراً هازئاً ثم همس كلمات حاسمة باردة قاطعة .

وهكذا كان شأنه حين سأل سوسلوف :

— أخبرنى لم تفعل ما لا يرضاه ضميرك وأنت شيخ كبير ؟

واحمرت وجنتا العجوز واحمرت جبهته الصفراء ، وخيل إلى أيضاً أن لحيته البيضاء قد احمرت إلى أقصى جذورها .

— ثم إن ذلك لا يجديك ولا ينفعك ، ولكنه ، على العكس ، يذهب باحترام الناس لك . فأطرق سوسلوف برأسه وقال :

— صدقت . ثم قال :

— يا له من قائد يقتاد النفوس . يا ليت رجال الحكم فينا ، يختارون لنا من أمثاله ! ذكر لى روماس ما يجب أن أقوم به فى غيبته ، وخيل إلى أنه نسى الانفجار الذى قصد فيه إلى إرهابه كما ينسى المرء لذعة ذبابة من الذباب .

جاء بانكوف ففحص الموقد وسألنا قلقاً :

— ألم تخافوا !

— ولم ؟

— هذه هى الحرب .

— اجلس واشرب الشاي .

— زوجى فى انتظارى .

— وأين كنت ؟

— فى الصيد مع إيزوت .

ومضى وهو يردد هم المطبخ مرة أخرى فى تفكير :

— هذه هى الحرب .

كان حديثه مع روماس حاسماً قاطعاً دائماً ، كما أنما حدثه سلفاً منذ زمن بعيد

عن كل شيء ، عن كل ما هو مهم عسير .
كان الأوكراني يوماً يحدثنا عن عهد إيفان المرعب فقال إيزوت :
— هذا قيصر مزعج .

وقال كو كو شكين : — جزار .

وقال بانكوف جازماً :

— أرى أنه لم يكن ذكياً حقاً . نعم إنه غلب الأمراء ، ولكنه زاد عدد
النبلاء الصغار ، ثم لم يكفه ذلك لجاء بشعب أجنبي ، وذلك عمل لا يدل على ذكاء
قط . إن السيد الصغير أشد خبثاً من السيد الكبير ، ألم تر أن الذبابة ليست ذئباً ،
وأنها لا تقتلها البندقية ، ومع ذلك فهي أشد إزعاجاً لك من الذئب .
وجاء كو كو شكين حاملاً سطلا من الطين فوضع الأجرات في مكانها من
الموقد ، وهو يقول :

— ماذا اخترع هؤلاء الشياطين ؟ إنهم لا يستطيعون الخلاص من
القمل الذي يأكلهم . ولكنهم تحت تصرفك إذا أرادوا خراب إنسان . إذا ذهب
يا أنطونيتش إلى المدينة فلا تأت دفعة واحدة بكل ما تريد من بضاعة ، بل وزعها
على دفعات ، فقد يشعلون النار في بيتك ، وما دمت تريد أن « تمشي » هذا الحادث
فتقرب حوادث أشد منه خبثاً وتعساً .

ساء هذا الحادث القبعات الكبيرة في القرية ، ولكن الأوكراني يعاونه
بانكوف وسوسلوف واثنان أو ثلاثة آخرون من الأذكىاء ، قد استغله أحسن
استغلال ، فأصبح كبار الملاكين يعاملون روماس في إيناس وعطف ، وزاد
زبائن الدكان زيادة محسوسة ، حتى إن بعض الفلاحين « الصالحين للأشياء » مثل
بارينوف بذلوا أقصى ما يستطيعون لمساعدة الأوكراني .

أحببت ميجون حباً جماً ، وأحببت أغانيه الحزينة ، كان إذا غنى أغمض عينيهِ
وهدأت رعشات وجهه الحزين الخائف ، كان يسهر الليالي القائمة فإذا غاب القمر
وغطى السماء حجاب كثيف من الغيوم ، ناداني في رفق :

— تعال نذهب إلى الفولجا .

ونمضى فيجلس إلى جانب زورق، وساقاه القائمتان تهتزان في الماء القاتم،
ويداه تلقيان بالشبكة في الماء لصيد نوع من السمك كان محرماً ممنوعاً، وفه يتم
— لو سخر بي سيد لاحتملته، فذلك أمر قد يطاق، ثم ليعضه الكلب، إنه
شخصية من الشخصيات، ثم هو يعلم ما لا أعلم. أما أن يسيء إلى إنسان مثلي،
فلاح، فذلك ما لا سبيل إلى احتماله، وكيف أحتمله؟ وما الفرق بيني وبينه؟ أظن
أنه إن اشترى هو بروبلا، اشتريت أنا بكوبكات. ذلك كل ما بيننا من فروق.
كان وجهه ميجون شديد الثقلص دائم الرجفان والرعدة في ألم وخوف،
كثير اهتزاز الحاجبين، سريع حركة الأصابع، إذا عقد أو حل شباكه، وطالما
رن صوته الحنون رقيقاً في ظلمة الليل.

— يخالني الناس سارقاً، وهذا صحيح، فقد حدث ذلك لي، ولكن
الناس جميعاً يعيشون على السرقة، يأكل بعضهم بعضاً، ولسنا أحياء الله ولكننا
أولياء الشيطان وأجباؤه.

والنهر الأسود يجرى والغيوم القائمة تجرى، والشاطئ يكاد يحجبه الظلام،
والأمواج تدغدغ الرمل ناعمة، وتبلى رؤوسها قدمي، تريد أن تجرني معها إلى
ما هنالك من ظلمات لا تنتهي أو تنتهي حيث لا أدري. وميجون يتنهد قائلاً:
— ألا ترى أن علينا أن نعيش سعداء؟

وهناك في أعلى التل كلب يعوى عواء خفيفاً، وأنا أسمعهما كليهما وأفكر كأني في حلم:
— ولم يعيش أمثالك من الناس؟

والهدوء يظلل النهر، وتظلمه معه ظلمة الكون ورهبته، ظلمة حارة لا تعرف
الحدود. وميجون لا يزال يتمتم:

— سيقتلون الأوكرائي، وقد يقتلونك أنت أيضاً.

ثم يغمض عينيه، ويغنى في صوت هادئ:

أمي حنون رؤوم تقول لي في حنان
عش يا عزيزي وروحي في عزة وأمان

وينطلق صوته عالياً قوياً أكثر ما يكون الصوت قوة، حزيناً أشد ما يكون

الصوت حزناً ، وأصابه تحل الشبكة ، ثم يبطل الصوت الذى ينشد :

لم أصغ يوماً لأمى فعثت فى خسران

واستبدت بي شعور غريب ، وخيل إلى أن الأرض ومن عليها قد ابتلعتهم حركة هذا السائل القاتم الثقيل ، ثم غاصت بهم ؛ وأنى أيضاً منحدر ثم منحدر فى هذا القتام الذى غرقت فيه الشمس إلى الأبد

وسكت ميجون فجأة كما غنى فجأة ، ثم جر المركب فى صمت إلى الماء ، واختفى فى الظلام وأتبعته نظرى ، وأنا ما أزال أطرح على نفسى هذا السؤال :

— ولم يعيش أمثالك من الناس ؟

وصديق لى آخر يدعى بارينوف ، كان مجموعة من فوضى وكسل وتهالك وغيبة ، وكان متشرداً لا يقرر له قرار . عاش حيناً فى موسكو فكان إذا تحدث عنها تحدث وهو يئس :

— تلك مدينة من جهنم . حيص ييىص ، أما كنائسها فأربعة عشر ألفاً ، وست كنائس أيضاً وأماسكانها فكلهم نشالون يأكلهم الحسد والغيرة كما يأكلان الخيل ، هناك الباعة والجنود والبرجوازيون تراهم كلهم يمشون وهم يتدافعون بالمناكب ، نعم إن فيها « القيصر — المدفع » ، وهو سلاح عظيم ، صهر حديد و فولاذ بطرس الأكبر نفسه ، ليرد عادية الناقمين الذين ألتهم عليه امرأة نبيلة أشعلت نيران الثورة لأنها تحبه .

لقد عاشا معاً سبع سنين ، ثم هجرها هى وأطفالها ، فغضبت عليه ونشبت الثورة ، أما هو فلم يقف مكتوف اليدين . بم بم . المدفع يدوى ويخمد الثورة ، وهذا المدفع حصد بقديفة واحدة تسعة آلاف وثلاثمائة وثمانين نسمة ، ولقد هال هذا العدد القيصر نفسه وأخافه ، كلا ، إنه قال للمتروبوليت فبلاريت يجب أن نصلب هذه المرأة الحقيمة حتى نجعلها نكالا للناس . ولقد صلبوها حقاً .

قلت له إن هذه كلها أحاديث خرافة ، ومجموعة من الحماقات فغضب وقال :

— يا إلهى . ياسيدى . ما أخبتك وأخبت أخلاقك ، أنتكر ذلك وقد قص

على هذه القصة رجل عالم ؟ وأنت

ولقد قام « بزيارة القديسين » في كيف وقص علينا أخبارها :
 — أما هذه المدينة فتقع على رابية مثل قرينتا ، ويحترقها نهر نسيت اسمه ،
 ولكنه ساقية صغيرة إذا قيس بالفولجا . وهي مدينة معقدة عسيرة تتلاقى فيها
 الشوارع ثم يمضى كل منها في سبيله ، وأهلها أوكرانيون ، ولكنهم ليسوا من
 جنس ميخائيل أنطونوف ، نصفهم بولونيون ونصفهم تتر . وهم قدرون يأكلون
 الضفادع ، ولكن ضفادعهم كبيرة تنال الواحدة منها ستة أرطال . وهم يركبون
 البقر ، ويستخدمونها حتى في الفلاحة ، وبقرهم عجيب ، فأصغر بقرة عندهم أكبر
 من أربع بقرات كبيرة عندنا ، وزنها ثلاثة وثمانون قنطاراً . وفي كيف سبعة
 وخمسون ألف راهب ومئتان وثلاثة وسبعون أسقفاً ما أغرب طبعك !
 أتناقش ما لا سبيل إلى مناقشته ؟ وكيف ، وقد رأيت ذلك بعيني رأسي ؟ أما أنت
 فهل ذهبت إليها أو مررت بها ؟ كلا ! إذن لماذا هذه الفصاحة ؟ أنا يا صاحبي
 أعشق الوضوح وأهوى البيان قبل كل شيء .

كان يحب الأرقام فعلته الضرب والجمع ، ولكنه كان يكره التقسيم . كان
 يضرب الأرقام في حماسة ، ويرتكب الأخطاء في شجاعة ، ويخط على الرمل بعصاه
 قائمة طويلة من الأرقام ينظر إليها مصعوقاً ، فاغراً فاه ، مقلباً عينيه كالطفل ،
 وهو يصيح :

— هذا رقم لا أستطيع التلفظ به .

كان ضعيف البنية ، متضائلاً ، متنافراً ، ومع ذلك فقد كان وجهه يكاد يكون
 جميلاً ، وقد أحاطت به لحية خفيفة متنافرة الشعرات ، وفي عينيه الزرقاوين لاحت
 ابتسامة طفل ، وكان يشبه كوكوشكين ومن أجل ذلك كانا يتنافران .

ورأى بارينوف بحر الخزر مرتين ، وصاد فيه ، وهو ما يزال قبلة أحلامه :

— البحر يا صاحبي ليس كمثل شيء وأنت أمامه ذبابة ، إذا نظرت

إليه فكأنك غير موجود . الحياة فيه حلوة سعيدة . وفيه من كل نوع من البشر :
 فيه قسيس يشتغل هو أيضاً ، وفيه كذلك طاهية هي خليعة النائب العام ، وماذا
 تريد أكثر من هذا ؟ ومع ذلك فلم تستطع الطاهية على النائب صبراً ، أنت أيها

النائب المحترم ظريف حقاً ، ولكن ... الوداع ... إن من رأى البحر ولو مرة واحدة فقد ملك عليه لبه أبد الدهر... هنالك تجد السعة التي لا تحيط بها إلا السماء . سأعود إليه أنا أيضاً إلى الأبد ، أنا لا أحب الناس ؛ هكذا خلقت ، ولقد كان على أن أكون راهباً في الصحراء ؛ ولكني ، وبالأأسف ، لا أعرف أين تكون هذه الصحراء الطيبة .

كان يمر حياته في القرية كالكلب الشريد ، يحتقره كل الناس ، ولكنهم يصغون إلى قصصه إصغاء لا يضارعه إلا إصغائهم إلى أغاني ميجون ، ويقول بعضهم لبعض :

— كلها كذب ، ولكنها لذينة ...

كانت خيالاته تشوش أحياناً أفكار أكثر الناس رصانة مثل بانكوف ، فقد سأل روماس مرة حذراً :

— يرى بارينوف أن الكتب لا تذكر حياة إيفان المرعب كلها ، وأن فيها أموراً كثيرة تخفيها عنا ، يظهر أنه كان ساحراً ، فقد كان يتحول إلى نسر ، ولذلك أصبحت النسور تضرب على العملة إكراماً له وإشارة إليه .

لاحظت أن الغريب الشاذ ، حتى ولو كان ظاهر الخلل ، يرضى الناس أكثر مما ترضيهم القصص الجدية عن الحياة الحقيقية الواقعية ، وذكرت ذلك لروماس فأجابني وهو يبتسم :

— سيحول ذلك . لو تعلم الناس كيف يفكرون لوصلوا إلى الحقيقة . أما هؤلاء ، الذين هم نسيج وحدهم ، من أمثال بارينوف وكوكوشكين فيجب أن نفهم أنفسهم ودخائلهم . ألا ترى أنهم فنانون خياليون ؟ ولقد كان المسيح ولا شك من هذا النوع ، نسيج وحده ، ولنقرر أنه جاء بأمور لم تكن كثيرة الشر

عجبت وحق لي أن أعجب ، كيف لا يذكر هؤلاء الناس الله إلا قليلاً ، وكيف إذا ذكروه لم يذكره إلا في غير الاكتراث . وكان الشيخ سوسلوف وحده يقول غالباً ، وهو جد مؤمن موقن :

— كل بأمر الله .

كان حديثه دائماً حديث اليأس المستسلم .

لقد سرني حقاً عيشي بين هؤلاء الناس ، وكنت إذا خلونا للحديث في الليل ، تعلبت منهم أشياء كثيرة ، ولطالما خيل إلي أن كل كلمة من كلمات روماس تنبت كما تنبت شجرة كبيرة ، تمد جذورها في قلب الحياة وأن هذه الجذور ، في أعماقها ، تختلط بجذور شجرة أخرى مثلها موغلة في طيات القرون ، وأن على كل غصن من أغصان هذه الشجرة كما من أكام الزهر يفوح بالأفكار ، ونبعاً رائعاً تنبجس منه كلمات قوية داوية . وكنت أشعر بما يحدث في من تطور ، وأشتار كالنحل العسل الشهي من الكتب ، وأتحدث في ثقة تزداد يوماً بعد يوم وتتضح ، وكم هنأني روماس ، وعلى ثغره ابتسامة خفيفة :

— إنك لتتقدم تقدماً مطرداً طيباً ياكسيمتش .

ولكم كنت شاكراً له هذه الكلمات .

كان بانكوف يزورنا هو وامراته أحياناً ، وهي امرأة صغيرة الجسم ، قصيرة الوجه ، زرقاء العينين ذكيتهما ، كانت تلبس ثياب المدينيات ، وتجلس متحفظة ، في زاوية من الزوايا ، وقد أطبقت شفيتها في تواضع ، فإذا تحدثنا فتحت الدهشة فاهها ، ووسع الخوف عينيها ، فإذا سمعت تعبيراً مثيراً ضحكت في حياء ، وستررت وجهها بكفيها ، وبانكوف يغمز روماس ويسر إليه :

— أراها فهمت !

وربما زار روماس زوار مترقبون حذرون ، يصعدون إلى عنبري ، ويمكثون فيه ساعات طويلة ، وتصعد إليهم إكسينا بشرابهم وطعامهم ، وينامون في مكانهم لا يبرحونه ، ولا يراهم أحد إلا أنا وإكسينا وكانت مخلصاً لروماس ، إخلاص الكلب لصاحبه ، تكاد تعبده .

فإذا أظلم الليل ذهب بهم إيزوت وبانكوف إلى زورق ينقلهم إلى مركب يمر، أو إلى مرفأ لو بيشكي .

وكنت أرى من أعلى الراية هذا الزورق يجري على النهر الذي صبغه الظلام بالسواد ، أو طلاه القمر بالفضة ، وقد ترنح عليه نور مصباح ، يرشد ربان

المركب إليه ، كنت أتأمل هذا كله ، وأشعر أنى مشترك حقاً فى مشروع سرى جليل .

هذه ماريّا دورانكوفا تزورنا فى قرينتا؛ ولكن مالى لأجد فى نظراتها ما كنت أجد من قبل فى قلقلتى ويهيجنى ؟ بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأنظر إلى عينيها ؛ إنها عينا فتاة سعيدة ، لأنها تعرف أنها جميلة ، مغتبطة لأنها ترى رجلاً ذا لحيّة يغازلها ، وهذا رومانس يتحدث إليها ، كما يتحدث إلى سائر الناس هادئاً كثير الهدوء ساخراً خفيف السخرية ، ولكنه يكثّر من العبث بلحيته ، ولكن فى عينيّه نظرات هى أكثر حرارة ، بل هى أكثر قلقاً . وقد رن فى أذنيه صوت ماريّا الصغير الملون فرحاً مسروراً ، وبدت أمامه فى ثوب أزرق وعلى شعرها الأشقر عصاة زرقاء ، ويداها الطفلتان تبجحان عن شىء تستقران عليه أو تعبثان به ، وهى تغنى فلا تبين ، وتفتح فاهما ، وتلّس وجهها المورد بمنديلها لمساً ؛ إن فيها شيئاً يوحى إلى قلقاً جديداً يغيظنى ويثير غضبى ، وكنت أحاول أن لأراها ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ...



الفصل الثالث عشر

فى أواسط أيلول (سبتمبر) اختفى إيزوت. وقيل إنه غرق، ثم تحققت هذه الشائعة، فقد وجد زورقه طافياً، مكسر الجوانب، فوق الشاطئ المنخفض على بعد سبعة أميال من شاطئ القرية. واقترض الناس فى الحادث أن إيزوت نام وهو فى الزورق فقذف به النهر على راسيات المراكب الثلاثة فخطمته، وتبعده هذه الراسيات خمسة أميال من قريتنا.

كان روماس غائباً عنا فى قازان حين وقعت هذه الحادثة. وجاءه كوكوشكين مساء إلى فى الدكان، فجلس حزيناً على الأكياش وظل هكذا صامتاً ينظر إلى قدميه، ثم سأل وهو يشعل سيجارته:

— متى يعود الأوكرانى؟

— لأدرى.

ومسح وجهه المدمى بيده مسحاً عنيفاً، وهو يلعن ويشتم فى صوت خافت، وينخر كأنه ابتلع عظماً عرضاً فوقف فى لهاته لا يتجاوزها.

— مالك؟

نظر إلى وهو يعض شفتيه، وعيناه حمراوان، وفكاه يرتجفان، ورأيت أنه لا يستطيع أن يتكلم، فانتظرتة قلقاً، لأدرى ما أضع، وأخيراً نظر إلى الشارع نظرة فاحص، ثم قال وهو يجهد نفسه فى صوت أجش ملجلج:

— ذهبنا إلى هناك مع ميجون. وفحصنا الزورق... زورق إيزوت. لقد اخترقت أرضه ضربة فأس. أفهمت؟ إذن فقد قتل. نعم لقد قتل إيزوت شكاً... لقد قتلوه...

ثم مال برأسه، وشاد قصرأ من الشتائم الخفيفة، وهو ينشج نشيجاً جافاً حاداً ثم سكت وصاب.

إنك لن تطيق مهما أطق ، رؤية هذا الفلاح ، وهو يريد أن يبكي ، فلا يستطيع ، ويريد أن ينتحب ، فلا يعرف إلى ذلك سبيلا ، فيهتز كله عضواً عضواً وينفخ كالقدر غضباً وحرناً . ثم يقف فجأة ويمضى يهز رأسه .

عشر الأولاد في اليوم التالي على جثة إيزوت ، وهم يسبحون ، تحت مركب مكسور عند الشاطئ قبل القرية ، غاص نصفه في الرمل وطفأ نصفه في الماء ، وتمددت عند ساريتة جثة إيزوت الكبيرة ، وقد كسرت جميعتها ، وفرغت وحمل الماء نحها معه فقد قتل الصياد من خلفه ، وبدا أنفه كأنما قصمته ضربه فأس .

وكان التيار يهز إيزوت ، فتخبط قدماه على السد وتتحرك ذراعاها في الماء لكأن هذا الصياد يجمع قواه وبحشدها ليلبغ الشاطئ حتى بعد أن مات . وتجمع على الشاطئ عشرون فلاحاً غنياً أو يزيدون وقد بدت عليهم الكآبة والأسى ، وكان الفقراء من الفلاحين لايزالون في الحقول ، ووقف العمدة بينهم خائفاً يترقب ، ويحرك عصاه . حركة رجل مشغول حزبه أمر خطير ، وكان ينفخ ، ويمسح أنفه بكم قميصه المعصر .

ورأيت هناك كوزمين ، وهو تاجر ثرى ، وكان يحقق بي مرة وبكو كوشكين أخرى ، وقد ألقى بطنه أمامه ، وفرج بين قدميه . وهو يحك حاجبيه حكاً خيفاً ، وخيل إلى أن عينيه اللتين ليس فيهما لون تغرورقان بالدمع وظهر لى وجهه المجذور أهلاً للرافة به ، حرياً بالإشفاق عليه

ونادى العمدة ، وهو يضرب فخذه العبلتين :

— يالاهول ... لقد أسأتم صنعاً أيها الناس .

وكان كمنته . وهى صبية هيفاء ، تجلس على صخرة وتنظر إلى الماء نظرة طائشة ، وتصاب بيد مرتعشه ، وكان فيها يحتاج ، وشفقتها السفلى حمراء منتفخة تبدل تدلياً مزعجاً كأنها شفة كلب ، ومن وراء شفقتها أسنان عنزة صفر .

وانثالت القتيات والفتيان من كل صوب كبتلا ملونة ، وتراكم الفلاحون شعشأ غبراً ، وكان كل منهم يردد فى حذر وفى خرس :

— ياله من ألد ذى خصام .

— وفيم كان خصامه ؟

— قتل الإنسان جريمة شنعاء .

— لقد عاش إيزوت في هدوء وسلام .

صرخ كوكوشكين ، وهو يهجم على الفلاحين :

— نعم في سلام ، إذن فلماذا قتلتموه أيها الأوغاد ؟ قولوا لماذا ؟

وانفجرت امرأة فجأة بضحكة هسترية ، أصابت الجمهور كأنها ضربة سوط ،

فصرخ الفلاحون وتدافعوا وتشتاموا ونفخوا ، ومضى كوكوشكين إلى كوزمين التاجر فاطمه لطمه هائلة :

— خذها إليك أيها الحيوان !

ثم مرق من الجمهور وهو يحرك ذراعيه وهتف بي كأنه فرح مسرور :

— تعال فستضارب . *فستضارب*

ولكنه كان قد ضرب ، فسال الدم من شفته الممزقة ، ولكن وجهه كان يفيض سروراً .

— أرايت أية لطمه نالها كوزمين ؟

وهرع بارينوف إلينا ، وهو خائف يترقب الجمع المحتشد عند المركب ، وكان

صوت العمدة المجدور يصل إلينا :

— كلا ، بلغه أنى أتركه إكراما لغيره .

وتمتم بارينوف وهو يتوقل التل :

— يجب أن أمضى من هاهنا .

كان المساء حاراً ثقيلاً راكد الهواء ، وكان عسيراً علينا أن نتنفس ،

وتحدرت الشمس حمراء قانية بين الغيوم الزرق الكشيفة ، وسطعت أشعتها منعكسة

على أوراق الأشجار والقصب ودوى الرعد في مكان ما من السماء .

وتطلعت فرأيت أمامي جثة إيزوت تهتز ، ورأيت شعره فوق بقايا جمجمته ،

وقد جرفه التيار في طريقه ، فبدا كأنه قف رعباً وهلعاً .

تذكرت صوته الجهورى وكلماته الحلوة ، وهو يقول :

— في كل رجل جانب من الطفل . وعلى هذا الجانب الطفل فيه يجب أن
نعتمد . أنظر إلى الأوكرائي ، إنك تخاله قد قد من حديد ، ومع ذلك فليست
نفسه إلا نفس طفل .

وقال كوكوشكين وهو يمشي إلى جانبي غاضباً :

— سيفعلون بنا مثلها رأيت . ما أكثر هذا الخرق ! يارب...

عاد الأوكرائي بعد يومين ، في الليل ، مسروراً أكثر ما كان قط سروراً
ومرحاً ، فتحت له الباب فربت على كتفي وقال :

— مالك لا تنال حاجتك من النوم يامكسيمتش ؟

— قتلوا إيزوت !

— ماذا ؟

انتفخت أوداجه وارتجفت لحيته ، كأنها تستلقي على صدره ، ووقف منتصباً
في وسط الغرفة وقبعته مازال فوق رأسه ، وعيناه تكادان تغتمضان ، ثم حرك
رأسه :

— قتلوه ! ألم يعرف قاتله ؟

واقترب من النافذة بطيئاً ، وجلس ثم مد ساقيه :

— لقد أذرتة . وهل عرفت الحكومة ؟

— نعم ، جاء المفوض .

— ثم ماذا ؟ وأجاب هو نفسه على سؤاله :

— لا شيء طبعاً .

وقلت له إن المفوض نزل على عادته عند كوزمين ، وإنه قد أرهق كوكوشكين
من أمره عسراً ، لأنه ضرب التاجر .

— أجل ، أجل ، لا شيء .

ذهبت إلى المطبخ أعد السامور ، وقال روماس وهو يشرب الشاي :

— إني لأرثي هؤلاء الناس ، فهم يقتلون خيرهم لهم ، إنهم يخشونهم ويخافون
منهم إنهم يقولون : ليس هذا في سبيل بيوتنا ولا من أجل عائلتنا .

كنت في طريقى إلى سيبيريا نجتاز مرحلة مرحلة ، فخذتني أحد المعتقلين فقال إنه كان رئيس عصاة ، فيها خمسة لصوص وبينناهم كذلك ذات يوم ، صرح أحد رجال العصاة إلى أصدقائه فقال : كفانا سرقة أيها الأصدقاء . إن السرقة لن تنفعنا ، ونحن الآن غير سعداء ... وهم من أجل ذلك خنقوه ، خنقوه بعد أن سكر ونام . وقد أطرى المنفى القليل إطراء طويلا ، لقد قتلت ثلاثة بعده ، فلم أندم أبداً على شيء أما هو فقد ندمت على قتله ، لقد كان لى رفيقاً ذكياً ، صالحاً مرحاً ، كان نفساً صافية نقية . وسألته : إذن فلماذا قتلتموه؟ أ كنتم تخشون أن يشى بكم ويسلمكم .

ورمقى السجين بنظرته وقال :

— كلا ، فلو أعطى الدنيا وما فيها ليشى بنا ماوشى ، ولكنه هو الصديق ، لم يكن كما ينبغي أن يكون الصديق ، لقد كنا جميعاً مجرمين وكان هو وحده فاضلا . إن فضيلته لا يمكن أن نغفرها له ؛ إنها هى وحدها ذنبه .

ونهض الأوكراني يزرع الأرض جيئة وذهوباً ، ويداه وراء ظهره ، وغايونه بين أسنانه ، وكل مافيه أبيض ؛ كان يضرب الأرض بقدميه العاريتين ضرباً شديداً ، كأنه يريد أن يخرق الأرض خرقاً ، كان يتحدث فى لهجة عذبة متأملة كأنما يحدث نفسه :

— لقد اصطدمت كثيراً بهذا الخوف من الفضيلة ومن العدل ، وبذلك الهرب والتخلص من الناس الأشراف . إن الناس ليعاملونهم إحدى معاملتين : إبادة بكل الوسائل بعد الإرهاق والتعذيب ، أو نظرة إليهم محذقين كما تنظر الكلاب إلى صاحبها ، فاتحة صدورهما طائعة . وهذا قليل نادر . أما أن يتعاملوا منهم كيف يجب أن يعيشوا ، وأما أن يتسموا خطاهم ، فذلك مالا يستطيعونه وما لا يعرفونه . أتراهم أيضاً لا يريدونه ؟ ولا يرغبون فيه ؟ ثم شرب كأس شاي باردة ومضى قائلاً :

— قد لا يريدونه ، ففكر إذن فى أسباب ذلك ! لقد أجهد هؤلاء الناس أنفسهم فنظموا نطماً من أنماط الحياة ألفوه واعتادوه ، ولكن ها هو ذا ثائر يشور :

— أيها الناس ! إن حياتكم بأئسة بأئسة هي حقاً ؟ ولكننا أنفقنا عليها ،
أو على هذا النمط منها ، كل ما لدينا من قوى ، وبذلنا في سبيلها أحسن ما عندنا
من نشاط كلا ولتخسف بك الأرض أو لتتخطفك الجن قتهوى بك في مكان
سحيق خذ خذ ، إليك أنت أيها السيد إليك أنت أيها العادل
إليك أنت أيها الفاضل ... ثم دعنا هادئين وادعين ولكن الحق والعدل في
قول الذين قالوا : « إن حياتكم بأئسة » . الحق لا يزال رغم كل ذلك فيما يقولون .
إنهم هم الذين يدفعوننا دفعاً إلى حياة فيها هناء وفيها سعادة .

ثم أشار إلى المكتب على الرف :

— آه أيتها المكتب يا ليتني أستطيع أن أكتب كتاباً أضمه إليك . ولكني
لا أستطيع ؛ إن أفكاري ثقيلة ناقصة .

وجلس على المنضدة وأسند رأسه إلى كفيه :

— آه ! وأسفا عليك يا إيزوت

وقال بعد صمت طويل :

— هيا بنا إلى النوم

مضيت إلى غرفتي ، وجلست قرب النافذة . كان البرق فوق الحقول يغمر
نصف السماء ، وكان القمر يرتجف خائفاً كلما غمرت الأرض البروق ، وكانت
الكلاب تعوى في جهد ولولا عواؤها لظننت نفسك في بلد ميت ، وكان الرعد
يدوى من بعيد والنافذة تيسج جريان تيار ثقيل من الحرارة الخائقة .

أمامي جثة إيزوت متمددة على السد ، تحت القصب والحشيش ، وأمامي
وجه الأزرق يتطلع إلى السماء ، وأمامي عيناها الزجاجيتان تنظران إليها قاسيتين ،
وأمامي ذقنه المحددة تخفي فيه الذي فتحته الدهشة .

— المهم عندي يا ماكسيمتش أن تكون النفس طيبة رقيقة أنا أحب
الفصح لأنه أعذب الأعياد

هذا ، وأمامي سرواله الأزرق جففته الشمس المحرقة ، فالتصق بساقيه
الزرقاوين وقد غسلتهما مياه الفولجا غسلاً كاملاً . والذباب يطن فوق وجهه ، وجثته

تبعث رائحة كريهة قاتلة .

هذه أقدام تصعد السلم وهذا روماس ، وقد تقوس ظهره ، يدخل ويجلس

على سريري يقضم ذقنه بيده :

— أتدرى ؟ سأتزوج ! نعم ، سأتزوج .

ونظر إلى نظرة ثابتة كأنه ينتظما أقول ، ولكنى لم أكن ممن يستطيعون

أن يقولوا شيئاً ، وكانت أنوار البرق تملأ الغرفة بلون خرافى من مصنع الأوهام .

— سأتزوج ماشا دورانكوفاً .

وابتسمت مرغماً ، ولم يكن قط خطر فى بالى أن ممن الممكن أن تسمى هذه

الفتاة ماشا . ذلك شئ يسلى ويضحك . أنا لا أذكر أن أباهاً أو أخوتها دعوها

ماشاً . وأنا ، هل من الممكن أن أنادى قط امرأة باسم غزلى مصغر ؟

— ولماذا تضحك ؟

— هكذا ...

— أظن أنى أكبر منها ؟

— كلا !

— قالت لى إنك كنت لها عاشقاً .

— أظن أن نعم .

— وهل تقضى ذلك اليوم ؟

— نعم على ما أظن .

وترك لحيته ثم قال فى رفق :

— يظن الشباب فى مثل هذه السن أنه غالباً عاشق ؛ أما فى مثل سنى فلا يظن

المرء ذلك ظناً ، فالحب يملك عليك نفسك كلها ، ولا يدع لك سبيلاً إلى تفكير

أنت غير قادر عليه . وأظهر أسنانه القوية وتابع فى سخرية خفيفة :

— لقد أضاع أنطونيو معركة أكتيوم ضد أوكتاف لأنه ترك أسطوله

وقيادته ، ليلحق بسفينة كليوباترة ، حين خافت وهربت من المعركة ، هذا ما كان .

ونفض روماس ونصب ظهره وردد كالمحكوم عليه ، أو كالذى يفعل ما

لا يريد :

— وأخيراً سأتزوج

— أعن قريب ؟

— فى الحريف عندما ينتهى موسم التفاح .

ومضى لاوياً رأسه تحت الباب الواطئ أكثر مما ينبغى . استلقيت مرة أخرى لأنام . خيل إلى أن من الخير لى أن أغادر مكانى هنا فى الحريف . لماذا يتحدث عن أنطونيو ؟ إن هذا ليزعجنى .

وبدأت بواكير موسم التفاح ، وكان الموسم طيباً ، وأغصان الأشجار تنوء بأثمارها وتغلغلت رائحة النسرین العاطرة ، فعمت البساتین التى انتشر فيها الأطفال صاخبين ، يلتقطون الأثمار الیانة ، والتفاح الأحمر والأصفر ، الذى تلقیه الريح .

عادر وماس فى أوائل تشرين الثانى (نوفمبر) من قازان ، فى مركب مثقل بالبضاعة ومركب آخر ملىء أكياساً ، وكان ذلك يوم الأحد ، الساعة الثامنة صباحاً ، وبعد أن غیر ملابسه واغتسل وتبیا لیشرب الشاى قال لى فى فرح :

— ما أجمل الإبحار فى الليل !

وجأة تنفس وشم ، ثم سأل فى قلق : — ألتشم رائحة دخان ؟

ودوت فى الوقت نفسه ، فى الباحة ، صرخة إكسينيا — النار ... النار ...

أسرعنا إلى الباحة ، فرأينا حائط العنبر يحترق من جانب البستان ، وكنا قد أودعنا فى العنبر البترول ، والزيت والقطران ، ورأينا فى لحظات ألسنة النار الصفرة وقد تلاعبت بألوانها أشعة الشمس تلمس فى عنف الحائط ، وتضرب السقف وحملت إكسينيا سطل ماء ، فألقاه روماس على الحائط الملتهب ثم قال :

— لیکن ماهو کائن ، اخرج البرمیل یامکسیمتش واذهبى أنت إلى الخانوت یا إكسينيا . ودحرجت فى سرعة برمیل القطران إلى الباحة ثم إلى الشارع وأمسكت ببرمیل البترول ولسكنى لاحظت أن غطاء مفتوح وأن البترول یجرى على الأرض ، وینما كنت أحاول البحث عن غطاءه لم تنتظرنى النار ، فاخرقت الحائط وقعقع السقف وصفر شئ من الأشياء صغيراً ساخراً .

ورأيت ، وأنا أدرج البرمیل ، النساء والأطفال یصرخون فى الشارع .

وأخرج روماس واكسينا البضاعة من الدكان وألقوها في حفرة المستنقع بينما وقفت امرأة بيضاء الشعر ، سوداء الثياب ، في الشارع تنادى — آه أيها الابالسة وعدت مرة أخرى إلى العنبر ، فوجدته وقد أفعمه دخان كثير ، وانفجارات وفرقات ، وتدلّت من سقفه عمام أرجوانية وهي تنز واستحال الحائط إلى شعلة حادة كالجر .

واستطعت ، وقد خنقني الدخان وأعباني ، أن أخرج بعد لاي برميلا آخر إلى باب المستودع ، وتمكن في موضعه هناك ، فلم يرد أن يتزحزح ، وهبطت على من السقف شرارات أحرقت جلدي واستنجدت فهرع إلى الاوكراني . وقبض على يدي ، ودفعني إلى الباحة .

— هيا أنقذ نفسك ، سينفجر العنبر .

واندفع في الدهليز فتبعته ، ثم صعدت إلى غرفتي وكان لي فيها كتب كثيرة فألقيتها من النافذة ، وأردت أن ألقى صندوقاً من القبعات ، ولكن النافذة كانت ضيقة ، فحاولت خلع مسامير الصندوق بوزنة صغيرة ، ولكن شيئاً زعق زعقة صماء واضطرب السقف ، وعرفت أن برميل البترول قد انفجر ، ثم رأيت السقف الذي فوق ، يشتعل أيضاً ويتر ، وتدحرجت موجة شقراء من النار أمام النافذة ، وشعرت بحرارة لا تطاق ، وهرعت إلى الدرج ، فصعدت إلى لقائي غيوم كشيعة من الدخان . وانسابت فئات من الأفاعي الحمر على درجات السلم ، وسمعت أزيزاً في الدهليز ، كأن أسناناً من الحديد تقضم عيداناً من الخشب... فقدت صوابي ، وأعماني الدخان وخنقني وبقيت بضعة ثوان لانهاية لها لا أتحرك ، وأطل على ، من أعلى الدرج ، شفق أصفر ذو لحية شقراء إطلالة خجلى ، فاشتعل السقف ، وأحسست أن شعري يتقلص وينكش وأنى لأسمع إلا نسيسه . وشعرت أنى هالك وثقلت ساقى وأوجعتانى ، رغم أنى غطيتهما بيدي ، ولم أدر كيف هدتنى غريزة حفظ البقاء الحكيمة إلى طريق الخلاص الوحيدة ، فأمسكت بكلمات ذراعى فراشي ووسادتي ، ولفقت رأسى بفروة روماس ، وكانت من جلد خروف ، وقفزت

من النافذة ، وعدت إلى رشدى ، وأنا على ضفة المستنقع ، وقد مال على روماس يسألنى — ماذا بك ؟ فهضت فرأيت بيتنا يذوب ويسـتـحيل إلى كومة من الجرات الحبر والألسنة الساطعة أمامه تلف الأرض السوداء والنوافذ تنفث دخاناً أسود ، وعلى السطح تنبت أزهار صفر تتأرجح وتميس .

وصرخ الأوكرانى : — ماذا بك ؟

كانت تسيل على وجهه الغارق بالعرق والهباب أدمع قدرة ، وعيناه خائفتان تتفتحان وتتقبضان ، وذقنه المبللة خالطتها نثرات من الهباب الأسود .

لقد غمرتنى موجة ندية من الفرح واستبدى شعور واسع جد واسع ، قوى كثير القوة ، ثم شعرت فى ساقى اليسرى بألم حاد فاستلقيت ، وقلت للأوكرانى : — لقد كسرت ساقى .

وضرب لى على ساقى ، ثم جذبها فجأه ، فصعقنى ألم حاد ، ثم وجدتني بعد ذلك بلحظات أحمل إلى حماماتنا ، وأنا أعرج ، وقد سكرت فرحاً ، ما أنقذناه من متاعنا وروماس يقول مسروراً ، وغليونه بين أسنانه :

— تأ كدت أنك مخمق لا محالة حين انفجر برميل البترول ، وسال على سقف غرفتك ، فقد شبت النار فى عمود عال ، وثبتت فى السماء مظلة كأنها مظلة من الفطر كبيرة ، ثم غاص البيت كله فجأة فى النار وقلت لنفسى : — ضاع ما كسيت . وقد كان هادئاً كعادته فرتب متاعه ، فى عناية ، وقالى لأكسينيا :

— انتظرى هنا واسهرى ، لا يسرق أحد شيئاً . سأذهب لإطفاء النار .

وتطايرت قطع من الورق الأبيض فى الدخان فوق المستنقع فقال روماس :

— آه يا كسبى المسكينة ، التى أحب !

كانت النار تشتعل فى أربع بيوت مجاورة رغم أن الهواء كان ساكناً ، وتذهب ذات اليمين وذات الشمال ، فى غير سرعة ، وتمد أظفارها اللينة كأنها آسفة خجلى ، إلى سياج البيوت وإلى سقوفها ، وكأن مشطاً من نار يكتسح القش على السطوح وكأن أصابع من نار تعبث بالسياجات ، كما تعبث الأصابع بأوتار العود ، وفى الهواء ترن معزوفة سوداء حادة ، يوقعها الالهيب ، ويرافقه بها الحشـب وهو يقطع

رفيقاً رفيقاً كأنه عاشق يتغزل وهو يذوب وهطلت من غيوم الدخان على الشارع وعلى الباحة ، شعل مذهبة كالشهب .

وكان الفلاحون والفلاحات يروحون ويغدون عبثاً ، وكنت لا تسمع إلا صرخة لا تنقطع :

— الماء ... الماء ...

كان الماء بعيداً في الفولجا ، جمع روماس الفلاحين في سرعة ، يقبض على أكتافهم ويدفعهم ، ثم قسمهم قسمين وأمرهم بهدم السياجات ، وما يتصل بمركز الحريق من الجانبين ، وأطاعوه راضين وبدؤوا يقاومون في نظام أرقى اندفاع النار التي تريد أن تكتسح الشارع كله . ومع ذلك فقد كان الناس يعملون في غير شجاعة ، وفي غير أمل ، كأن هذا العمل لا يهمهم أبداً .

كنت طروباً ، شاعراً أنني أقوى ما كنت قط ، ولا حظت في طرف الشارع ، جماعة صغيرة من الأغنياء ، على رأسهم العمدة وكوزمين ، مكثوا هنالك نظارة يرقبون ولا يقومون بأى عمل ، وكانوا يصرخون ، ويحركون عصيهم وأيديهم ، ووصل من الحقول فلاحون يمتطون الجياد ، فاستقبلتهم النساء صارخات واستقبلهم الأطفال راكضين مهرولين .

واتصلت النار ببית آخر فوجب هدم حائط الاصطبل ، وهو أعمدة كبيرة توجتها عمائم من اللهب وبدأ الفلاحون يلقون بالأخشاب ولكن الشرر والفحم انهارا عليهم فتراجعوا مسرعين ، يطفئون بأيديهم قمصانهم وهى تحترق . وناداهم الأوكراني أن لا تخافوا ، ولكن نداه ذهب سدى ، فنزع قبعة فلاح وشدها على رأسه وقال :

— اهدموا من هاهنا ، وأنا أهدم من هناك .

وقذفت بعمود وعمودين فانهار الحائط وجذبنى الأوكراني من قدمي وغطاني الغبار والتراب إلى قمة رأسي . ثم سحب الفلاحون كلهم السياج وألقوه في الشارع . وسألني رومانس : — هل أصابتك النار ؟

ضاعف حذبه على ، شدتي ، ومهارتي ، لقد كانت بي رغبة جامحة تدفعني إلى أن أكون ذا مزية ، في عيني هذا الرجل العزيز على نفسي ، فكنت أقوم بجنون ،

ثم يجنون ثم يجنون لأستحق مدحه وثنائه ؛ وكانت أوراق كتبنا لا تزال تتطاير
كالحمات في سحب الدخان ونحن نرقبها قسراً حيناً بعد حين ونجحنأ أخيراً في إيقاف
الحريق ، من الجهة اليمنى ، ولكنه كان يزداد في الجهة اليسرى ، كان وقد بلغ البيت العاشر .
ترك روماس بضعة فلاحين ، يراقبون حيل الأفاعى الحمر ، في ذلك الجانب .
ومضى بأكثر العمال إلى الجانب الأيسر ، وسمعت وأنا أجرى أمام الأغنياء كلمة
خائنة أثيمة : — لقد أشعلوا النار عمداً . وقال التاجر : — يجب أن تقوم بتفتيش
حماماته . . .

لقد انطبعت هذه الكلمات في ذاكرتى انطباعاً مزعجاً ، قتالا .
يعرف الناس أن كل هيجان ، ولا سيما هيجان اللذة يزيد في قوانا ، وكنت
وأنا فريسة هيجان لذيد أعمل في حماسة مطلقة ، وأخيراً وجدتني في الرمق الأخير .
أذكر أنى جلست على الأرض ، وأن روماس كان يرش وجهى بالماء ، وحولنا
الفلاحون يتمتمون في احترام .
— ما أقوا .

— إنه لا يكل ولا يمل .
ألصقت رأسى بفخذ روماس ، وبدأت أبكى بكاء مرأ مخجلاً ، أشد الخجل
وأقساه . وكان يداعب رأسى المبلل ويقول :
— هون عليك كفى . كفى .. وقادنى كوكوشكين وبارينوف وكلاهما أسود
كالشيطان إلى المستنقع ، وهما يعزياننى :

— لاشئ يا صديقتى كفى ، هل خفت ؟ لم أكد أستريح وأجلس حتى رأيت
طائفة من أغنياء الفلاحين يمشون إلى حماماتنا ووراءهم حارسان يمسكان بروماس
من ذراعه . كان حاسر الرأس وقد نزع كم قميصه المبلل ، وغليونه يصر عليه بين
أسنانه ووجهه القوى القاسى مخيف ، وكان الجندى كوستين يصرخ صراخاً قوياً
ويعبث بعصاه ويقول : — إلى النار أيها الكافر .
— افتح الحمامات .

وأجاب روماس في صوت عال :

— اكسروا الأقفال . لقد أضعت المفتاح .

قفزت على قدمي وأمسكت بحجرة على الأرض ووقفت إلى جانب الأوكرائي وتوزع الشرطة ، وصرخ العمدة فزعاً :

— يا أورثوذكس : القانون لا يسمح لنا كسر الأقفال .

وصرخ كوزمين وهو يشير إلى — أهذا أنت ؟

وقال روماس : — صبراً يامكسيمتش إنهم يظنون أني قد خبأت البضاعة في الحمامات ثم أشعلت النار عمداً في الدكان .

— بل كلاهما .

— اكسر .

— يا أرثوذكس .

— اكسر ونحن نتحمل العقاب ، اكسر ولا بأس عليك .

وتتم روماس : — كن خلقي كيلا يضربونا من ورائنا .

كسروا قفل الحمامات وأسرع كثيرون منهم في الدخول إليها ثم خرجوا رأساً منها ، وكنت قد وضعت الحجرة في يد روماس وتناولت أخرى من الأرض .

— لا شيء . . . — لا شيء . . .

— آه يا أبالسة . . . وقال فلاح في خجل وحياء :

— أخطأتم أيها الفلاحون . وأجابت أصوات مخمورة .

— ماذا ؟ أخطأنا ؟

— ألقوه في النار . . . يامشير الفتن . . .

— يريدون أن يشككوا نقابات . ؟

— لصوص . . .

— عصابة لصوص . . .

وصرخ روماس في صوت قوى :

— اسكتوا اسكتوا . . . لقد رأيتم بأم أعينكم أن ليس عندي بضاعة أخفيها

في الحمامات ، فماذا تريدون بعد ذلك ؟ لقد احترق كل شيء ،

ولم يبق إلا ما ترون . وماذا يجدينى أن تأكل النار كل ما عندى ؟
— بضاعتك مضمونة . . .

وصرخت عشرة حناجر صراخاً عنيفاً :

— لا تكثرثوا بما يقولون .

— كفى ، كفى ، لقد احتملنا أكثر مما نطيق .

ارتجفت ساقاى ، ولم أر ما أمامى ، ولمحت خلال ضباب أحمر أشداقاً وحشية وثقوباً بنفسجية فى مكان الأفواه ؛ وضبطت فى جهد كبير رغبتى الحارة فى أن أضرب هؤلاء الناس . كانوا يصرخون ، وهم يدورون حولنا : — آه — آه لقد أمسكوا بالمجارف . . . — مجارف .

وقال الأوكرانى وظننت أنه يتسم : — سوف يتنفون لحتى يامكسيم ، وأنت أيضاً ستنال نصيبك ، ولكن صبراً يامكسيمتش . . .
— انظروا إلى هذا القدوم فى زنار الفتى .

والحق أن قد كان ، ولكنى لم أكن به عالماً . وقال روماس :

— أرى أنهم قد خافوا ، ومع ذلك فلا تضرب بالقدوم إن حدث حادث ، وصاح فلاح صغير ، مجبول ، يعرج ويقفز كالشيطان :
— أرجوهم بالحجارة من بعيد .

وأمسك بحجر ، وقذف به صدرى بكل ما يستطيع من قوة وقبل أن أورد عليه ، انقض عليه كوكوشكين كالعقاب ، وتدحرجا جميعاً إلى المستنقع .
وركض وراء كوكوشكين بانكوف وبارينوف والحداد ورجال كثيرون آخرون ، وعند ذلك صرخ كوزمين فى لباقة :

— إنك رجل ذكى يامىخائيل أنطونوف . إنك لتعلم أن الحريق يثير جنون الفلاحين وقال روماس : — تعال إلى مقهى المستنقع يامكسيمتش ، وسحب غليونيه منه وه وأعاده فى حركة عنيفة إلى جيب سرواله ، وقطع المستنقع مستنداً إلى المجرفة وقال يخاطب كوزمين وهو لا ينظر إليه : — سر فى طريقك يا أبله !
ورأيت فى موضع بيتنا كومة من الجمر الذهبى ، ينتصب فوقها الموقد سليماً

كما كان ، ويخرج من أنابيبه دخان خفيف أزرق ، وكان حديد السرير الأحمر يمتد كأنه أرجل عنكبوت ، وجانبها الباب الخارجى ، يقومان كأنهما حارسان ، أحدهما متوج بجمرات حمر ، كأنها عرف الديك . وقال الاوكرانى وهو يتنهد :

— لقد احترقت الكتب وا أسفاه . . . كان الاطفال يدفعون بالعصى جمرات كبيرة ثم يرمونها فى طين الشارع فتصفى ثم تضحل ، وقد ملأت الهواء دخاناً كشيئاً أبيض .

وهناك طفل ذو شعر أشقر ، وعيون زرق ، لا يتجاوز سنه خمس سنين ، يجلس فوق آجرة سوداء حارة ، وينقر بعصاه على سطل مخروق ، ويصفى فى رضا تام ، وانتباه مركز ، إلى نغمات النقر على الحديد ومشى رجال الإطفاء كالخين يكومون ما استطاعوا من إنقاذه .

وهناك نساء يبكين ، ويتشائمن ، ويتنازعن على قطع من الخشب الاسود . ووراء الحريق فى البستان ، تنتصب أشجار لا تتحرك ، انضجت النار أوراقها فبدت حمراً زاهية وظهر التفاح أكثر ما يكون غزارة ووضوحاً . سبحنا فى النهر واغتسلنا ، ثم ذهبنا لشرب الشاي ، فى مقهى على الشاطئ ، وقال روماس :

— لقد خسر الأكبر موسم التفاح كذلك .
وقدم بانكوف مفكراً ظريفاً أظرف ما يكون . وسأله الاوكرانى : — ما وراءك يا صاحبي ؟

وهز بانكوف كتفيه وقال : — أما بيتي فمضمون . . .
جلسنا صامتين ، نتبادل النظر ، كأننا أغراب قال بانكوف :
وماذا تريد أن تفعل الآن يامىخائيل أنطونتش :
— سأفكر فى ذلك .

— يجب أن تسافر — سأرى . وسكت بانكوف ثم قال : — عندى مشروع تعال نخرج ونتحدث .

والتفت إلى بانكوف وهو عند عتبة الباب وقال : — أنت غير خجول .

وتستطيع أن تعيش عندنا وسيرهب الفلاحون جانبك
 خرجت أنا أيضا إلى النهر ، واستلقيت تحت القصب ، وأنا أنظر إلى النهر
 وكان الحر شديداً ، رغم أن الشمس كانت قد جنحت إلى الغروب ، ودارت أمام
 عيني ، في خيط طويل ، أيامي كلها في القرية ، وكأنها رسمت رسماً ملونا ، على
 صفحة النهر العريضة ، كنت حزينا مرهقا ، فاستسلمت للتعب ونمت نوماً عميقاً .
 وسمعت في نومي قائلا يقول :

— هيه أميت أنت ؟

وهناك وراء النهر ، فوق المروج كان القمر الأحمر يلعب كأنه
 دولا ب كبير .

وبارينوف يهزني : — تعال ؛ الأوكراني يبحث عنك ، وهو قلق عليك
 ومشى ورائي مدمماً :

— أنت لا تستطيع النوم حيث تشاء ، قديم إنسان على السد ، فيعثر ، فتسقط
 على أم رأسك صخرة من الصخور أو قد يهدبها هو اليك عمداً ، نحن لانعرف
 المزاح إن الشعب يا صاحبي يتذكر الشر وحده ذلك لأن الشر هو كل ما يجده
 ويلقاه في حياته ليتذكره .

وهناك بين القصب ، رجل يوزعه في رفق فتضطرب الأغصان ، ويسأل .
 — هل وجدته ؟

هذا ميجون وصوته الرنان . وأجاب بارينوف :
 — هاهو معي . وابتعد غنى خطوات وقال وهو يشير إلى ميجون وبتنهدي :

— هاهو يستعد ليسرق السمك ...

— إن حياته شقية بأسة .

واستقبلني روماس غاضباً لائماً :

— أتنزه ؟ أتصر على ضربات العصا ؟

وعندما خلونا إلى أنفسنا ، قال لي في رفق ، وفي صوت أجش :

— يعرض عليك بانكوف أن تبقى عنده فهو يريد أن يفتح دكاناً وأنا

لأنصحك بالبقاء ، وقد بعته كل ما بقى عندي . سأسافر إلى فيانكا ثم أرسل في طلبك . أتريد ؟
— سأفكر .

— فكر . واستلقي على الأرض ، وتمتم قليلا ، ثم سكت ، وجلست قرب النافذة في الحمامات أنظر إلى الفولجا .

كانت أشعة القمر تذكرني بالحريق هناك وعند الشاطئ . مركب تضرب جنباته الماء ضرباً قوياً . وتراءت لي في الأفق مصابيح الـ ثلاثة كأنها تلمس النجوم حيناً وتخفيها حيناً آخر .
وسألني روماس ناعساً :

— أكرهت الفلاحين ؟ لا ، لا تكرهم . إن خبثهم ليس إلا بلاهة .

ولكن كلماته هذه لم تنفعني ولم تستطع أن تهدد ما في نفسي من كراهية حادة ، وتمثلت مرة أخرى تلك الأشداق الوحشية المحمر تقذف هذه الصرخة المرعبة :
— ارجعهم بالحجارة من بعيد .

كنت في ذلك العهد لأعرف نسيان ما ليس مفيداً ، كنت أرى تماماً أن كل رجل من هؤلاء الناس إذا فصل عنهم ، فهو ليس ذا خبث كثير ، بل هو ليس بذى خبث في غالب الأحيان . إنهم في أعماقهم بهائم طيبة وليس عسيراً عليك أن تجعل أياً كان منهم ، يفتر ثغره عن ابتسامة طفل ، بل أنت تستطيع أن تحدث أياً شئت منهم ، فيصغى إليك في ثقة صنيانية ، وأنت تتحدث عن العقل والسعادة والأعمال الكريمة . إن روح هؤلاء الناس الغريبة ، تحب كل ما يجعلها تحلم بإمكان حياة رغيدة ، حياة تنظمها قوانين الإرادة الشخصية .

ولكنهم كانوا إذا اجتمعوا في مجالس القرية أو في المقهى . في ليلاة قائمة ، أخفوا حيث لأدرى كل ما فيهم من خير و تنفعوا كما يلتفع الرهبان بشوب زائد منسوج من الأكاذيب والخداع .

إن عبوديتهم الكليمية للكبار تبدو وتوضح | أحيانا فتشمن من رؤيتهم نفس من يراهم ، وقد تستبد بهم فجأة وحشية ذئب من الذئاب فتصطك أسنانهم

ويتشائمون شتائم وحشية، ويستعدون للضرب، بل هم يتضاربون في الواقع ومن أجل ماذا؟ من أجل شيء تافه حقير، وهم في مثل هذه اللحظات يخيفون بل هم قادرون على هدم الكنيسة التي يدخلونها في المساء هادئين كأنهم غنم تعود إلى حظيرتها.

وشعراؤهم وقصاصوهم يعيشون بينهم فلا يحبهم أحد منهم. إنهم موضع سخريتهم أينما كانوا فتراهم يعيشون مهانين محتقرين منبوذين.

أنا لأعرف بل أنا لأستطيع أن أعيش بين هؤلاء الناس، ولقد عرضت كل هذه الأفكار المرة على روماس حين افترقنا فلاحظ هذه الملاحظة وهو لى لأتم: — تلك أحكام لم تنضج:

— ولكن ما لعمل إذا كنت قد انتهيت إليها.

— تلك أحكام جائرة لأساس لها. ثم اجتهد طويلا، وفي كلمات طيبة، أن يقنعني أنني مخطئ وأنى مخدوع، وقال:

— لا تعجل في الحكم. إن الحكم سهل فلا تتخذ عنك سهولته؛ لاحظ كل ما حو اليك في هدوء وضع نصب عينيك أن كل شيء يمضى، كل شيء يسير في اتجاه أرقى وأحسن وأسمى، أتريد الأناة؟ نعم الأناة المستمرة السائرة في ثبات. أمتحن كل شيء والمس بيدك كل شيء ولا تخف ولا تعجل في الحكم وإلى اللقاء يا صديق ...

والتقينا مرة أخرى بعد خمسة عشر عاماً، في سيدليتز، وكان روماس قد نفي مرة أخرى في قضية الديموقراطيين سنتين إلى مقاطعة الياقوت. أرهقني بعد رحيله سأم من رصاص فكنت أدور في القرية كالكلب الصغير أضع سيده وكنت أذهب مع بارينوف من قرية إلى قرية، نشغل عند الفلاحين الأغنياء ندرس الحنطة، ونقلع البطاطا، وننظف البساتين وكنت أسكن حمامات بارينوف.

قال لى مرة في ليلة مطرة:

— ياليكس مكسيمتش أيها القائد الذى لا جند له، سنرحل غدا إلى البحر.

وماذا نصنع هنا يارب ؟ إنهم لا يحبون أمثالنا من الناس وفي يوم من الأيام إذا سكروا

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي أسمع فيها حديثه هذا ، ولم أدر لم كان هو أيضاً كثير السأم ، كانت يدها تتدليان تدلياً طويلاً كأنهما يدا قرد وعيناه تتطلعان إلى ماحوله ، في حزن وأسى ، وكأنه إنسان تائه في غابة .

المطر ينقر نافذة الحمامات ؛ وهناك سيل ينحدر من زاوية ، ثم ينصب في المستنقع انصباباً ، وبروق العاصفة الاخيرة ؛ تلمع لمعانا خافتا وبارينوف يسألني هامساً :

— سنسافر غداً ؟

وسافرنا



الفصل الرابع عشر

قابلت قبل كورولانكو ، كاتبين آخرين ، هما كورونين وستاروسين — مانانكوف . رأيت الأول في قازان فقد لبث فيها بضعة أيام بعد عودته من منفاه ، وترك في نفسى أثر ذلك الرجل الذى لا يجد نفسه أبداً حيث يريد أن تكون . — والخلاصة أن لافائدة من وجودى هاهنا .

هذه هى الكلمات التى استقبلتنى ، وأنا داخل إلى غرفة مظلمة فى بيت ذى دور واحد ، تحيط به ساحة وسخنة تصنع فيها العجلات ؛ وانتصب فى وسطها رجل طويل القامة مقوس الظهر ، ينظر فى سماء المفكر إلى إطار ساعة كبيرة ، ويمسك بين أصبعيه سيجارة تنفث دخاناً كثيفاً . شرع يمشى ذات اليمين وذات الشمال على ساقين طويلتين ، وهو يحجب فى اختصار ، على الأسئلة التى يلقيها عليه رب المنزل ؛ وكانت نظرات عينيه الصافيتين صفاء طفلياً تعب مشغولة عما حوله ؛ وقد نبتت على خديه وفى ذقنه شعرات مختلفات الطول ، وعلى جمجمته . ذات الزوايا ، شعرات فاحمات لم تغسل منذ زمن طويل ، وكانت يده اليسرى غاطسة فى جيب سرواله الممزق ، تلاعب وتران قطعاً من عملة نحاسية ويده اليمنى تحرك سيجارته كما يحرك رئيس فرقة موسيقية عصاه ؛ كان يعب الدخان ويسعل سعالاً جافاً ، ولا يفتر عن النظر إلى ساعته ، وهو يمص ريقه مصاً حزيناً وكادت حركات هيكله العظمى المخلع تنادى أن هذا الرجل مرهق إرهاباً خفيفاً .

دخل الغرفة ثمانية عشر طالباً وتلميذاً واحداً بعد واحد ؛ كانوا كلهم قاتمين كالحين ودخل معهم خباز وزجاج . قص علينا كورونين فى صوت أجش مسئول حياته فى المنفى . كان كأنه يتحدث إلى نفسه يقف وقفات قصيرة ، أو يجلس على طرف النافذة ، ثم يلقى حوالية نظرات لا تنظر إلى شئ . وكانت كوة الغرفة فوق رأسه مفتوحة والهواء الذى أشبعته رائحة التبغ وبول الخيل ، يملأ الغرفة ويفعمها ؛

وشعرات رأسه تضج وتهتز ، فيمسها بيده الطويلة الجافة المتعظمة ثم يجيب على ما يطرح عليه من أسئلة :

— هذا ممكن ، ولكنى لست متأكداً من أن ذلك كان كذلك.... لا أدري....
ولا أستطيع أن أقرر هذا تماماً

لم يعجب كورونين هؤلاء الشباب ، فقد تعودوا أن يستمعوا إلى أناس يعرفون كل شيء ، ويعرفون كيف يتحدثون عن كل شيء ، وقد أوحى إليهم حذرهم واحتراسهم في قصته هذا المعنى الساخر فقالوا :

— إوزة غاضبة

ولكن رفيق أناطول الزجاج ، رأى أن الحزن الخفي في عيني كورونين الطفليتين و« لا أدريته » التي لا تنقطع ، يمكن أن يفسر غير هذا التفسير ويؤول بخوف غير هذا الخوف . قال .

— إن الإنسان الذي يعرف الحياة يخشى بل ويكره أن يغمر بالخطأ « الكلاب الصغار القائمة (١) » إذا حدثها بأكثر مما يستطيع أن يحدثها به وهو مختلص صادق

إننا أهل التجارب المباشرة ، مثلي ومثل أناطول ، نرتاب بعض الريبة في أهل الكتب لأننا نحن نعرفهم تماماً ، ونعرف أنهم يحاولون إذا كنا معهم ، أن يظهروا أمامنا أكثر جداً وأوفر رزانة مما هم عليه في العادة .
وانتصف الليل ، فسكت كورونين بغتة ، ووقف منتصباً وسط الغرفة ، مغموراً بسحابة من دخان ، ثم مسح بيديه وجهه ، كأنه يغسله بماء لا يرى ثم بحث في منطقتة عن ساعته ، فأخرجها فقربها من أنفه ، وقال مسرعاً :

— طيب إذن يجب أن أذهب .. ابنتي مريضة .. مريضة جداً . الوداع وبعد أن صافح بأصابعه الملتزمة الأيدي الممتدة إليه ، مصافحة قوية ، مضى وهو يتخلع . وشرعنا نتنازع ؛ أليس النزاع نتيجة محتمة لمثل هذه الأحاديث ؟
أما مانانكوف فمقرعته في بوريسو جليبيسك ، من مقاطعة تامبوف . وكان موظفاً في مكتب المراسلات في سكة حديد غريا زى تسارتسين ، وكنت أنا

حارساً في محطة البضائع فيها .

كان ستاروستين - مانا نكوف ضخمة الجثة ربعة ، منتفخ الوجه أمعط ؛ تهب له عيناه اللتان لالون لهما ولا حياة فيهما سحنة الخصى ، مشيته ثقيلة ، وحركاته المترددة تزيد في أوجه ذلك الشبه . كان جسمه المنهوك عرضة لمختلف الأمراض التي تزيدها أوهامه شدة ونضجاً .

كان ين فلا ينقطع عن الأنين ، ويشتكى فلا ين عن الشكوى ، ويسعل ويبصق في كل صوب وجهة في صندوق المكرونة الفارغ ، الذي يستعمله سلة مهملات ، وفي أوعية الأزهار التي تزين أطراف النوافذ ، وفي المرمدة أو في شكل أبسط وأيسر على الأرض ، من ناحية الباب . كان يبذل جهداً غير قليل ، ثم يبصق ثم يفحص النتيجة ، ثم يميل برأسه الأصلع في حركة عصبية ويقول :

الستار

— فظيع فظيع

رأيت ذات مساء ، في غرفته الصغيرة ، ذات السرائر الحجر ، وقد صفت آتية الأزهار على أطراف النوافذ ، وفي زاوية من الزوايا قام تمثال القديسين الشهيدين : كيريك وأوليتا ، وكان جالسا وراء منضدته المرهقة بأكداس الأوراق المسودة وهو يشرب كؤوساً صغيرة من الفودكا ، ويأكل بعدها البصل ، ثم يشتكى وهو يصرخ صرخات حادات :

— إن كليب اوسبانسكي يسخر بالفلاحين . أما أنا فأكتب بدم قلبي : أنت أيها الرجل الذي تقرأ ؛ قل لي أين وفيهم يختلف أوسبانسكي عن ليكين ؟ ومع ذلك فإن أرقى المجالات تنشر له ما يكتب أما أنا ...

كانت قصص ستاروستين تنشر في صحف الأقاليم ، ومع ذلك فقد ظهرت له قصة أو قصتان في صحيفة « ديلو » كما أعقد ، وكان ستاروستين يحب أن يذكره الناس بهما ، فذكرته بهما .

وصرخ في حزن خفت حدة الشكوى فيه .

— ولكن كم قصة كم قصة ؟ مع أني لي

وترك كرسيه ومضى يجبو على أربع ، إلى السرير العريض ، وأخرج رزمة كبيرة ، ملفوفة في قماش رمادى ، وضرب الرزمة بيده ، فأطار سحابة من الغبار ، ثم صرخ محتقنا

— انظر كل هذا مهىء ، معد ، لقد كتبته بذنغ قلبي .. نعم ، نعم بدى ..

وتشنج وجهه واستألت عيناه بدعوى سكير .

قرأ لى يوماً ، ولم يكن ثملاً قصة كتبها حديثاً ، فيها أن فلاحاً أنقذ من الموت حرقاً ، حصان مفوض الشرطة ، وقد كان هذا المفوض نفسه قد كسر قبل ساعة من هذا الحادث سنين من أسنان هذا الفلاح البطل ، لأنه سرق معولاً من المعاول وذكر المؤلف أن النار أحرقت الفلاح حروقاً خطيرة فنقل إلى المستشفى .

قرأ ستاروستين هذه القصة المؤثرة وبكى فرحاً وهو يصرخ المرة بعد المرة :

— ما أجمل هذا : ما أقوى الروح التى تنبض فيه نعم نعم يا ولدى ، نعم ، تعلم وأنت تستطلع خبايا النفوس

لقد ساءت هذه القصة مساء كبرى ، ولكنى بكيت أنا أيضاً حين رأيت فرح المؤلف وحماسه ، إن إخلاصه فى عاطفته ، أوحى إلى عاطفة مخلصة صادقة قال :

— تعلم يا بنى . انت تنظم الشعر دائماً ، ولكن الشعر عبث ، فدعه عنك ، فلن تكون أبداً ندسون ، لأنك لست من طينته وأنت ليس لك قلب . بل أنت إنسان فظ غليظ . تذكر أن بوشكين خان عبقرية الكبرى حين نظم الشعر . النثر هو الأدب الحقيقى .. النثر المقدس

وقد كان هو نفسه فى عيني ، مجسداً لهذا النثر المقدس الذى يحنقنى دخانه الكرية

كنت فى ذلك العهد أقوم بحراسة إشارات الخطر ، والممرات ، واكوام الخشب من نهب قوزاق القرية المجاورة ، خالماً بأعمال بطولية ، وبأفراح صاخبة . قرأت هين وشكسبير ، ولسم حدث فى الليل وأنا أفكر بالواقع الذى يتفسخ حولى فى هدوء أن ظلت ساعات طويلة جالساً أو مستلقياً ، لأفهم شيئاً ، كأن

ضربة عصا وقعت على أم رأسى فصعقتنى .

ولم يكن شبابى وضالة ثقافتى يمنعانى من أن أشعر شعوراً قلقاً بما يمكن « للنثر المقدس » أن يوارى وراءه من حوادث عامة سطحية ، مرهقة ، ورأيت حولي مجموعة كبيرة من المثقفين تحوم حولهم كلهم شكوك وشبهات ، وأكثرهم عرفوا السجن والنفى والتشريد . كانوا يقرؤون كثيراً .. ويعرفون اللغات الأجنبية ، كانوا طلاباً مطرودين في غالبهم . وكان فيهم ضباط في البحرية وضابطان من الجيش البرى . وداعية مشهور عند المريدين في منقطة الفولجا ، هو سلافانوف ، وكان منهم الصحفي ناتشانوف ، ومنهم واحد من الشيوعيين في كييف ، تخلص وشيكاً من حكم عليه بالنفى وكان اسمه مفروزي كوليش .

وقد أدخل هذه المجموعة التى تبلغ زهاء ستين شخصاً في محطات مدن الفولجا ، رجل من رجال الأعمال يدعى م . ا . ادادوروف ، عرض على إدارة السكك الحديدية الاستفادة من كفاءات هؤلاء الأشخاص ، حتى تضع حداً لسرقات البضائع التى كثرت كثرة لاتكاد تصدق .

بدأ هؤلاء يقومون بأعمالهم ، في حماسة ونشاط وفضحوا دنيا رؤساء المحطات ، ومدادى السكك ، والسواقين والعمال ، واقتخروا بما نجحوا فيه من تعقيبات .

وخيل إلى أنهم يستطيعون ، بل يجب عليهم أن يفرغوا إلى غير هذا العمل إلى عمل أكثر لياقة بكرامتهم ، وبكفاءاتهم ، وبماضيهم ، ولم أكن أفهم حتى ذلك الوقت فهماً واضحاً ان قد كان محرماً علينا في روسيا أن نزرع « الحكمة والخير والخلود » (١) أحراراً طلقاء .

أما أنا الذى كنت أتردد بين الناس الابتدائيين في المدينة ، وبين هؤلاء المثقفين . وهم من جنس نسيج وحده ، فكنت أميز تمييزاً واضحاً ، ذلك البون الشاسع الذى يفصل بين الفريقين .

كانت المدينة كلها تعرف ولاشك أن هؤلاء « الأدادوفيتش » « سياسيون »

من أولئك الذين يشنقون ، وكانت ترقب في انتباه ، اعمال هؤلاء الذين تكررهم وتخافهم ، وكان مرعباً حقاً أن ترى نظرات هؤلاء السكان الخبيثة الحانقة عليهم ، الراغبة في الثأر منهم . كانوا يكرهون الأدادوروفيتش لأنهم يخافونهم كأعداء شخصيين خفسب ، ولكن لأنهم يرون فيهم أيضاً أعداء «الإيمان والقيصر» وكان بول كروكوف ، وهو حارس مثلي أعرفه ، يناقش نفسه في صوت عال ، وهو جالس معي في الحانة أمام زحاجة من الجعة:

— كيف يمكن استخدام هؤلاء الناس ؟ يجب أن ينفوا من الأرض نفيًا ، إلى الجزر البعيدة والصحارى الخالية فيعيشوا فيها كما عاش روبنسون. وأحسن من ذلك كله ، أن يشنقوا جميعاً . لقد شنق منهم اثنان منذ سنتين في بطرس (١) وقد قرأ كروكوف كثيراً ، وكان يحب الجغرافية وأشعار جو كوفسكى وكان عنده عشرون كتاباً قيماً منها نسخة من كتاب قضايا أول آذار (مارس) (٢) طبعت في الخارج .

أعطاني مرة هذا الكتاب سراً وقال :

— خذ واقرأ وانظر إليهم كيف هم ، ثم احذرهم والحق أنه لم يكن هو وحده يفكر مثل هذا التفكير .

كل شيء في هذه المدينة مشبع برائحة الشحم والصابون ، واللحم المتفسخ ، والعمدة يدعو القسس إلى إقامة الصلوات لتطرد الشياطين من آبار المدينة .

ومعلم المدرسة يضرب امرأته في كل سبت عند الحمامات ، فتفر منه أحياناً عارية مترهلة اللحم ، وتركض في البستان ، وهو يجري خلفها ، وييده قبضة من القضبان أما جيران المعلم فكانوا يدعون الناس إلى مشاهدة هذا المنظر من خلال ثقب الجدار . وذهبت أنا أيضاً معهم لأنظر إلى النظارة ، فضربت الحارس وكدت أساق إلى دائرة الشرطة ، ولا مئى أحد الحاضرين فقال :

— ولماذا غضبت أنت ؟ إن مثل هذا المنظر ليسلى كل انسان أيا كان . أما انت فلا نجد لك مثيلاً حتى في موسكو .

وكان مراقب السكة الحديدية يؤجرني زاوية بروبل واحد في الشهر ،

(١) بطرس برج

(٢) قضية مصرع القيصر اسكندر الثاني (١٨٨١)

ويحاول في إخلاص اقناعي أن اليهود كلهم ليسوا فقط نشالين بل إن كل واحد منهم خشي يجمع بين الجنسين - الذكر والانثى - وكنت أناقشه في هذا الموضوع الخطير . وذات ليلة جاء ومن وراءه امرأته وأخوه ، فاقتربا من سريري ، يريد أن يتحقق إن كنت يهودياً ، فاضطرت كي اتخلص منهم إلى كسر يد المراقب وتشويه وجه أخيه

وكانت طاهية مفوض الشرطة تضع في الفطائر دم حيضها ثم تهديه إلى عامل ميكانيكي من أصدقائها ، ليأكلها فتوحى إليه الميل إليها والحب لها ، ووشت بها صديقتها إلى الميكانيكي ، وأخبرته بهذا السحر الخيف وهرع التعيس ، وقد تملكه الرعب ، يشكو إلى الطبيب أمره ويعلن له أن شيئاً ما يعتلج ويختلج ، ويضطرب في بطنه . وسخر به الطبيب ولكن الميكانيكي عاد إلى بيته فهبط إلى القبو وشنق نفسه .

وقصصت على «الأداد وروفيش» كل هذه الحوادث فكانوا يعتبرونها مضحكة مسلية ويضحكون لها من كل قلوبهم ، وأنا أعجب منهم كيف يضحكون . ورأيت من بينهم أناساً نالوا إعجاب واحترام لما في أحكامهم من دقة ، ومعلوماتهم من تنوع ، ولإيمانهم بسلطان العقل...

وجدتني أحدهم ، وهو طالب ديني ، من تومسك ، يدعى بوجونوف ؛ كان رجلاً ضخماً كثيف الشعر ، فتي الوجه ، في حماسة بالغة عن مذاهب القرون الأولى في المسيحية ومللها ونحلها ، وساعدني على قراءة سبنسر و « تاريخ العلوم الاستقرائية » لوفيل .

— والخلاصة يا صاحبي أن العقل هو الذي يقرر كل شيء . إنه ذلك المخل الذي سيحول العالم كله مع الزمن .

وسألته عن نقطة ارتكاز هذا المخل فقال لي مقتنعاً .

— الشعب ، ثم أضاف في تأطف :

— وأنت خاصة ، بل عقلك .

كنت أحبه حباً جماً وأثق به ثقة عمياء ، وقد انتحر ليلة عيد الميلاد بطلقة من مسدس في حقل ، وترك لصديق له هذه البطاقة :

« ميتيا ، بع ما عندي وادفع ٧ روبلات و ٥٠ كوبكا إلى صاحب المنزل وارسل كتب ويفل الى بيشيكوف (١) مكسيمتش العظيم . ألا تذكره ؟ وارسل له سينسر أيضا . الوداع يا ميتيا الوداع ...

« صديقك . أ . ب . »

وصلتني هذه الكلمة وتلك الكتب ، فشعرت بسكين تدبني مبتدئة بقلبي ؛ وقد كان عسيراً على أن أقبل اختفاء رجل له مثل ذلك الفكر القوى الواضح . تذكرت يوماً لنا في الحانة ، وقد قدم إلى كأس جعة ، وقال لي ، وكاد يدركه الحمار :

— أتدرى يا مكسيمتش ماهى أجمل أغنية في العالم ؟

وانحنى على المنضدة ثم نظر إلى في عيني ، بعيني دب صالح زرقاوين ، وأنشد في حزن ، وفي صوت أجش :

عند ما كنت صغيراً لم أكن شاعراً كبيراً

كنت أمضى لدروسي هكذا طفلاً صغيراً (٢)

غنى وفاضت عيناه بالدموع ثم تابع :

— والله إنها لأغنية رائعة ؛ فيها بساطة بالغة وفيها كما ترى ذلك الحزن

المضحك ! ثم ترجم إلى الروسية الأغنية ولم أدر ما الذى يثير مثل هذا العملاق صاحب مثل هذا الشعر الكشيف .

ولقد رأيت كثيراً من الناس بعد ذلك قتلهم هذا « الحزن المضحك » ...

كان لستاروستين خلية — هى صاحبة منزله — امرأة ذات صدر يبلغ وزنه نصف قنطار ، لا تكاد عجيزتها تستطيع أن تستقر على كرسي ، وقد أهداها ، يوم عيدها ، مقعداً واسعاً من الجوز فبهزتها الهدية هزاً عنيفاً ، وبعد أن

(١) اسم عائلة جوركي

(٢) بالفرنسية فى النص

طبعيت على شفقي حبيبها الصادق ثلاث قبلات ، قالت وهى تخاطبني :
— أرايت أيها الشاب ؟ تعلم من هو أكبر منك ، كيف تدخل السرور على
قلوب السيدات .

ووقف ستاروستين إلى جانبها ، تعلو ثغره ابتسامة سعيدة ، وهو يمسك بأصابعه
شاربيه الأصهبين الناعمين كشاربي القط .

حدث ذلك في يوم رائع من أواخر آذار (مارس) ، وعلى النوافذ كان
النسر ينزهر ازدهارا غزيراً ، ورقرة المياه المرححة الربيعية تدخل إلى الغرف
مع أريج الأزهار ، فتختلط برائحة الأقراص والصابون والتبغ .
ومضت الأيام ، وأشرف ايلول (أيلول) على نهايته ، وسقت أمطار الخريف
الأرض سقيا كريما ، وتشردت ريح صغيرة باردة في الحقول المرهقة ، وتلونت
الغابات بألوان رائعة ، إنه لفصل جميل ولكنه قل أن يلائم سفر المرء على
قدميه ، ونعلاه ، ممزقان مثقوبتان ...

كنت في محطة البضائع في موسكو ، أقوم بإقناع سائس ليدخلني قاطرة من
قاطرات البهائم ، وكان فيها ثمانى بقرات من تشيركاسى يقمن برحلة ، وهن راكبات ،
إلى مسلخ « نيجنى » . وجدت فيها خمس بقرات طبيات السيرة حسنات السلوك ، ولا
أدرى لم لم أحظ بإعجاب البقرات الثلاثة الباقية ، فقد كن ، طول الطريق ، يتعقرن
في إزعاجي وإرهاقي ، فإذا نجحن كن ينفخن ، وينخرن راضيات مغتبطات .

أما السائق ، وهو رجل صغير ، سكير ، ذو ساقين غليظتين ، وشاربين متعبين
فكان يكلفني باطعام رفيقاتي في الرحلة ، ويكوم عند كل موقف ، في باب القاطرة ،
أكوماً من البرسيم ويأمرني قائلاً :
— أطعمها .

وقضيت أربعاً وثلاثين ساعة مع البقرات ، وأنا أفكر تفكيراً صادقاً أن لن
أجد ، ماحييت ، بهائم أشد فظاظة ، وأقسى قلباً منها .

وكان في حمري دفتر أشعار ، وقطعة جميلة من نثر وشعر عنوانها « أغنية
الجوزة العجوز » . لم أكن قط مريضاً في شعوري بما أنا له كفء ، وكنت في ذلك

العهد أحس إحساساً تاماً بضالة معلوماتي ، ولكنني كنت أعتقد في إخلاص أني كتبت مؤلفاً ثميناً ، ولقد وضعت فيه كل ما فكرت فيه خلال عشر أعوام ، من حياة كثيرة الحوادث قليلة الهدوء . وكنت مقتنعاً أن الإنسانية المتعلمة ، إذا قرأت قطعتي هذه فستؤخذ بما فيها من جدة وطرافة ، وأن ما في قصتي من صدق سيدغدغ قلوب سكان الكرة الأرضية جميعاً ، وأنى سأحيا رأساً بعدها ، حياة شريفة ، نقية ، مريحة ، ولم أكن أطلب سوى ذلك ، ولم يخطر في بالي أكثر من ذلك .

كان كورونين يسكن نيجني وكنت أزوره حيناً بعد حين ، ولكنني لم أجسر على تقديم مؤلفي الفلسفي إليه . كان يقولوا البيد يفور وقتش (٢) مريضاً ، يثير فيمن يراه عاطفة حارة من الإشفاق ، وكنت إذا رأيته ، شعرت شعوراً لم يفارقتي طيلة عمري ، أن هذا الإنسان يتابع في عناد أليم فكرة ثابتة في رأسه .

كان يقول وهو يقذف من فتحتي أنفه موجات كثيفة من الدخان :
— قد يكون ذلك كذلك ...

ثم يتهد تهدأ عميقاً ، ويضيف إلى ذلك قوله ، وهو يكثر عن أنيابه :
— وقد لا يكون ذلك كذلك ...

وكانت خطبه تحدث في نفسي تردداً قاسياً ، وخيل إلي أن هذا الرجل ، الذي كاد يهدم ، يحق له ، بل ويجب عليه ، أن يتحدث حديثاً على غير هذه الشاكلة ، أن يتحدث حديثاً أكثر وضوحاً و يقيناً ، كل هذا ، وكذلك حيي الصادق له ، دفعاني إلى أن تكون لي في علاقاتي ببيرو بافلوفسكي (١) شيء من الحذر الدقيق ، كنت أخاف أن ألمس فيه ناحية حساسة ، وكنت أخاف أن أحدث له المأ.

وكان يلاحظ ، في انتباه شديد ، الحركة التولوسية بين المثقفين ، ويساعد على تنظيم المستعمرات في ولاية سميرسك ، وقد وصف في إحدى قصصه «مستعمرة

١ — اسم كورونين

٢ — اسم كورونين المستعار

الذوات « إخفاق هذا المشروع ذلك الإخفاق السريع .

نصح لى مرة فقال :

— حاول أنت أيضاً أن تعود إلى الأرض ، فقد تلائمك ...

ولكن التجارب القتالة لهواة احتقار الجسد وتغذيته ، لم تكن ترضيني أبداً نعم ، كنت أعرف أن فى نيجنى ب . ج . كورولانكو ، وقد قرأت له « حلم ماكار » ولم تعجبني ، ولست أدرى لم كان ذلك . وكنت أعرف حياة الكاتب من أحاديث روماس عنه ، فقد عاشا معاً فى المنفى فى إركوتسك . ولكن روماس إذا كان يستطيع إلى حد بعيد ، أن يصور الأفكار تصويراً يكاد يكون مجسداً ملهوساً ، فقد كان يتحدث عن الناس فى أسف وفى جفاء وفى إثارة من كره البشر . كانت الأفكار فى عينيه مخلوقات تكاد تكون حقيقة خالدة ، بينما كان الإنسان عنده تجريداً طارئاً وكفى ، وعلى الرغم من أن هذه المجردات الملتحية ذات القدمين ، كانت فى شخص فلاحى كراسنوفيدوف ، تحاول بكل الوسائل أن تجعل حياته مستحيلة ، فإن ذلك كله لم يؤثر فى شيء من عواطفه نحو البشر ؛ إلا فى بعض استثناءات نادرة ، كان ينظر إليهم دائماً كأنهم شيء زائد فوق سطح هذه الكرة الأرضية . كنت مرة أسير مع صديق لى فى الشارع ، فى يوم ماطر ، فقال لى غامزاً :

— كورولانكو !

ومشى على الرصيف فى قدم ثابتة ، رجل بدين قصير ، عريض المنكبين ، يلبس معطفاً مانعاً ، ورأيت لحية مجمدة تخرج من تحت مظلة مبللة .

ذكرنى هذا الرجل بتجار البهائم فى تامبوف ، وعندى أسباب قوية تدفعنى إلى كره الناس الذين هم من هذا الجنس ، ومن أجل ذلك لم أشعر بأية رغبة تدفعنى إلى معرفة كورولانكو ولم توقظ هذه الرغبة كذلك تلك النصيحة التى أسداها إلى يوماً قائد الدرك العام . وهنا أقف لأذكر مغامرة مسلية تصور جانباً من الحياة الروسية الغربية :

ألقى القبض على قبل أن أقابل كورولانكو ، وكان الجنرال بوزنانسكى يضرب يده القرمزية المنتفخة الأوراق التى وجدت عندى ويقول لى ، وهو ينفخ :

— أرى أنك تنظم الشعر ، وبصورة عامة حسناً ، انظم ... قصائد جيدة ... ما ألد قراءتها ...

على أن اللذة التي أحسست بها حقاً هي أن أجد مثل هذا الجنرال قابلاً لبعض الفضائل ، ولم أكن أحسب أن صفة « جيدة » يمكن أن توصف بها أشعاري ، ومن المؤكد في ذلك العهد أن كل المثقفين كانوا لا يوافقون الجنرال على رأيه في الشعر .

وتحدث ا. ا. سفيدرتسيف ، وهو ضابط في الحرس ، ومنفي قديم ، حديثاً طيباً عن الشعسين وخاصة عن فيرا فيجنر ، وكان هذا الضابط أديباً نشر قصصه في مجلات كبرى ، وهو يجيد ثلاثة لغات ، وقد قرأت له مرة بيت فوفانوف « ماذا تقول لي؟ أنا لم أسمع » ، فضرب الأرض بقدمه غاضباً وقال :
— ألفاظ ، ولم لم تسأله عن الساعة ؟ أما ذلك الأبله فسيعد .

ولنعد إلى الجنرال . كان قوى البنية يلبس صداراً بنياً ، نزعت أزواره ، وسروالاً أسمر ذا عصابة ، وسخاً مهترئاً ، وكان وجهه منتفخاً عليه شعرات يديض تلونه أوردة قرمزية ، ورأيت عينيه نديتين مضطربتين ، لهما نظرة حزينة تعب ، وبدا لي منهوذاً يثير الرحمة ، ولكنه لطيف ، وأما سحته فكانت سخنة كلب عجوز من عرق طيب ، لا ينبج قط إلا في تعب وسأم .

وقد عرفت من ملخص الدعاوى عند محام شهير ، أن في حياة هذا الجنرال مأساة ، وعرفت أن ابنته ضاربة على البيان ذات نبوغ ، وأنه هو نفسه حشاش . وكان مؤسس « الجمعية الفنية » ورئيسها في نيجنى ، يناقش في اجتماعاتها أهمية الصناعة الخفيفة ، وقد افتتح في شارع المدينة الرئيسى ، مخزناً تباع فيه منتجات أصحاب الحرف الصغار في المقاطعة ، وكان يرسل إلى بطرسبرج تقارير ضد « رجال زيستفوك » وضد كورولانسكو . وضد الحاكم فارنوف — الذى كان يحب هو أيضاً تسطير التقارير .

كل ما حول الجنرال قدر ، وعلى مقعده النحاسى ووراء منضدته تمتد أغطية سرير عتيقة ، ويخرج من تحت الديوان هذاء وسخ وقطعه كبيرة من الرخام الأبيض

وهناك عند النوافذ ، أو ان تنبت فيها أنواع كثيرة من الازهار من بنفسج وفل و نرجس ، وفي زاوية من الحجرة منضدة كبيرة تتراكم عليها أدوات الطيعة ، وعلى منضدة أخرى أمامي ، كتاب كبير بالفرنسية عن نظريات الكهرباء وكتب لسيشنوف «ردود الدماغ» .

كان الشيخ يدخن دون انقطاع لفائف كبيرة قصيرة أزغني دخانها الكثيف وأوحى إلى هذه الفكرة المضحكة وهي أن التبغ مشبع بالمورفين .

قال لي في لهجة لوم :

— أثورى أنت ؟ رغم أنك لست يهوديا ولا بولونيا ، اسمع إنك تنظم الشعر ، فإذا اطلقت سراحك فاعرض مخطوطاتك على كورولانسكو . أتعرفه ؟ كلا ؟ إنه كاتب كبير لا يقل شأننا عن تورجنيف .

كان الجنرال يرسل رائحة ثقيلة خانقة ، لأعرفها ، ولم يكن يريد الكلام بل كان ينتزع حديثه كلمة كلمة في كسل وصعوبة ، وضجرت ، فطلعت إلى المنضدة فرأيت عليها زجاجة صغيرة فيها شارات معدنية مصفوفة .

ولاحظ الجنرال نظراتي ، فقام ثقيلًا وسألني :

— أتريد أن تراها ؟

وقرب كرسيه من العلبة ثم فتحها وقال :

-- إنها أوسمة تخلد ذكرى حوادث التاريخ وأبطاله ، هذا سقوط الباستيل وهذا انتصار نلسون في أبي قير ، أتعرف تاريخ فرنسا ؟ وهذا هو الاتحاد السويسري . وهذا كالفاني الشهير ، أنظر ما أحسن صنعه . أما ذلك فكوفيه ، ولكنه أقل جودة .

وكانت نظراته تهتز فوق أنفه القرمزي ، وعيناه الرطبتان تتحمسان وتنشطان ، وأصابعه الكبيرة تداعب الأوسمة في رفق كأنها ليست من برونز بل من زجاج ناعم . وقال متمتما :

— فن جميل ، ثم فتح شفتيه ونفخ الغبار عن الأوسمة .

وقد أعجبت وتأثرت تأثراً صادقاً بحمال هذه الشارات ، ورأيت أن العجوز

يحبهافى حنان . وأغلق العلبه وهو يتهد ، وسألنى إن كنت أحب الطيور المفردة وكنت عرفت ، أكثر من ثلاثة جنرالات ، حدثونى جميعاً عن هذا الموضوع ، فقامت بيننا مناقشة من أكثر المناقشات حياة وحماسة .

ونادى الجنرال دركيا ليقودنى إلى السجن . وعلى الباب قام منتصباً حارس شديد البأس ، بينما كان الجنرال يقول لى أسفاً :

— أتعلم أننى لم أستطع شراء صداح ؟ وهو كما تعلم عصفور ممتاز . والخلاصة ما أعجب هذا الشعب ، شعب العصافير . أليس كذلك ؟ حسناً ، مع السلامة . آه نعم ، — وكان كمن تذكر — يجب أن تتعلم وأن تكتب . . . واترك ماعدا ذلك . . .

وبعد أيام كنت أيضاً جالساً عند هذا الجنرال ، وكان يتوعدنى غاضباً :

— أنت تعرف ولا شك أن سوموف قد سافر . يجب أن تقر وتتعترف ؛ وإذا اعترفت أطلقت سراحك حالا . لاتسخر بالضابط الذى يفتش بيتك . . وبصورة عامة . . .

ولكنه فجأة مال إلى ، وسألنى فى لهجة إنسان وصل به الصلاح إلى درجة الضعف . . .

— قل لى ألسنت تصيد العصافير فى هذه الأيام ؟ ومضى على هذه العلاقة المضحكة بالجنرال اثنا عشر عاماً وجلست أيضاً فى مركز درك نيبنى أنتظر استنطاقى . واقترب منى ضابط شاب من ضباط الاتصال وسألنى :

— أتتذكر الجنرال بوزنانسكى ؟ هو والدى وقد توفى فى تومسك . كان كثير الاهتمام بك ، يتتبع نجاحك الأدبى ، ويقول دائماً إنه هو أول من اكتشف نبوغك ، وقد سألنى قبل أن يموت ، أن أهديك الأوسمة التى أعجبتك . فإذا شئت . . .

الحق أنى تأثرت تأثراً صادقا ، مخلصاً . وعندى خروجى من السجن أخذت الأوسمة وأهديتها إلى متحف نيبنى . . .



الفصل الخامس عشر

لم تنلني الخدمة العسكرية . فقد صرح طبيب ضخم مرح يشبه الجزار ،
ويتحرك كما يتحرك هذا في المسلخ ، قال :

— ردى . رثته مخروقة . وريد ساقه متمدد ، غير صالح .

وقد صعدت لهذا حقاً ، ذلك أنى قبل أن أدعى إلى الجندية عرفت ضابطاً
طوبوغرافياً ، يدعى باسكين ، أو باسخالوف ، لا أذكر أيهما هو تماماً ، وكان قد
اشترك في معركة كوشكا ، فوصف لى وصفاً جذاباً حياته في جبهة أفغانستان !
وكان عليه أن يسافر في الربيع القادم ، إلى بامير ليشارك في تخطيط الحدود الروسية
كان كبير الجسم ، قوى العضلات ، ثائر الأعصاب ، يرسم في مهارة كبرى بريشة
ناعمة لوحات صغيرة مسلية رسماً زيتياً ، ويمثل صوراً من الحياة العسكرية ، على
طريقة فيدوتوف . وكنت أحس فيه شيئاً من عدم الانسجام ومن التناقض ،
أو على الصحيح شيئاً غير طبعي . وكان يحضني على الدخول في
شعبة الطوبوغرافيا .

— سأخذك معي إلى بامير . وسترى أجمل ما في العالم : الصحراء . إن الجبل
هو الفوضى ، أما الصحراء فهي الانسجام .

وكان يغمز بعينه الكبيرتين الشحلاوين اللتين تتشرد نظراتهما تشرداً غريباً ،
ويتحدث حديثاً سحرياً عن جمال الصحراء في صوت رقيق لطيف ؛ يخفت حتى
يتحول إلى تمتمة ، وكنت أصغى إليه وقد أخرجت وبهت ، أعجب كيف يستطيع
الناس أن يتحدثوا في مثل هذا الإعجاب ، عن الفراغ : عن رمال لاشاطيء لها ،
وصمت لا تحركه نائمة وسماء تحترق ، ومسافر يقتله الظمأ .

عرف أنى رفضت فقال لى :

— لا بأس عليك ، قدم طلباً تصرح فيه أنك تريد الانتساب ، متطوعاً ،

إلى شعبة الطبوغرافيا وتتعهد بقضاء الامتحانات المطلوبة .
 كتبت الطلب وأرسلته ، وانتظرت النتيجة . وأنا أنتفض ارتقاباً وانتظاراً .
 جاءنى باستخالف بعد أيام مضطرباً قلقاً يقول :
 — يظهر أنك متهم سياسياً .
 ثم أطرق وقال :

— وكيف ساغ لك أن تكتم عنى هذا الأمر ؟
 وأجبت أنه لا أعرف أكثر مما يعرف هو عن هذا « الأمر » وخيل إلى أنه
 لم يصدقنى . سافر بعد قليل ، وقرأت صباح عيد الميلاد فى صحيفة من صحف
 موسكو ، أنه حز حلقة بموسى فى الحمام .
 وتابعت حياتى معقدة صعبة ، فاشتغلت فى مستودع للجنة ، أخرج البراميل
 فى قبور طرب ، وأغسل الزجاجات واختمها . وكان هذا العمل يتص أيامى كلها ،
 ثم دخلت فى مكتب معمل من معامل الفودكا ، ولكن كلب زوجة المدير وهو
 إنكليزى — أى المدير — انقض على فى اليوم الأول ، فضربتة على أم رأسه ،
 ضربة قضت عليه ، فطردت من عملى رأساً ، وأخيراً قررت أن أطلع كورولانكو
 على نشيدى ، وفى يوم عقيب كان رابع أيام ثلاثة استمرت فيها العاصفة الثلجية ،
 فتراكم الثلج فى الشوارع وغطى السطوح بقبعات من الفضة ، وسترزجاج النوافذ
 بستائر بيض ، وشطعت فى السماء المبيضة أنوار تعشى العين ترسلها شمس حادة
 متجمدة ، فى هذا اليوم قررت تنفيذ قرارى .

كان فلاديمير جالاكسيونوفيتش يسكن ضاحية المدينة ، فى الدور الثانى من
 بيت خشبى ، ورأيت على الرصيف أمام السلم رجلاً ضخماً ، قصيراً يحرك فى
 مهارة رفشاً عريضاً ، وعلى رأسه قبعة من الفرو تغطى أذنيه ، وهو يرتدى معطفاً
 قصيراً رديئاً ، لا يتجاوز الركبتين ويتعل حذاء من جلد فيانكا .
 وشققت لنفسى بين الثلج طريقاً الى السلم .

— من تريد ؟

— كورولانكو .

— أنا هو .

ونظرت إلى ، من خلال ذقن مجمدة يكسوها الثلج ، عينان طيبتان زرقاوان ، وكان طبيعياً أن لا أعرف كورولانكو فأنا لم أروجه حين صادفته من قبل في الشارع ؛ واعتمد على رفشه وأصغى إلى في صمت وأنا أقصر عليه الدوافع التي دفعني إلى زيارته ، ثم أغمض قليلا عينيه كمن يبحث عن أمر يحاول أن يتذكره وقال :

— أعرف اسمك . ألم يكتب إلى عنك ، منذ سنتين ، رجل يدعى روماس ميخائيل انطوفيتش ؟ نعم تذكرت ..

وسألني وهو يصعد السلم :

— أما تحب بالبرد ؟ أرى ثيابك خفيفة جدا . ثم قال في صوت خافت ، كأنما يتحدث إلى نفسه :

— إن روماس لرجل عنيد روسي صغير ذكي ، أين هو الآن ؟ في فيانكا ؟ ها ها .. ودخلنا غرفة صغيرة على شكل زاوية ، تطل نوافذها على بستان ، فيها مقعدان اثنان ، وخزان للكتب وكراسي ثلاثة ، فقال لي وهو يجفف لحيته المبللة بمنديله ويتصفح مخطوطي الضخم :

— سنقرأه ... خطك غريب . يظهر لمن يراه بسيطاً واضحاً ولكن قراءته صعبة . ووضع المخطوط على ركبته ، والقي على الأوراق وعلى نظرات ماثلة ، وشعرت بارتباك .

— كتبت هنا مصير إنها هفوة قلم ؛ وهي صرير . ولقد أفهمتي وقتها القصيرة قبل كلمة — هفوة — أن كورولانكو يستطيع أن يراعي كرامة من حوله .

— كتب لي روماس أن الفلاحين حاولوا نسخه ثم أضرموا النار في بيته . هل هذا صحيح ؟ وهل كنت معه في ذلك العهد ؟

كان يتكلم وهو يتصفح المخطوط .

— يجب أن لاتستعمل الكلمات الأجنبية ، إلا إذا لم يكن لك منها مناص .

وخير لك أن تتجنبها دائماً ، فاللغة الروسية غنية غنى كافياً ، وفيها ينابيع قادرة على التعبير عن الإحساسات المختلفة وعن الفروق الدقيقة في الأفكار .
قال ذلك عرضاً وهو لا يزال يسألني عن روماس وعن الريف .
تم قال لي بفتة .

— ما أقسى وجهك ! وسألني وهو يتسم — أترى الحياة عسيرة عليك ؟
كان كلامه العذب يختلف اختلافاً بيناً عن لهجة الفولجا القاسية ، ذات الواو المشددة . ومع ذلك فقد رأيت أنه يشبه بحارة هذا النهر شبحاً لا يبدو في بنيته القوية وصدرة العريض ولا في نظراته الخبيثة التي تشع من عيني ذكيتين فحسب ، بل في هذه الوداعة الهادئة الخاصة بأولئك الرجال الذين يرون الحياة تجري كما يجري النهر الأعوج بين الرمال والمغاوير .

— إنك تحيز لنفسك غالباً تعبيرات جافية يظهر أنك تراها قوية . وقد يقع هذا أحياناً .

وأجبت أنه أدرك ميله إلى الجفاء ولكن ليس إلى الزمآن الذي أستطيع فيه أن أنال ثروة من الكلمات العذبة الرقيقة ، والعواطف الحلوة . وليس لي كذلك المكان الذي أستطيع أن أدركها فيه .

ونظر إلى في انتباه ، وتابع في عذوبة .

— تقول: لقد خلقت كي لا أستسلم «لأنه كذلك»...لأنه كذلك..أرأيت أن في هذه الجملة دورانا غير جميل ولا ماهر ؟ ألتشعر بذلك ؟

سمعت كل هذا لأول مرة وشعرت تماماً بصواب هذه الملاحظات .

وكان في نشيدي إنسان يتدلى على خرائب معبد فقال كورولانكو وهو يتسم — هذا المكان لا يلائم هذا الوضع ، ثم لاحظ «هفوة وهفوة وهفوة» صعقتني

كثرتها . فاحمر وجهي ، فكأنه قطعة من حجر ملتهب . ورأى كورولانكو ماحل بي ، فحدثني وهو يتسم عن أغلاط كليب أوسبانسكي ؛ وقد كان ذلك كرمأ منه ، ولكنني كنت لا أسمع شيئاً ولا أعنى شيئاً ، ولم يكن لي إلا أمل واحد هو الفرار ، فقد كفاني ما لقيت من خجل . ألا يعرف الناس أن المتأدين والممثلين

يجبون ذاتهم كما تحب الكلاب الصغيرة نفسها ؟
مضيت ، وقضيت عدة أيام ، أفاسى ضغطاً فكرياً أسود. رأيت في كورولانسكو
كاتباً لا يشبه في شيء كورونين المحبوب غير المتوازن ، أما ستاروستين المضحك
فلا داعي للحديث عنه ، ورأيت كذلك أن ليس من صلة تصل بينه وبين
سفيد انتسوف اي فانوفيتش السوداوى ، مؤلف تلك القصص الثقيلة الذى قال لى
ذات مرة :

— يجب أن تقع القصة على روح القارئ وقع العصا على الجسد حتى يشعر
شعوراً تاماً أنه حيوان وأى حيوان .

أما كورولانسكو فقد كان هواه هواى ، وكان أول من حدثنى حديثاً متوازناً
إنسانياً ، عن أهمية الشكل والصورة ، وعن جمال الجملة والعبارة ولقد أخذت بما
فيه من صدق بسيط وأدهشنى أن الصدق قريب تناوله وشعرت ، وأنا أصغى إليه ،
شعوراً خائفاً بأن الكتابة ليست عملاً هيناً يسيراً .

مكثت معه ساعتين أو أكثر فحدثنى عن أشياء كثيرة ولم يقل لى كلمة واحدة
عن موضوع نشيدى .

وعرفت عند ذلك ، أنى لن أسمع فى هذه الناحية شيئاً طيباً .

وبعد خمسة عشر يوماً حمل الى . أ . و . درياجين مخطوطى ، وكان درياجين
أشقر جميلاً ذكياً ، فقال لى جازماً :

— يرى كورولانسكو أنه قد أفزعك . ويقول إن لك مواهب ولكن يجب
أن تكتب كتابة طبيعية لا تتفلسف فيها ، ثم إن لك لتهكماً ، وإن كان شديداً
بعض الشدة ، ولكنه حسن . أما شعرك فهذيان . وقرأت على غلاف المخطوط
« من العسير ، إذا نظرنا الى «أغنيثك» أن نحكم على استعداداتك ، ولكن
لك استعدادات فيما يظهر . اكتب موضوعاً عشته أنت شخصياً ، وأطلعنى
عليه إذا ما كتبتّه ، وأنا لا أستطيع اكتناء الشعر . وقد بدت لى أبحاثك غير
مفهومة ، على الرغم من أن بعضها قوى ملون» .

ولم أجد كلمة واحدة عن صميم القصيدة ، و « أعماقها » فإذا قرأ منها هذا
الرجل الغريب ؟

سقطت ورقتان من المخطوط على الأرض، فيهما قصيدتان، أما أولاهما فعنوانها: «مقالة الجبل لمن يستيقظ» وأما الثانية فعنوانها «حديث الشيطان والدولاب» ولست أتذكر تماماً موضوع حديثهما، ولعله عما في الحياة من دوران، متواتر رتيب، ولست أذكر كذلك مقالة الجبل لمن يهب من نومه. مزقت القصيدتين ومزقت المخطوط وألقيت بها كلها في الموقد المشتعل وجلست على الأرض أفكر في معنى قوله «اكتب ما عشته».

إن كل ما في الموقد من الأغنية عشته أنا شخصياً، أما القصيدتان فقد سقطتا سهواً في المخطوط، وكانتا أعمق ما أسره وأخفيه، ولم أطلع عليهما أحداً، وكنت أنا لا أفهمهما فهما كاملاً.

رأيت أصدقائي يفضلون على بوشكين، وعلى قصائد فوفانوف أيضاً، ترجمات كوني، وریشبان، وغيرها من القصائد من هذا الطراز، وكان ترجمها لبخاتشيف وباريكوفا ورأيتهم يعتبرون نيكرا سيف ملك الشعر وكان الشباب يعجبون بندسون أما الكهول فكانوا يقرون به متحوزين.

كان أصدقائي يعتبرونني رجلاً جاداً غير عابث، ويحدثني أفاضلهم، ممن أحترم، مرتين في الأسبوع عن أهمية الصناعة الصغيرة وعن مطالب الشعب وواجبات المثقفين وعن عدوى الرأسمالية التي إن تصيب روسيا الفلاحة الاشتراكية أما الآن وبعد هذا الحادث فماذا سيكون؟ سيعرف الناس أجمعون أنني أنا الذي كتبت تلك الأشعار الهاذية، ولكم خشيت أن يغير هؤلاء من رأيهم الطيب في، فقررت أن لا أكتب شعراً، وأن لا أكتب نثراً، والواقع أنني لم أكتب شيئاً خلال إقامتي كلها في نيجني، وقد امتدت سنتين كاملتين. وهكذا حملت إلى النار المطهرة ثمرة تجاربي وقدمتها قرباناً لها وأنا عليها جد آسف وحزين.



الفصل السادس عشر

سهرت ليلة من ليالى الصيف على ضفاف الفولجا ، أنظر إلى السهول القاحلة وراء النهر ، وأرمق مجراه من خلال الأغصان ، كان كورلانكو جالساً على مقعد بالقرب منى ، لا أراه ولا أسمع ، ولم أحس به إلا عندما دفعنى بمنكبى وهو يقول : — هيه . أى حلم أنت غارق فيه ؟ لقد أردت أن أسلبك قبعتك ، ثم خشيت أن أزعبك .

كان يسكن بيتاً بعيداً عن هذا المكان ، فى الجانب الآخر من المدينة ، والساعة الآن قد جاوزت الثانية صباحاً ، كان جالساً منهوك القوى ، وهو يسمح وجهه بمنديله ، ورأسه ذو الشعر الأجعد حاسر .

— أفى مثل هذه الساعة تتنزه ؟

— أتشركنى فى العمل ، وتفردنى بالتعجب ؟

— ذلك ما كنت أبغى ، لقد تأخرنا كلانا فى نزهتنا . وكيف حالك ؟

وماذا تصنع ؟

وبعد جمل كثيرة لا معنى لها سألتى :

— قيل لى إنك عضو فى منظمة بافل سكفور تسوف . فما رأيك فيه ؟

كان ب . ن . سكفور تسوف فى ذلك العهد ، أحد من يعرف نظرية ماركس معرفة جيدة ، ولم يكن يقرأ إلا « الرأسمال » وكان بذلك نخوراً . وقبل سنتين تقريباً ، من نشر كتاب ب . ف . ستروفى « ملاحظات انتقادية » ألقى سكفور تسوف فى قاعة المحامى تشيچلوف بحثاً يذكر فيه مثل آراء ستروفى ، ولكنها كانت أكثر حدة وأوفر جرأة .

وقد جعله هذا المقال هرطقياً ، ومع ذلك فلم يحل هذا بينه وبين أن يضم حواليه حلقة من الشباب لعب كثير منهم فيما بعد دوراً ممتازاً فى تشكيل الحزب الاشتراكى — الديمقراطى .

كان حقاً إنساناً « ليس من هذا العالم » زاهداً متقشفاً يتنزّه شتاءً وصيفاً ، وهو يرتدى معطفاً خفيفاً ، ويلبس حذاءً منقوباً ، ويأكل كل أكل لم يشبعه قط ، ومع ذلك فقد كان منهسكاً أيضاً في « القضاء على شهواته » فبقي بضعة أسابيع وغذاؤه السكر وحده بمعدل ١٠٠ جرام في اليوم ، لا أكثر ولا أقل . ولقد أدت هذه التجربة الغذائية الاقتصادية المقننة إلى إنهاك قواه العضوية العامة وإلى إصابته بمرض خطير في الكبد .

كان قصير القامة . أشهب ، في عينيه الزرقاوين ابتسامة ذلك الإنسان المختار الذي يعرف الحقيقة التي لا ترد ، في كل سعتها وامتدادها فيما يتصل بكل موجود ماعده . كان يعامل كل الهراطقة ، في كره خفيف ناعم ، ليس فيه أثارة من احتقار . وكان يدخل لفافات غليظة يزرعها في حامل طوله قدم ، يحمله كالخنجر في منطقتة .

رأيت بين عصبة من الطلاب يغزلون مغازلة مشتركة ، فتاة نادرة الجمال ، قدمت المدينة من قريب ، وكان سكفور تسوف ينافس الشبان الظرفاء الرشيقين ؛ فيدور هو أيضاً حول الفتاة ، رمادياً أغبر ، كالديخان الخانق الذي حوله ؛ وفي فمه لفافته الطويلة . كان ذلك مضحكاً جليلاً الإضحاك ، وقف صاحبنا في زاوية أمام الموقد الأبيض ، ينشر في نظام وهدوء ، وفي لهجة الانفصالي الموقن وفي كلمات رصينة ، آراءه في إنكار الشعر ، والموسيقى ، والتمثيل والرقص ؛ وكان ينفث الديخان على الفتاة دون انقطاع .
— قال سقراط : إن الانحرافات مضرة .

وبدت له هذه الوثيقة صحيحة ، لا يأتينا الباطل ، من بين يديها ولا من خلفها ؛ ولقد أصغت إليه الفتاة الرشيقة ، ذات الشعر الكستنائي ؛ والشوب الأبيض الموصلي وهي تؤرجح عابثة قدمها الصغيرة ؛ وثبتت على الفيلسوف ؛ في لطف مصطنع ، نظرة عينيهما الشهلأوين الرائعتين ، هذه النظرة التي كانت فتيات أثينا الجميلات يلقينها من قبل على سقراط الحكيم ذي الأنف الأفطس . وكانت نظرتها تقول له خرساء ولكنها فصيحة :

— متى تنتهى ؟ متى تروح ؟

أما هو فظل يثبت لها أن كورولانكو أشد المثاليين والمتأفين يقين خطراً ،
وأن كل الأدب — وكان لا يقرؤه — « يجتهد فى رد الحياة إلى جثة الشعبية
المتفسخة » وأخيراً أعاد إلى منطقته حامل لفائفه ومضى ناعساً ، وقد شيعته الفتاة
ثم استلقت على المقعد محطمة — وفى كثير من الدلال طبعاً — وصرخت شاكية :
— يا إلهى . ولكنه ليس رجلاً ، إنه يوم من أيام المطر .

أصغى كورولانكو إلى مبتسماً ، وظل زمناً صامتاً ينظر إلى النهر ، وهو
يغمض عينيه ، ثم شرع يقول فى صوت خافت وفى صداقة :

— لا تعجل فى اختيار عقائدك ، ولقد قلت اختيار العقائد ، لأنى أرى الناس
اليوم لا يصنعونها ، ولكنهم ولاشك يختارونها . وهكذا أصبحت المادية طرازاً
حديثاً فى سرعة ، فهى تغرى ببساطتها ، وتجذب خاصة أولئك الذين فيهم كسل
التفكير بأنفسهم ، ولقد تقبلها الأغرار متطوعين ، وهم الذين يغيرهم كل جديد ،
وإن كان لا يلائم طبائعهم وأذواقهم ونزعاتهم .

وظل يتكلم مكرراً كأنه يحدث نفسه ، ويقطع أحياناً حديثه . فيصغى إلى
صفارة تدوى فى مكان ما هناك على الشاطئ ، أو إلى مجاذيف زورق تضرب الماء
أو إلى بوق يرن على النهر ؛ ثم قال :

— إن كل محاولة معقولة فى تفسير حوادث الحياة ، تستحق الانتباه
والاحترام ؛ ولكن يجب أن لاتنسى أن الحياة تتألف من أقواس لاتخصى
متشابهة تشابكاً عجيباً ، متقاطعة تقاطعاً غريباً ، وأن الصعوبة كل الصعوبة قائمة
فى حصرها فى مربع المنشآت المنطقية .

ثم قال وهو يتهد ويروح بقبعته :

— عسير عليك أن تضع هذه الأقواس المتقاطعة فى أعمال الناس وعلاقاتهم
ضمن نظام من الأنظمة مهما كان هذا الوضع نسبياً .

ولقد رضيت بساطة حديثه ، ولهجته العذبة المتأملة ، أما كل ما يتعلق بصميم
الموضوع ، مما ذكر عن الماركسية ، فقد كنت طالما سمعته ، وإن اختلفت على صور

التعابير. وسكت كورولانسكو فسألته مسرعاً : من أين له هذا الهدوء وهذا المرح المستمر المتساوى ؟

وأعاد قبعته إلى رأسه ، ثم حلق في وجهي وأجاب مبتسماً :
— أنا أعرف مايجب على أن أقوم به ، وأنا مقتنع بفائدة ما أقوم به ، ولم تسألني هذا السؤال ؟

وشاركته عندئذ في شكوكي وفيما يقلقني ، فابتعد عني ، ثم انحنى على ليراني تماماً ويتفرس بي ، وأصغى الى في صمت منقبه ، ثم قال في رفق :
— ذلك حق . وملاحظاتك صحيحة .

ثم ابتسم ووضع يده على كتفي وقال :
— كنت أظن أن مثل هذه القضايا لا تشغل بالك ولا تقلقك ، ولقد حدثوني عنك كرجل ذي طبع ... مرح ، هجومي قليلاً ، يكره المثقفين
وعندئذ حدثني عن المثقفين في قوة خاصة . إنهم كانوا في كل زمان ، وفي كل مكان منفصلين عن الشعب ، وذلك لأنهم يمشون أمامه — فين ذلك كان دورهم التاريخي :

— إنهم خميرة كل تخمر شعبي ، وهم حجر الأساس في كل صرح جديد :
سقراط ، جيودارنو برونو ، جاليلي ، روبسبير ، أصحابنا من الدسمبريين ، بيروفسكايا جوليا بوف ، وكل أولئك الذين لا يزالون يتحملون آلام الجوع في المنفى ، وكل أولئك الذين لا يزالون ، هذه الساعة من الليل ، ساهدين ساهرين ، يدرسون ويطالعون ، استعداداً للنضال في سبيل العدالة ، وكل أولئك الذين ينتظرون السجون ، أولئك هم أعظم قوة حية في الحياة ، وأولئك هم أشد أسلحتها إحساساً ومضاء .

وكان قد نهض ثم مضى رائحاً غادياً أمام المقعد ، وتابع هائجاً .
— لقد بدأت الإنسانية تخلق تاريخها في اليوم الذي ظهر فيه أول مثقف ، فأسطورة بروميتيه هي تاريخ الإنسان الذي عرف إيقاد النار ، ففصم عندئذ ، بضربة واحدة ، بين الإنسان والحيوان . لقد أدركت إدراكاً صحيحاً أخطاء

المثقفين وما فيهم من كتيبة وتخلع جذور . ولكن المهم أن نعرف إذا كانت هذه الأخطاء أخطاء حقيقية، إنا نضطر أحياناً لكي نرى جيداً إلى أن نبتعد عما ننظر إليه لا إلى أن نقرب منه واستمع إلى ، فقد جربت الدنيا أكثر منك ، أنصحك نصيحة صديق : زد في اتباعك إلى حسنات الناس وتجاوز عن عيوبهم فتعداد عيوب الناس لن يذ كثير الإغراء . إن فولتير ، على عبقريته ، كان إنساناً شريفاً ، ومع ذلك فقد قام بمهمة عظيمة فدافع عن رجل اتهم ، وحكم عليه جوراً وظاهماً . لست أتحدث عن تلك الأحكام السابقة المظلمة ، التي هدمها ، ولكني أتحدث عن ذلك الدفاع العنيد عن قضية نفض الناس أيديهم يأساً منها ، نعم إن ذلك عمل خطير: لقد فهم أن الإنسان يجب أن يكون قبل كل شيء إنساناً ، وأن العدالة ضرورية له ، وأنها ستجتمع وتتراكم شراراتها شيئاً فشيئاً وستتحول إلى نار عظيمة تحرق كل ما على الأرض من كذب ووحل ، وعند ذلك فقط سنرى تحول ما في الحياة ، من تكاليف قاسية حزينة مخجلة . يجب أن نعمل في عناد ، دون أن نوفر شيئاً أو شخصاً ، على إشباع الحياة بالعدالة — هذا ما أفكر فيه وأذهب إليه .

وبدا عليه التعب ، فقد تكلم مدة طويلة ، فجلس على المقعد ، ينظر إلى السماء ويقول :

— ما أدري إن كنا مصبحين ، أو ممسين ، فالأفق منير . والسماء تنذرنا بالمطر فيما أرى ، لقد آن لنا أن نعود

وكنت أسكن على بعد خطوتين ويسكن هو على بعد فرسخين ، فعرضت عليه أن أرافقه ومضيئنا في شوارع المدينة النائمة تحت سماء قاتمة الغيوم .

— ولكن ! هل تكسب ؟

— كلا .

— ولماذا ؟

— لا وقت عندي .

— تلك إذن مصيبة ، ومع ذلك فأنت مخطيء لو أردت لخلقت الزمن .

أنا أرى حقاً أن لك استعدادات ولكن جسمك شاذ ، ياسيدى ...

ثم شرع يتحدث عن كليب أوسبانسكى الذى لاينى ولا يفتر ، وداهمنا غيث صيفى غزير ، غطى المدينة ، بشبكة قاتمة ، فالتجأنا إلى بوابة نحتى فيها ثم رأينا أن المطر سيمتد ويطول فافترقنا . سافرت إلى تفليس ثم عدت منها إلى نيجنى وكان كورولانكو فى بطرسبرج ، وكنت عاطلا عن العمل فكتبت بضع قصص صغيرة . أرسلتها إلى « بريد الفولجا » لصاحبها رينهاردت وكانت فى هذا العهد أكثر جرائد المقاطعة أهمية بفضل اشتراك كورولانكو المنظم فيها . ووقعت القصص بالحرفين — م . ج ، وقد نشرت سريعاً . وأرسل إلى رينهاردت كتاب ثناء ومبلغاً كبيراً من المال ، لا يقل عن ثلاثين روبلا ، ولقد حرصت على إخفاء وضعى الجديد ككاتب حرصاً شديداً حتى عن أقرب أصدقائى إلى مثل أ . ز . فاسيايف وأ . ا . لاين وذلك لأسباب لا أتذكرها اليوم .

لم أكن أعلق على هذه القصص كبير أهمية ، ولم أدر أنهاهى التى ستقر مصيرى وقد ذكر رينهاردت اسمى إلى كورولانكو وقيل لى حين عاد من بطرسبرج ، إنه يريد أن يرانى .

كان لا يزال يسكن فى آخر المدينة ، وفى نفس البيت الخشبى ، ووجدته جالساً أمام مائدة الشاى ، فى الغرفة الصغيرة ، التى غصت بالكتب والجرائد ، وأطلت نوافذها التى تكسوها الأزهار على الشارع .

كانت امرأته وأولاده ، قد انتهوا جميعاً من شرب الشاى ، واستعدوا للخروج إلى النزهة وظهر لى كورولانكو أكثر قوة من دى قبل ، وأكثر ثقة بنفسه ، وأكثر تجعداً .

— الان اتبيننا من قراءة قصتك — « كنار » . إذن فقد بدأت الصحف تنشر لك . تهانى لك ولكن ماأشد عنادك ، إنك ما تزال تؤثر التعريض والرمز وهما جيدان إن كان فيهما ذكاء ، كما أن العناد ليس أمراً مكروها .

ثم قال لى كلمات طيبة ، وهو ينظر إلى فى عطف ، وعيناه يكاد يغمضهما ، ورأيت لفحة الصيف قد لوحت جبهته وعنقه ، وأزالت لون لحيته . وكان يلبس

قيصاً من القطن الأزرق ، وحزاماً من النحاس وسروالاً أسود يختفي في حذائه ،
وخيل إلى أنه آت من بعيد ، وأنه يريد أن يعود إلى البعيد . وعيناه الهادئتان
الذكيّتان ، تسطعان حذرّتين مرحّتين .

قلت له إنني كتبت قصصاً أخرى ، وإن إحداهما نشرت في جريدة « القوقاز »
— ألا تحمل معك ما نقرأ ؟ تلك إذن خسارة . إنك لتكتب كتابة ذات
طابع جد شخصي ، ولا يقوم أمامك قائم ، كل شيء فيك محصور ، ولكنه طليعة ؛
يقال إنك طالما تنقلت على قدميك ، وأنا أيضاً قمت بنزهاتي ، طيلة فصل الصيف
في الشاطئ الآخر من القوقاز . وأنت أين كنت ؟

حدثته في اختصار عن رحلاتي ، فصرخ موافقاً مسروراً :
— إذن فقد طوفت في الآفاق ، لذلك فقد أصبحت في خلال هذه السنوات
الثلاث أقوى أيداً وأشد رجولة .

قرأت له قبل أن أزوره رواية « النهر اللعاب » فأعجبني جمالها وموضوعها
كثيراً ، فحدثته في حماسة عنها ، وأنا مفعم بفضل مؤلفها على .
كانت شخصية تولين التي أبدعها كورولانكو ، مثالا لفلاح روسيا الكبير ،
فهم حق الفهم وأدى خير الأداء ، وهو بطل ساعة واحدة . إن مثل هذا الرجل
يستطيع في سهولة وبساطة أن يقوم بعمل كريم ، ثم هو بعد قليل ، يضرب
امراته حتى يغادرها بين الموت والحياة ، ويكسر رأس جاره بفأسه ، إنه قادر
على أن يسحر لبك بابتساماته الطيبة ، وبألف كلمة وكلبة تنبثق من القلب ، زاهية
كالأزهار ، ثم هو فجأة ، وبدون سبب ، يمشي على وجهك بقدميه الوحلتين ؛ إنه
قادر مثل قدرة لوسيامينين على تنظيم حركة شعبية رائعة ثم تراه يستهتر في الخمرة
ويسلم نفسه فريسة للقمل .

أصغى إلى كورولانكو ، ولم يقاطع حديثي الذي جعلته نظراته مضطرباً
ماجلجلاً ، كان يغمض عينيه حيناً ، وينقر على المكتب أحياناً ثم نهض واستند
إلى الجدار ، وقال لي وهو يتنسم في عطف وحب :

— لقد بالغت ، ولنقل كلمة أبسط من كل ذلك ، لنقل إن الرواية ناجحة

وذلك يكنى . أنا لأخفى عليك أنها تعجبني . نعم إنها ناجحة . ولكن أحق أن الفلاح ، بصورة عامة ، مثل تولين ؟ ذلك مالا أعرفه . ولكن حديثك طيب فيه تموجات وألوان والتفاتات متينة . اسمع أرد إليك ما كنت لى من مديح . أشعر أنك قرأت كثيراً وتأملت كثيراً ، وأنا أهتئك بذلك من أعماق قلبي .

ومد إلى يداً جعلها المنشار والفأس شثة قاسية ، فقد كان يجب تكسير الحطب ، فصاغتني ثم قال لى :

— حدثني عن مشاهداتك .

وحدثته ، فيما حدثته ، عن لقائي لكثير من الباحثين عن الحقيقة . إنهم يطوفون مئات ومئات من مدينة إلى مدينة ، ومن دير إلى دير في الطرقات الروسية ، فقال كورولانسكو ، وهو ينظر إلى ما وراء النافذة ، في لهجة مفكرة غارقة في التفكير :

— إنهم في غالبهم جبريون ، وأبطال مخفقون يحبون أنفسهم حباً سحرياً ، ولقد لاحظت أنهم كلهم أو أكثرهم رجال خبياء ، لا يبحثون قط عن « الحقيقة المقدسة » ، ولكن عن كسرة سهلة من الخبز ، وعن إنسان يستغلونه ويستثمرونه . ولقد صعقتني فجأة هذه الكلمات الهادئة المتأملة ، التي كشفت لى عن حقيقة كنت أحس بها إحساساً غامضاً مشوشاً .

— إن بينهم قصاصين ممتازين ، لغتهم غنية خصبة ، وبعضهم يتحدث فكاً بما يطرز ثوباً من حرير .

لقد كان هؤلاء « الباحثون عن الحقيقة » و « حجاج المدينة الفاضلة المستقبلية » أبطال الأدب الشعبي المقدمين ؛ وهما هو كورولانسكو يهتمهم بأنهم جبريون وأنهم كذلك رجال خبياء . ولقد أخذت هذه الكلمات ، التي تكاد تكون تنبؤات خارقة ، في فم كورولانسكو لهجة حازمة مفكرة ، فزادت في شعورى بالتضامن الأخلاقي الذي يوحيه إلى .

— وهل زرت فوليني وبودولى ؟ إن تلك الأرجاء رائعة .

وحدثته عن جان دو كرونستادت ، فصرخ في لهفة :

— وما رأيك فيه ؟ وكيف تراه ؟

— هو مؤمن مخلص مثل الكثيرين من القساوسة الجهلاء في الريف ، نبيل وطيب . ويخيل إلى أن شهرته تخيفه ، وتثقل عليه ، وأنها أطول منه . وإنك لتحس فيها أنها كانت عرضاً واتفاقاً ، وأنها لاتتعلق بإرادته الشخصية . وهو لايفتر عن سؤال ربه : أكذاك يارب ؟ وهو يخشى دائماً أن لا يكون ذلك كذاك .

وقال كورولانكو مفكراً :

— كل ذلك غريب :

ثم حدثني هو عن محاوراته للفلاحين في لركيا بوف ومقاطعات كيرجينييس في تهكم نافذ ، وكان يستطيع أن يستخرج من تعابير محدثيه ، خليطاً مضحكاً من الجهل والحياة ، وألح في مهارة على ذوق الفلاح السليم وعلى حذره من الغرباء . ثم قال :

— أرى أحياناً أن ليس في العالم حياة عقلية أكثر تنوعاً من حياتنا نحن هنا في روسيا . وإذا لم يكن ذلك حقاً فإن فيها ، على كل حال ، تنوعاً لانهاية له في طبائع الناس المؤمنين ، والمفكرين ، الذين نعيش بين ظهرانيهم . وتحدث في رصانة وتفكير ، عن ضرورة دراسة الحياة العقلية في الريف دراسة جديده ، ثم قال :

— إن علم أحوال الشعوب « الاتنوجرافيا » لا يكفي لمعرفتها ، فيجب أن نقاربها بمقاربة أعمق وأدنى . والريف هو الأرض التي يجب أن نبذر في تربتها في مهارة ونشاط بذور « الحكمة والصلاح والخلود » . كان لي في هذا الصيف حوار بيني وبين شاب ليس أبداً غيبياً ، ولكنه كان يريد جداً إقناعي بأن هجرة الفلاحين من القرية ظاهرة من ظواهر التقدم . فالهجرة تسمى الرأسمال : وزعم كذاك أن روسيا ستصبح في المستقبل دولة رأسمالية .

وضحك وهو يشيعني ، وتمنى لي مرة أخرى نجاحاً طيباً فسألته :

— إذن فأنت ترى أني أستطيع الكتابة ؟

فصرخ فى شىء من الدهشة :

— ولكن ذلك مؤكد ، بل إنك كتبت ونشرت فعلاً ، وماذا تريد أكثر من ذلك ؟ تعال واطلب إلى زمائى ، واحمل إلى مخطوطاتك نتحدث عنها .
وخرجت من لدنه مرحاً خفيفاً ، خفة إنسان سبى فى ماء غدير بارد فى غابة ، بعد نهار قاتظ مرهق .

أوحى إلى كورولانكو ، شعوراً راسخاً من الاحترام ، ولا أدرى لم لم أحس بشىء من الميل إليه ، وكنت لهذا متألماً ، ولعل ذلك عائد إلى أن الحماة والمرشدين كانوا يشقون على بعض الثقل ، وكنت شديد الرغبة فى التخلص منهم ، وفى لقاء إنسان يتحدث إلى ، وأتحدث إليه ، فى بساطة أخوية ، عما يعتلج فى نفسى .
كنت إذا حملت إلى الأساتذة نسيج مشاعرى الشخصية فاسوة ، وفصلوه ، وخاطوه على مايرون من طراز ، ومن تقاليد ، تتفق مع مقاييس السياسة والفلسفة اللتين كانوا هم خياطيه ومفصليها . وشعرت أن من المستحيل عليهم أن يخطوا أو أن يفصلوا على شكل آخر . وأنهم من أجل ذلك يخرقون نسيجى .

حملت إلى كورولانكو بعد خمسة عشر يوماً ، مخطوط رواية « الصياد والحرورية » وقصة « الشيخة ازيجيل » ولم أجده فى بيته ، فتركتهما له ، وجاءنى بعد ذلك كتاب منه ، يقول لى فيه : « تعال مساء نتحدث . ك »

واستقبلنى على السلم والفأس فى يده . وقال لى وهو يحرك فأسه :

— لا تظن أنها هى سلاح النقد . كلا ، لقد كنت أصنع رفوفاً فى سقيفة ، ومع ذلك فإن نوعاً من قطع الأعناق فى انتظارك .

كان وجهه يلمع بالمرح ، وعيناه تملأهما بسمة طروب ، وكان كالفلاحة الروسية الطيبة التى تتمتع بالعافية تفوح منه رائحة رغيف طازج خرج حديثاً من التنور . قال :

— لقد كتبت طيلة ليلتى هذه ثم نمت بعد طعام الإفطار . فلما استيقظت شعرت بأن على أن أشغل نفسى قليلاً .

كان لا يشبه فى شىء ذلك الرجل الذى رأيته منذ خمسة عشر يوماً . لم أشعر

قط فيه بالأستاذ ولا بالمعلم بل وجدت أمامى رجلاً طيباً صديقاً لكل ما فى الوجود.
تناول من على المنضدة مخطوطاتى ، وضرب بها ركبته وقال :

— قرأت روايتك ولو أنها كتبتها آنسة طالعت كثيراً أشعار موسىه والى ترجمتها
تلك الشيخة الطيبة ميسوسكيا أيضاً ، لقلت لهذه الفتاة الظريفة :
« لا بأس يا آنسى ولكن تزوجى » ولكن الغريب أن شيطاناً كبيراً مثلك
يكتب هذه الأشعار الرقيقة . ذلك شئ فطيع ، بل هو أكثر من ذلك ، إنه
جريمة ، ومتى بضت هذه الرواية يا صاحى ؟
— كتبتها فى تغليس .

— وجدت فيها روح التشاؤم فاعلم يا صاحى ، أن التشاؤم فى الحب مرض
من كان فى مثل سنك ، وهو أكثر النظريات مخالفة للواقع العملى . إننا نعرفكم
يامعاشر المتشائمين ، ولقد سمعنا أخباركم ... ثم غمز بعينه غمرة خبيثة وضحك
وقال جاداً غير عابث :

— لا يمكن أن ننشر من هذه المجموعة إلا قصيدة « الصياد والحورية » فهى
قصيدة فذة وسندشرها . أما « الشيخة » فهى أحسن منها كتابة وأكثر منها جاداً
ولكنها أيضاً رمز وتعريض . والتعريضات لا تجدى شيئاً . ألم تكن أنت فى
السجن ؟ وإذن ، فستعود اليه . ثم فكر وهو يتصفح المخطوط وقال :

— كتابك هذا كتاب غريب ، وهو من صميم الرومانطيقية . ولكنها
ماتت منذ أمد بعيد وأنا أشك كثيراً فى أن يكون لازار هذا أهلاً للبحث
والنشور . يخيل إلى أنك لا تغنى بصوتك وأنت لا ترسل نفسك على سجيتها .
أنت واقعى لارومانطيقى . أجل أنت واقعى . وجدت مقطوعاً ، تذكر فيه ذلك
البولونى ، ورأيت أنه بارز الشخصية بروزاً خاصاً ، ألسنت ترى ذلك معى ؟
— هذا ممكن .

— آه ، آه ، رأيت ؟ لقد قلت لك ذلك . نحن لا نعرفك إلا
قليلاً . ولكن ماهو شخصى أمر لانتطيع له قبولا . يجب أن تتخذ نفسك منه ،
وأعنى بالشخصى ما كان كذلك بمعناه الضيق !

وتحدث حديثاً غزيراً وهو مقتبط مرح . كانت عيناه تلتمعان لمعاناً عظيماً وكنت أنظر إليه في دهش متزايد كأنى أراه للمرة الأولى ، ثم ألقى كورولانكو المخطوط على المنضدة ، واقترب منى ، ووضع يده على ركبتي .

— اسمع : أتريد أن أتحدث إليك حديثاً أكثر بساطة ويسراً ؟ إذن . نخذ عنى ما أقول لك : أنا اعرفك معرفة قليلة ، ولقد سمعت الناس يتحدثون عنك كثيراً ، ولاحظت أنا نفسى غير قليل من الأمور . إن حياتك شاقة ولست أنت فى المكان الذى يليق بك . وفى رأى أن عليك أن تغادر هذه البلاد ، أو أن تزوج فتاة طيبة وغير حمقاء .

— ولكنى متزوج .

— ومن هنا جاء الشر !

وقلت له أنى لا أستطيع مقاربة هذا الموضوع ، فقال :

— إذن فمعدرة .

وشرع يمزح ، ثم سألنى بغتة سؤال مشغول :

— آه أسمع ما يشاع من أن روماس قد ألقى القبض عليه ؟ أذلك منذ زمن بعيد ؟ أنا لم أسمع بذلك إلا أمس . أين ؟ فى سمولنسك ! وماذا كان يصنع فيها ؟

والحق أنه قد وجدت ، فى منزل روماس ، مطبعة صحيفة (الدمقراطيين) التى أسسها ، وقال كورولانكو مفكراً :

— إنه لرجل نشيط . وسينفى من جديد ! وكيف صحته ؟ هو من أشد الفلاحين

بأساً وأصلابهم عوداً ،

ثم تنهد وهز منكبيه العريضين :

— كلا ، كل ذلك غير صحيح ، وهو لن يردى إلى شىء . ولقد كانت قضية

استيروف درساً لنا وعظة . إنها تعلمنا ما يلى : قم بعمل غامض ، بعمل شرعى وانقطع إلى العمل التربوى فى كل يوم . إن الارستقراطية ضرر مريضة ، ولكنها قوية ، جذورها راسخة عميقة ، وجيلنا الحاضر لن يقلع هذه الضرر ، فيجب قبل كل شىء ، أن يزعزع أركانها .

وألح طويلا على هذه النقطة ، فشعرت أنه يتحدث عن موضوع يملك عليك لبه .
وعادت زوجته أفدونيا سومونوفنا ، من النزهة وسمعت ضجة الأطفال
فاستأذنته ، وانصرفت مسرور الفؤاد .

يعرف كل الناس أن من عاش في القرية ، فكأنما يعيش فوق كرة من زجاج
شفاف ، فالناس يحيطون علماً بكل مايتعلق بك ، ويعرفون مافكرت به يوم
الأربعاء في الساعة الثانية ، ويوم السبت عند العصر ، وهم يعاونون حق العلم مراميك
الخفية ويغضبون غضباً شديداً إذا لم تبرر تخميناتهم واقتراضاتهم .

ومن الواضح أن كل المدينة ، عرفت رعاية كورولانسكو لى ، وكان حقاً على
أن أقاسى عدداً كبيراً من مثل هذه النصائح :

— احترس ، فستشوه هذه العصاة من « العقل » تفكيرك ...

وهم بذلك يشيرون إلى قصة ذائعة الصيت ، عنوانها « لقد عقل » كتبها
بوبريكن و ذكر فيها ثورياً اشترك في عمل جماعة « زيمستفوس » الشرعى ،
وأضاع ، على أثر ذلك ، مظلمته ، وهجرته امرأته . وقيل أيضاً :

— إنك ديمقراطى ، وأنت من أبناء الشعب وليس لك ماتعلمه من الجبرالات .

شعرت منذ زمن طويل أن الشعب كان كالرابة (١) على ، وأن عباد الشعب

كانوا أيضاً فى مثل هذا الوضع ، وذكرت لهم ذلك . فصرخوا بى :

— أرايت ؟ لقد شوها تفكيرك منذ اليوم ...

دعيت إلى حفلة عيد صغيرة ، عند طلاب التجهيز فى ياروسلاف . وبينما
أنا أتلو عليهم مالا أذكر ، صبوا فى كأس الجعة ، التى كنت أشربها جرعاً من
الفودكا بوهم يجتهدون فى إخفاء ذلك على . وعرفت عبثهم وفهمت أنهم يريدون إثارة
عصابى ، دون أن يكشفوا عن غايتهم . وهتف بى واحد منهم ، كثير الإعجاب
بنفسه ، مسلول :

— ألقى فى جهنم ، الأفكار والمثل الأعلى ، وكل هذه الأوشال المختلطة ،

ثم اكتب فى بساطة . ولتسقط الأفكار ...

وقد أرهقتنى كل هذه النصائح حقاً .

كان كورولانكو كما يكون كل إنسان مشهور، عرضة لمناورات سكان المدينة، فبعضهم يقدرون له اهتمامه بغيره، ويحتهدون في دعوة الكاتب ليتدخل في أمورهم الشخصية البسيطة، وبعضهم يوافقون على ذلك وهم يدسون. ولم يكن أصدقائي ممن يستحسنون قصصه وقالوا الى :

— بل إن كورولانكو لا يؤمن بالله .

ولم أدر لم غاظتهم قصة « وراء الصورة المقدسة » خاصة ، ورأوا أنها من علم أحوال الشعوب لأكثر من ذلك ولا أقل .

— إنها من يا كوشكين .

وأكدوا أن سجية البطل ، وكان حذاء ، مسروقة من رواية أوسبانسكي « أخلاق شارع راستير يافا » .

وخلاصة القول أن هؤلاء النقاد ، ذكروني براهب من فورونيغ ، أصغى إلى قصة مفصلة عن رحلة ميكلوخا - ميكل ، ثم سأل مرتبكاً مدمماً :

— عفواً ... تقولون إنه جاء إلى روسيا بزنجي ، ولكن أخبروني لم جاء بزنجي أولاً ؟ ولم جاء بزنجي واحد ثانياً ؟



الفصل السابع عشر

عدت ذات صباح جميل من نزهة لى فى الحقول قضيت فيها ليلى كله فصادفت كورولانكو عند باب منزله فسألنى مستغرباً :

— أين كنت ؟ أما أنا فأريد أن أقوم بنزهة ، وحبذا لو رافقتنى كان هو أيضاً لم يزم ليلته ، فقد ظهرت فى عينيه الحمراوين الجاقتين نظرة متعبة ، وكانت لحيته وثيابه مشعثة غير منظمة .

— قرأت فى صحيفة « ابن الفولجا » قصتك « الجند أركيب » وهى لا بأس بها ، وكان من الممكن أن تنشر فى مجلة ، لم لم تعرضها على قبل نشرها؟ ولم لاتزورنى؟ وأجبتة أنى طلبت البعد عنه ، منذ تلك الحادثة ، التى أقرضنى فيها ثلاثة روبلات ، فقد ناولنيها وهو لا ينبث بينث شقة ، وقد أدار لى ظهره . أصمتنى هذه الاهانة وطالما كان عسيراً على أن أستدين ، وكنت لا أبلغ هذه الغاية إلا عند ضرورة مطلقة .

فكر كورولانكو ، ثم قال ، وهو يفرك حاجبيه :

— لا أتذكر هذه الحادثة ، ولكنها وقعت حقاً مادمت أنت الذى تخبرنى بها. وعلى كل حال ، فأرجو أن تغض الطرف عن ذلك الاهمال ، فما أظن أنى كنت عندما ارتكبته ، طيب النفس ، وذلك أمر أقع فيه كثيراً فى هذه الأيام الأواخر ، فترانى بغتة أشرع فى التفكير كأنى ترديت فى إعماق بئر ، فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، ومع ذلك فأنا أصغى إلى شىء لا أعرفه ولا أتبينه ، وفى كثير من الجهد والعناء .

وتأبط ذراعى ثم حلق فى عيني :

— دع ماضى عنك ، ولا تكونن ممن يعنى بالشكليات ، أنا ميال إليك . وليس مما يضررك أن تلقى إهانة أو جراحة ، فنحن قليلا مانحس ، وذلك شىء

غير محمود. إذن فقد نسينا ماضى؛ فاسمع ما أريد أن أقول لك. إنك تكتب كثيراً وفي سرعة. وكثيراً ما أشعر في قصصك بشيء من الإهمال وعدم الوضوح ففي «أرخب» مثلاً وجدت وصفك البطر شعراً وتثراً، وصفاً غير موقع ولا متناسق، وهذا مالا أَرْضاه.

وحدثني حديثاً طويلاً ومفصلاً عن قصصى الأخرى، ورأيت في وضوح أنه كان يقرأ، في انتباه شديد، كل ما أنشر. ولا حاجة بي إلى القول إن ذلك أثر بي تأثيراً عنيفاً.

وقال لى مجيباً على شكرى:

— يجب أن يعين بعضنا بعضاً ~~فحين~~ قليلون، ونحن كلنا بائسون. وخفض صوته ثم سألنى:

— أحق ما يقال من أن آنسة تدعى ايستومين قد اشتركت في قضية نانسون وروماس وأصحابهما؟

كنت أعرف هذه الفتاة، فقد أنقذتها من الفولجا، وكانت قد أَلقت بنفسها فيه ناكسة على رأسها من مؤخرة زورق، وكان إنقاذها يسيراً جداً على فقد حاولت الغرق في مكان قليل الغور. وكانت فتاة لالون لها ولا ذكاء، فيها استعداد للهستيريا، وحب مرضى للكذب؛ وأظن أنها أصبحت بعد ذلك مدرسة عند ستولوبين في ساراتوف، ثم قتلت هى وغيرها بالقنبلة التى نسف بها البلاشفة قصر الوزير فى جزيرة «الصيدالة».

وأصغى كورولانكو إلى حديثى، ثم قال غاضباً:

— إن إشراك مثل هؤلاء الأطفال فى مثل هذه الحوادث الخطرة جريمة من الجرائم، لقد صادفت هذه الفتاة منذ أربع سنوات تقريباً، ورأيتها كما وصفت، فهى فتاة لطيفة، ألقها ما فى الحياة من ظلم واضح، وكان من الممكن أن تغدو مدرسة ناجحة فى الريف ويقال إنها ثرثرت عند الاستنطاق؛ ولكن ماذا تستطيع أن تعرف هذه الفتاة؟ كلا، إنى لأقبل ولا أوافق أبداً على أن يضحي بالأطفال على مسرح السياسة.

ثم أسرع خطاه ، وكنت مصاباً بالروماتزم فسرت وراءه ، وأنا أعرج .
— ما بك ؟

— روماتزم .

— سرعان ما أصابك هذا الداء . أرى أنك كنت كثير الجور على هذه الفتاة . وعلى كل حال فأنت قصاص ماهر . اسمع : حاول أن تكتب أشياء أكثر أهمية لتنشر في مجلة ، فقد آن لك . ستشر ما تكتب في المجلات ، وستكون كما أرجو ، أكثر جداً ، أليس كذلك ؟
لست أذكر مثل حديثه في هذا الصباح سحراً ولطفاً ، ونحن نمشي في حقل بلله يومان لم ينقطع فيهما الغيث .

وجلسنا أمدأ طويلاً على ضفة مستنقع قريب من مقبرة اليهود ، نعجب بلآلئ الندى على الأعشاب وعلى أوراق الأشجار ، وقص على نوع الحياة المبكية المضحكة ، التي يحياها اليهود في المنطقة الحرام ، وكانت ظلال التعب تكبر وتتسع حول عينيه .

وبلغت الساعة التاسعة ، فعدنا إلى المدينة ، وودعني وهو يقول :

— إذن فستحاول تأليف قصة كبرى .

وبدأت فور عودتي إلى منزلي في تأليف رواية « تشيلكاش » وهي تاريخ منتشر في أوديسا ، وكان جارني في مستشفى نيقولايف ، وقد كتبها في يومين وأرسلت المسودة إلى كورولانكو .

وبعد أيام أعاد كورولانكو جماعة من الفلاحين كان أساء إليهم من اشتغل عنده فهربوا وتشرّدوا ، ثم ، هنأني في عاطفة صادقة ، هو وحده قادر عليها :
— لا بأس لا بأس بما كتبت ، بل إنها قصة جيدة تماماً يجري فيها نفس واحد ..
ثم أخجلتني مدائحها :

وجلس عند المساء في مكتبه ، وقال لي في حرارة :

— لا بأس لا بأس . إنك قادر على خلق الطبائع ، وأشخاصك يتكلمون ويتحرّكون من أنفسهم ، بحر كتهم الشخصية الخاصة ، وأنت قادر على تجنب التدخل

في تلاعب عواطفهم وخيوط تفكيرهم ، ولقد طلب الناس ذلك طويلاً فلم يدر كوه وأدر كته أنت ؛ وشيء آخر خير مما مر ، هو أنك تقدر كل إنسان حق قدره ؛ وأنت تعلم أني طالما قلت لك إنك واقعي .
وفكر لحظة ثم أضاف :

— وأنت أيضاً في الوقت ذاته رومانطيقي ... وشيء آخر: أنت هنا منذ ربع ساعة ، وهذه هي لفافتك الرابعة .
— أنا شديد الارتباك ...

— ولماذا ؟ وليس هنالك ما يستدعي ذلك ؛ ثم أنت دائماً قليل النشاط ، ومن أجل ذلك يقال عنك إنك تشرب وتسرف في الشراب . إن لك كثيراً من العظام ، وقليلاً من اللحم ، وأنت تدخن في غير فائدة وفي غير سرور . ولم ذلك كله ؟

— لا أدري

— وأنت تسرف في الشراب كما يقولون ؟
— هذا خطأ .

— وأنت مستهتر .

ضحك وهو ينظر إلى ، ثم حدثني عن حوادث تتعلق بي كانت كلها مشوهة تشويها غير قليل ، ثم قال :

— إذا مشى إنسان في طريقه قدماً ، ضربه الناس على أم رأسه ، في كل مناسبة ، هذه حكمة جاء بها طالب من الطلاب ولكن دع عنك هذا كله ، فسننشر « تشيلكاش » في « روسكو بوكاستفو » وفي أبرز مكان ، وليس هذا شرفاً قليلاً . في مخطوطك مناوشات مع النحو ، جارت عليه جوراً ، وبخسته حقه ، وقد أصلحتها . ولم ألمس غير ذلك ، أتريد أن تلقى عليها نظرة ؟
ولقد رفضت طبعاً .

ومشى يقطع الغرفة الصغيرة راثماً غاديا ، يفرك يديه ، ويقول :
— أنا مسرور بنجاحك !

وأحسست إحساساً بـما في سروره من إخلاص عميق ، ورأيت لأول مرة في حياتي ، رجلاً يتحدث عن الأدب كما يتحدث الرجل عن المرأة ، إذا كان يحبها حباً هادئاً صلباً ، وشعرت ، وأنا مع مثل هذا المرشد ، بشعور لا يمكن أن أنساه ، هو شعور الراحة والاطمئنان ، وكنت أتبع في صمت نظراته وقد تفرق فيها العطف العذب الأخوى .

مأقل مانظف بمثل هذا العطف ، على أنه أعظم لذة فوق ظهر الأرض !...

وقف كورولانكو أمامي ، ووضع يديه الثقيلتين على كتفي وقال :

— اسمع ، لو سافرت من هنا ، مثلاً إلى سامارا ، فلي فيها صديق في صحيفتها .

أتريد أن أكتب إليه ليجد لك عملاً ؟ أأكتب ؟

— ولكن هل أزعج هنا أحداً ؟

— بل أنت الذي يزعجك الناس .

أيقنت أنه يعتقد بما يشاع من إدماني على الخمرة ، ومن استهتاري في الحمامات « وبصورة عامة من حياتي المتفسخة » — وبؤسى كان رأس نفسي ، وقد ألمني إلحاح كورولانكو على بالسفر ، ولكن رغبته في انتشالي من « أعماق الرذيلة » وقعت في قلبي موقعاً طيباً .

وصفت له متأثراً هائجاً حياتي ، فأصغى إلي صامتاً ، يفرك حاجبيه ، ويهز كتفيه :

— عليك أن تعرف أن الصبر على ذلك كله مستحيل . أنت لست في

المكان اللائق بك في وسط هذه الخزعبلات . كلا فاصغ إلى ؛ يجب أن تسافر ،

وأن تبدل حياتك .

وانتهى إلى إقناعي .

وكنت بعد ذلك ، إذا نشرت في جريدة سامارا مقالات سيئة أوقعها باسم

« ألبوديا خلاميديا » المستعار ، أرسل إلي كورولانكو ، ينتقد عملي اللعين ساخراً

صلياً قاسياً حيناً ، وصديقاً دائماً

لأزال أذكر هذا الحادث خاصة :

أرهقتني حتى كاد يقتلني شاعر له هذا الاسم الخبيث سكوكين (المضجر) .

وكان يرسل إلى مكاتب التحرير كيلومترات من القصائد رديئة الخط ، كثيرة

الميوعة ، ولم نكن نستطيع نشرها ، ولكن الظماً إلى المجد أوحى إلى هذا الشاعر بفكرة فذة ، فكان يطبع قصائده ، في منشورات موردة ، ويوزعها على بقاتل المدينة ، فيصر البقالون بها الشاى ، وعلب المربي ، والمحفوظات والسمن ، وتهال على السكان كما تهال على الناس الجواثر ، أنصاف قصائد ، تمجد السلطات المحلية تمجيداً هائلاً : نقيب الأشراف والحاكم والأسقف .

ولقد كان كل واحد من هؤلاء الناس الممتازين ، كل بحسب نوعه ، أهلاً للانتباه ، ولكن الأسقف كان أكثرهم مزايًا ، فقد عمد بالقوة فتاة تترية فأثار كل المقاطعة ، ونظم محاكمة ملة هليسي ، ولقد كانت هذه المحاكمة شاذة ومستحجة حقاً ، حكم فيها على أشخاص بمن أعرفهم براء براءة وإليك أعظم مشاريعه : كان حاكم مديرتنا ، يقوم بجولة تفتيشية ، في يوم عاصف . فتكسرت عربته عند قرية صغيرة ضائعة ، واضطر إلى الالتجاء إلى بيت فلاح .

ووجد الحاكم في هذا البيت فوق رف ، رأساً رخامياً يمثل (زوس) إلى جانب الصور المقدسة ، فأدهشه ذلك ، وقد أظهر استنطاق السكان وتفتيش المنازل الأخرى ، أن صور سيد الأولومبياد ، وكذلك تمثال الإلهة فينوس موجودان كذلك عند غيره من الفلاحين . ولكنهم أنكروا جميعاً مصدر هذه التماثيل

وقد كفى ذلك لإحالة هذه الملة الوثنية ، في سامارا ، إلى محكمة الجنايات ، لأنها تعبد الآلهة المزيفين في روما القديمة ، وألقى القبض على الوثنيين وألقوا في غياهب السجون ، وظلوا فيها إلى أن بين التحقيق ، أنهم قتلوا وسرقوا بائع تماثيل من فيانكا ، ثم تقاسموا بضاعته .

كنت كارها للحاكم ، والأسقف ، والوجود ، ولنفسى ، ولكثير من الأشياء ؛ ولذلك فقد كنت أشتم عند غضبي ونفمتى ، شتماً قبيحاً ، ذلك الشاعر « ابن الكلب » الذى يمجد من أكره .

وعلى أثر ذلك أرسل إلى كورولانكو كتاباً طويلاً يشرح فيه هذه الموضوعات : « إذا شتمت إنساناً مهما كان يستحق الشتم ، فعليك أن تحافظ على إحساسك

بالمقاييس والمعايير». وكان كتاب كورولانكو كتاباً ممتازاً ، ولكنه ضاع مع ماضع في عهد من عهود التفتيش ، فقد أخذه الدرك .

أما وقد مر ذكر الدرك فلا بد من حادثة تتعلق بهم :

في سنة ١٨٩٤ ، وفي أوائل الربيع ألقى على القبض في نيجني ، وساقوني سوقاً ليس كثير الأدب إلى تفليس . وقال لي القائد كونيتسكي وهو يستنطقني ، وقد أصبح بعد ذلك قائداً عاماً لدرك بطرسبرج ، في صوت حزين .

— مأجمل الرسائل التي يكتبها اليك كورولانكو ، إنه خير كاتب في روسيا .

ولقد كان هذا القائد رجلاً غريباً صغير الجسم ، لطيف الحركات ، متحفظها ومتردها تقريباً وعليه أنف شيطاني الضخامة ، حزين الهبوط ، أما عيناه الحيتان فكأهما غريبتان عن وجهه ، يخفي بؤبؤاهما خلف أرنبية أنفه اختفاء مضحكاً

— أنا من مدينة كورولانكو نفسها ، من فوليني ، وأنا منحدر من صلب الأسقف لوينتسكي الذي ألقى كما تذكر ، أمام كازين الثانية ، ذلك الخطاب الحافل الشهير « دعوا الشمس » .. الخ ... وأنا به غفور .

وسألته في أدب أيها أكثر فخريه : فخره بسلفه ، أم فخره بمواطنه كورولانكو ؟ فقال :

— بالأول وبالثاني ، نعم بالأول وبالثاني .

وطرد بؤبؤيه وراء أرنبية أنفه ثم نفخ نفخة صاخبة فعادا إلى مكانيهما مهرولين .

وكنت مريضاً خبيث النفس ، فنبهته إلى أني لا أفهم فهماً صحيحاً كيف يفخر بأن يكون مواطن رجل أحال حياته حذب الدرك عليه إلى جحيم لا يطاق وسيجعلها أصعب وأقسى . فأجاب لوينتسكي متأثراً :

— هذا حكم الله ونحن جميعاً ننفذ إرادة خالقنا ؛ لنستمر ...

— إذن فأنت تقول ومع ذلك فنحن نعلم ...

كنا جالسين في غرفة صغيرة ، عند قنطرة مدخل القصر ، ومن الكوة العالية القريبة من السقف يهبط على المنضدة المثقلة بالأوراق شعاع محرق من الشمس يضيء في وضوح ، وأنا جد مستغرب قطعة من الورق كتب فيها بخط واضح : —

أيكون السمك مغفلاً إذا قضم الغزال أشجار السرو ؟

نظرت إلى هذه الورقة الملعونة وأنا أفكر :

« بماذا أجيب القائد إذا سألني عن معنى هذا المقطع ؟ »

قضيت ست سنوات ، لأرى كورولانكو امتدت من ١٨٩٥ إلى ١٩٠١ ، ولم نكن نتراسل إلا نادراً ثم زرت بطرسبرج لأول مرة في سنة ١٩٠١ ، وهي مدينة طرقها مستقيمة ، وسكانها عوج ؛ وكنت من آخر « طراز » وقد كان « المجد » الذي يغمرني يمنحني حقاً من التنفس ، فقد كنت مشهوراً شهرة شعبية عميقة . أذكر أني كنت أجتاز جسر انتيشكوف فمر بي رجلان — أجيران عند حلاق كما يظهر — ونظر إلى أحدهما محدقاً بي ، ثم قال في خوف وفي صوت خافت لرفيقه :

— انظر ، جوركي

ووقف الثاني وفحصني فحصاً دقيقاً من رأسي إلى أخمص قدمي ؛ ثم تركني أمر أمامه وقال في إعجاب :

— يا سلام ، لابس كاوتشوك .

ولذة أخرى من اللذات أن أذهب لأبتسم عند المصور بين أعضاء تحرير « ناتشالو » ، وبينهم الجاسوس المحرض م . ن جوروفيتش...

نعم لقد كان حبيباً إلى قلبي أن أرى ابتسامات النساء المعجبات ، ويخيل إلى أني اصطنعت مظهر الديك الرومي ، مثل كل الشباب الذين حيرهم المجد .

ولكني كنت أحياناً ، إذا هدا الليل ، وخلوت إلى نفسي ، وجدتني للجرم الهارب . عرفت أن كل من حولي من جواسيس وقضاة ممن يزعمون أنهم يعتبرون الجريمة « شقاوة وتعاسة » ، « وضرباً من طيش الشباب » وأن « اعترافك به يكفي

للعفو عنك عفواً كريماً ، نعم عرفت أن كلا منهم يخفى في أعماق نفسه رغبة قوية ، في أن يقبض على المجرم متلبساً بجريمته ، ليصرخ في وجهه ظافراً منتصراً :
— إيه ... إيه ...

وكنت غالباً أضطر إلى أن أضع نفسي موضع تليد ، يسأل في المجتمعات ، عن كل فرع من فروع العلم . كان المؤمنون بالمذاهب ، وكهان المعابد ، يسألونني دائماً — ماذا تعتقد ؟

وكنت امرأة لطيفاً ، فأعددت نفسي لهذه الامتحانات ، وتجلدت تجلداً راعني تماسكه ، ولم ألبث أن فضلت ، على هذا العمل ، أن أنقب كاتدرائية إسحق بأبرة الموصلة ، أو أن أقوم بأية مغامرة أخرى لا تقل عنها خطراً وهولاً .

يخفي الروس وراء طبيبتهم ، التي تمكّد تكون دائماً مصطنعة ، بعض التصنع ، شيئاً يشبه الغلظة والجفاء . وهذا الطبع — أو في تعبير أصح ، هذه الطريقة في البحث ، تظهر في أشكال مختلفة ، وخاصة في نزعتهم ، إلى زيارة روح القريب كما يزار المنزل المتنقل ليروا ما فيه من تلافيف ؛ ولينبشوه ؛ وليتمشوا فيه وليوسخوه ، وأحياناً ليقبلوا فيه شيئاً ما رأساً على عقب .

وهم على حسب تعبير روماس ينشبون أصابعهم في كل شيء وهم يظنون ولا شك أن ارتياب النبي مثل فضول القروء .

ولقد رأى كورولانسكو في بطرسبرج الحجارة نفسها ، بيتاً ريفياً من خشب ، ألواحه مدهونة تفعمه رائحة القدم الناعمة .

لقد لعب الدهر به في هذه السنوات الأخيرة ، فأشاب نواصيه ، وطوى ما تحت عينيه ، وجعل نظره شاردة متعبة ، وشعرت رأساً أن هدوءه الذي طالما أرضاني قد حل محله ضجر رجل يعيش في توتر فكري حاد .

— أصابني أرق يعذبني عذاباً أليماً ؛ وأنت أما تزال تدخن كثيراً غير محترس من السل ؟ وكيف حال رئتيك ؟ سأسافر إلى البحر الأسود . أتريد أن أسافر معاً ؟

وجلس وراء المنضدة أماًى وكان يتطلع إلى من وراء السماور ويحدثني عن مؤلفاتي :

« مارنكا — أو ليسوفا » وأمثالها أكثر نجاحاً من « نوماس جارديف »
فهذه الرواية عسيرة على القارئ ففيها مادة كثيرة ، ولكن لانظام ولا انسجام .
ونصب ظهره ففرقت فقراته وسألني :

— اذن فقد أصبحت ماركسياً

وأجبتة أنى من الماركسى قريب جداً ؛ فابتسم كورولانكو مسروراً وأبدى
هذه الملاحظة :

— الماركسية عندى غير واضحة . وأنا لا أفهم الاشتراكية بدون مثالية . وأنا
لا أعتقد أن فى الامكان بناء الأخلاق على الشعور باشتراك المنافع المادية . ولن
نستطيع شيئاً بلا أخلاق .

وسألني وهو يشرب الشاى :

— قل لى كيف رأيت بطرسبرج ؟

— إن المدينة أَدعى إلى الاهتمام من السكان .

ورفع حاجبيه ، وضغط بأصابعه عينيه المرهقتين وقال :

— سكان بطرسبرج أقرب الى الأوروبية من سكان موسكو ، وسكان
نهرنا الفولجا ؛ يقال إن موسكو فذة الشخصية . ولست أعلم ذلك ؛ بل أنا أرى
أن شخصيتها فى نوع من المحافظة الثقيلة السطحية . فهنا لك دعاة للجامعة السلافية
مثل كلاتكوف ؛ وهنا ديسمبريون مثل تشيرينشيفسكى .

— وبوميدو فوستيسيف . . .

— وقال كورولانكو ساخراً :

— ماركسيون ؛ وغير أولئك من الذين يتحرقون فكرياً تقدماً أو ثورياً .

أما بوميدو فوستيسيف فله عبقرية مهما قلت عنه . أقرأت له « مقتبسات موسكوفية » ؟
ولاحظ على الأخص كلمة موسكوفية . وأخذته ثورة من حماسة عصية ، فحدثني
هازلاً عن صراع الحلقات الأدبية ؛ وعن المناقشات بين الشيعيين والماركسيين .
وكنت أعرف شيئاً منها ، فقد حدث فى اليوم التالى من وصولى إلى بطرسبرج
أن كدت أقع فى « واقعة » لا تزال كراها تزعجنى ؛ وقد زرت كورولانكو
لأقصا عليه .

وهذا ملخص الحادثة :

نظم ف. أ. بوسى رئيس تحرير مجلة « جيزن » (الحياة) حفلة لذكري تشيرنيشيفسكى ودعا إلى المشاركة فيها كورولانكو وخايلوفسكى ومليكشين وستروفى ، وتوغان بارانوفسكى وغيرهم من شعبيين أو ماركسيين ، وقد وافق الأدباء وسمحت الشرطة .

زارنى فى اليوم التالى ، من وصولى إلى بطرسبرج طالبان رشيقان وأنسة لعوب ؛ وقالوا إن مشاركة بوسى فى ذكرى تشيرنيشيفسكى لا يمكن أن تقر : « إن بوسى فى نظر الشباب لا يمكن قبوله لأنه يستثمر المشتركين فى الـ « جيزن » .

وكنيت أعرف بوسى منذ أكثر من سنة ؛ ورأيت أنه عصامى ، وذو موهبة ليست فى القدرة على استثمار المشتركين ؛ وأنه صديق لهم ؛ وأنه يعمل كالحصان فى سبيل راتب ضئيل ، يعيش به فقيراً هو وعائلته الكبيرة . وحدثت بذلك الزائرين الشباب — وعند ذلك حدثونى عن موقف بوسى السياسى وأنه مشكوك فيه ؛ فهو متردد بين الشعبيين والماركسيين ، وأنه يعرف ذلك من نفسه فىوقع مقالاته باسم « ويلد » المستعار . ونقم حماة الأخلاق والأرثوذكسية على ، وخرجوا يعلنون أنهم سيقابلون كل الذين دعوا إلى الحفلة ويقنعونهم بالتخلف عنها .

وظهر بعد ذلك أن هذا الحادث لم يكن حملة شخصية على بوسى بل « ظاهرة من ظواهر النزاع بين تيارين سياسيين » ، فقد كان الماركسيون الشباب يعتقدون أنى ليس من الملائم أن يظهر ممثلو مدرستهم فى حفلات عامة ، إلى جانب ممثلى الشجعية (المهترئة المحتقرة) وقد عرضت كل هذه الفلسفة ، فى كتاب طويل كالتقرير وشرحت فى تعابير عليية ، جعلتنى أشعر بعد قراءته أنى غريب . وبعد هذا الكتاب الذى أرسله إلى من لم أرهم قط ، وصلتني بطاقة من ستروفى يخبرنى فيها أنه يرفض حضور الحفلة ؛ ثم وصلتني بطاقة أخرى منه ، يخبرنى فيها أنه رجع عن رفضه ؛ ثم وصلتني بطاقة ثالثة فى اليوم التالى يقول لى فيها إنه عاد فرفض نهائياً ، ولم يبين أسباب رفضه ، أو قبوله ، فى كل بطاقاته ورفض حضور الحفلة توجان بارانوفسكى أيضاً .

أصنى إلى كورولانكو وقال مازحاً :

— يدعونك إلى الكلام فإذا صعدت المنبر ، قبضوا عليك فحلوا سراويلك وجلدوك .

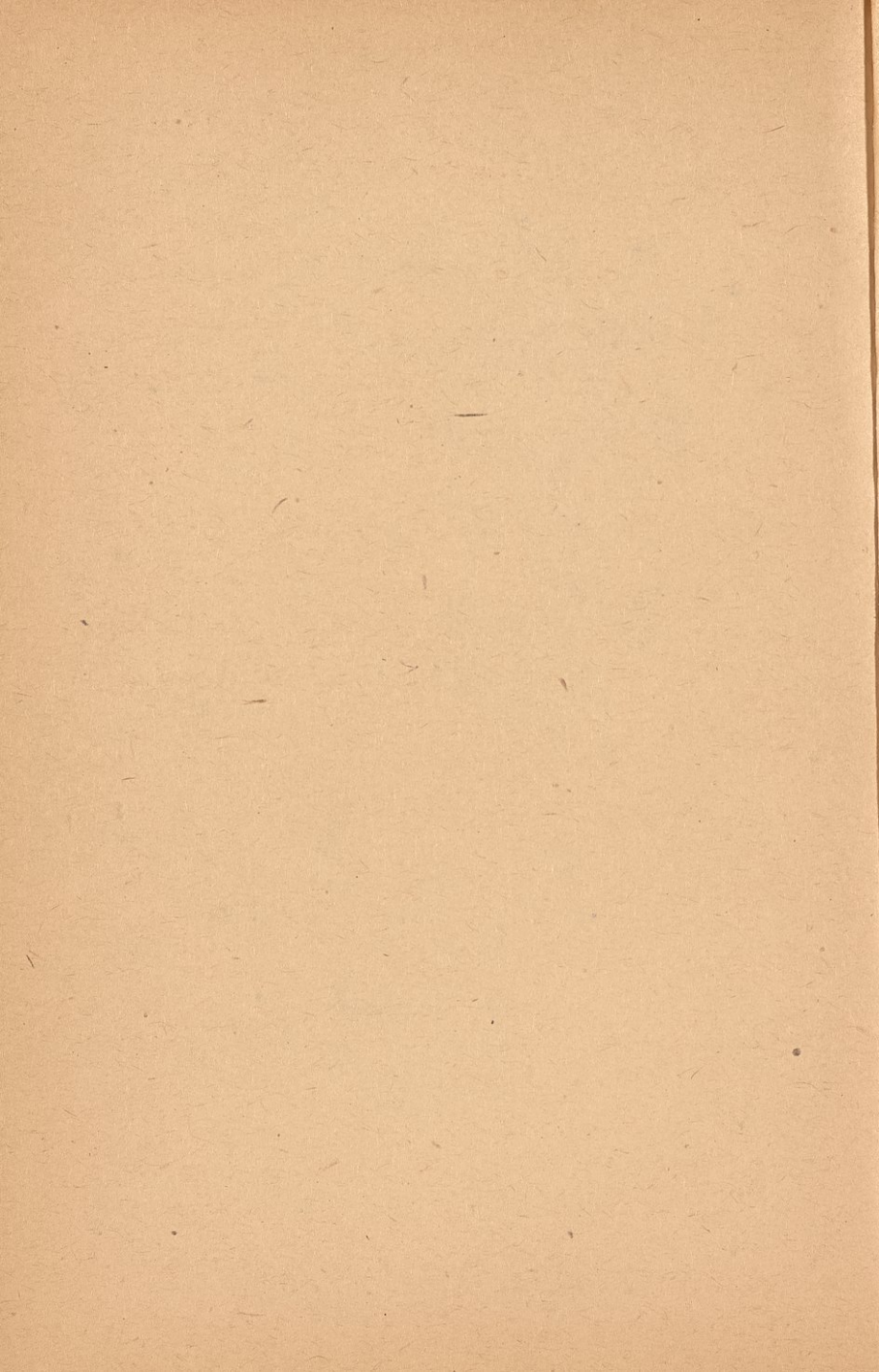
وتمتم مفكراً وهو يغدو ويروح في الغرفة ويداه وراء ظهره :

— ما أصعب هذا الزمان . إن فيه شيئاً غريباً يفسخ الناس . أنا لا أفهم تفكير الشباب حق الفهم ؛ ويخيل إلى أنه يعود إلى العدمية ، وأن الدعاة المهنيين إلى الاشتراكية قد ظهوروا . الارستقراطية تقتل روسيا ؛ ولكننا لا ندرى أية قوة نستبدلها بها .

تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها كورولانكو في مثل هذا الاهتمام والتعب ؛ ولقد آلمني ذلك حقاً .

وجاء أعضاء مجلس من المجالس المحلية في الريف ليزوروه ، فاستأذنت وخرجت ، وسافر بعد يومين أو ثلاثة ليستريح ، وكان هذا آخر عهدي به ، كما أذكر .

تمت



استدراك

حدثت اخطاء مطبعية ، وخاصة في الملزمة الثانية وقد سجلنا تصحيحاً لأهمها
ونحن نعتذر لحضرات القراء عن هذا الخطأ ونرجو أن تتلافاه في الطبعة الثانية .
فكنا نود أن ننشر النص كاملاً ، لقيمة المؤلف الأدبية والفكرية . ولكن
حالت الظروف الراهنة دون ظهور بعض الاجزاء .

ويعيننا أن القارىء سيجد في مادة الكتاب عوضاً عن النقص التي
اضطررنا اليها .

« القاسم »

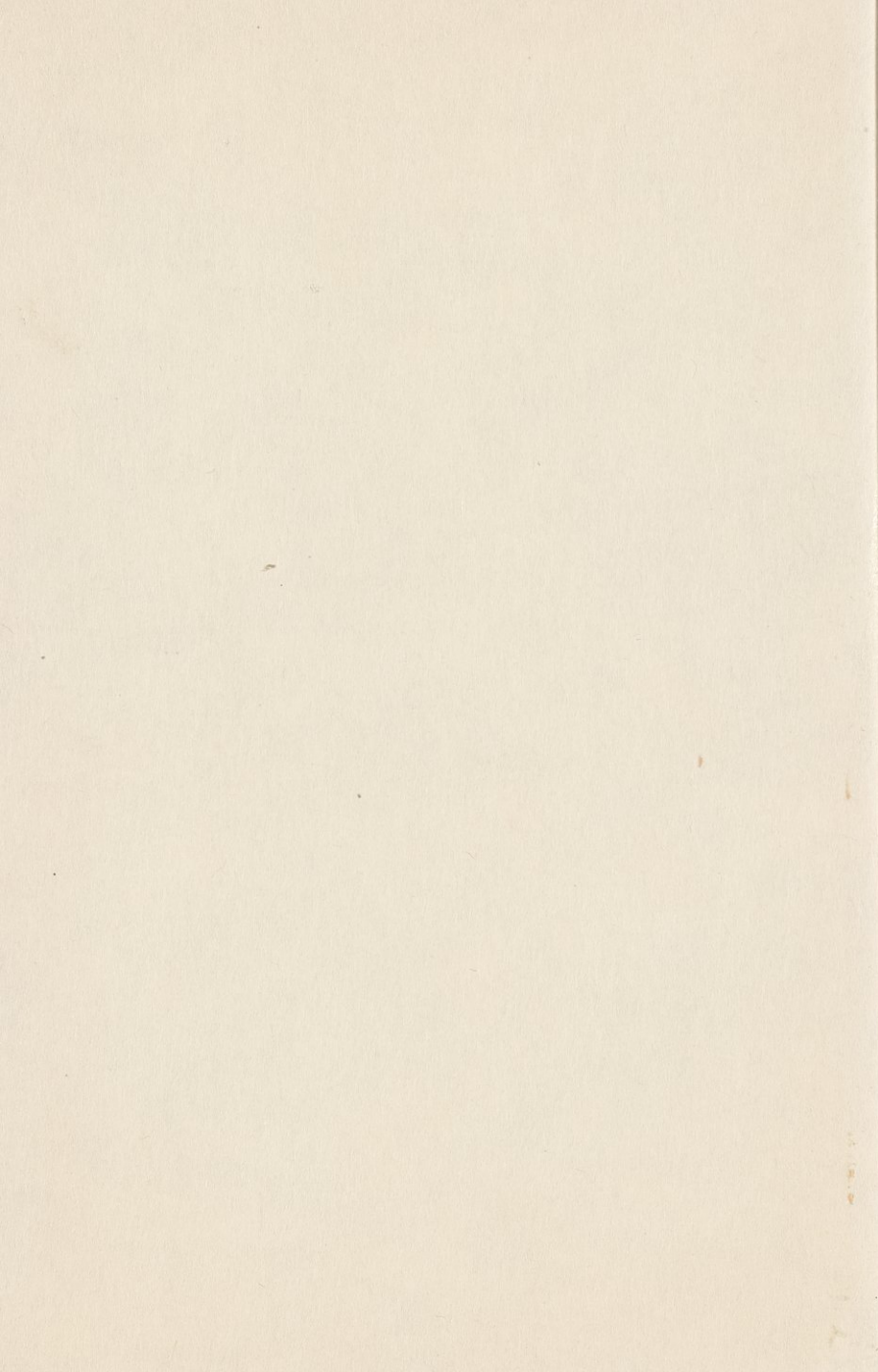
جدول الخطأ والصواب

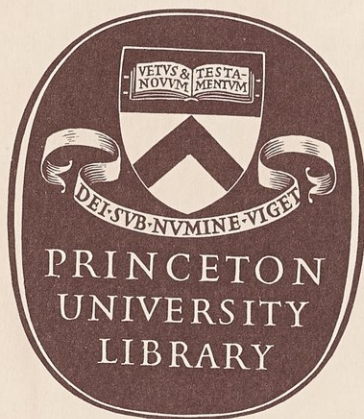
الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب
القائمة	ستورات	ستورات	القائمة
هدوء	بكذب	بكذب	هدوء
طريقهما	استطاعنا	استطاعنا	طريقهما
مفكرًا	إثارة	إثارة	مفكرًا
نفسى	الجبرين	الجبرين	نفسى
ينى	الأنشوي	الأنشوي	ينى
البحر	ينقشه	ينقشه	البحر
أكفكن	دورانكون	دورانكون	أكفكن
(الأبغى)	بالتهم	بالتهم	(الأبغى)
كرهوه	منهم	منهم	كرهوه
لا تبلغ الهدف	قتحفت	قتحفت	لا تبلغ الهدف
لا يزال يوارى	بهزؤون	بهزؤون	لا يزال يوارى
مخبرتان	حاق	حاق	مخبرتان
يعت	ما حاق	ما حاق	يعت
الليل	مريرة	مريرة	الليل
يقر	أصبوا	أصبوا	يقر
تستطع	أطلقن	أطلقن	تستطع
تنبجس	أزال	أزال	تنبجس
زورقه	ولم	ولم	زورقه
فستضارب	الغرف	الغرفة	فستضارب
نسيده	كلية	كلية	نسيده
من	عشرة	عشر	من
ترن	منها	منا	ترن
الستائر	يخرج	يخرج	الستائر
انتباه	قريبات	قريبات	انتباه
الحمار	غداثه	غداثه	الحمار
شيدا	يعينى	يعينى	شيدا
(أغسطس)	تشرينيا	تشرينيا	(أغسطس)
نظراته	لا	لا	نظراته
	يلمك	يلمك	

4104



الناشر: دار القرن العشرين للنشر
ص.ب ١٩٢٤ - القاهرة





Princeton University Library



32101 060770177